سلسلة إصدارات الناشر المتميز (١٥٦)

التعليقات السنية على العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

أ.د. محمد بن خليفة بن علي التميمي

اعتنى به وأعده للنشر

عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد



دار الأماجد للطباعة والنشر

الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع

ح دار الناشر المتميز، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التميمي، محمد بن خليفة

التعليقات السنية على العقيدة الواسطية . / محمد بن خليفة

التميمي - المدينة المنورة، ١٤٤١هـ

٢٨٠ص، ١٧×٢٤ سم

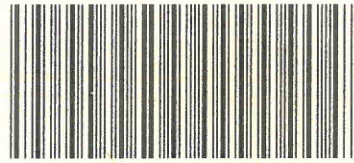
ردمك ٣-٤-٩١٤٥٩-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الاسلامية ٢- التوحيد أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤١/١١٩٨٧

رقم الإيداع: ١٤٤١/١١٩٨٧

ردمك: ٣-٤-٩١٤٥٩-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١م

دار الأماجد
للطباعة والنشر
daralamajid@gmail.com

الناشر المتميز
للطباعة والنشر والتوزيع
almotmiz1437h@gmail.com

سلسلة إصدارات الناشر المتميز (١٥٦)

التعليقات السنية على العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

أ.د. محمد بن خليفة بن علي التميمي

اعتنى به وأعده للنشر

عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد

دار الأماجد
للطباعة والنشر

الناشر المتميز
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم




مقدمة المعتني بالكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزَاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار وبعد:

فإن من أصول الإسلام العظيمة، ومبانيه الجليلة، معرفة ما

يتعلق بالركن الأول من أركان الإسلام، وهو ركن الشهادتين: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله الله»، وهذا الركن قد احتوى جملتين لا انفكاك بينهما، ولا تتم الأولى إلا بالأخرى، وهما مفتاح الدخول إلى دين الإسلام، والخلود في دار السلام.

فالشطر الأول من هذه الجملة المباركة، فيه إثبات الألوهية لله تبارك الله وتعالى، وأنه المتفرد والمستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأما الشطر الثاني: ففيه إثبات الرسالة لمحمد ﷺ، وأنه مرسل من ربه تبارك وتعالىٰ.

وقد أفاض علماء الإسلام في بيان أهمية هاتين الشهادتين، وعظم هاتين الجملتين، وقيام الإسلام عليهما، وأفردوا لكل جملة منهما مصنفات تشرح مجملها، وتبين مقاصدها، وتوضح نواقضها.

«وعقيدة السلف الصالح عني بتوثيقها وبيان أدلتها وشرحها جماعات من الأئمة الكبار، في مصنفات كثيرة، استقلالاً وضمناً؛ منها المؤلفات الموسومة بـ«السنة»؛ أي: المعتقد، وهي تربوا على مئتين وخمسين مؤلفاً، منها: «السنة» لابن أبي عاصم، و«السنة» لعبدالله ابن الإمام أحمد، و«السنة» للخلال، و«السنة» لأحمد بن الفرات أبي مسعود الرازي، «السنة» لإسماعيل بن أسيد المديني، و«السنة»" لابن القاسم - صاحب مالك -، و«الصفات والرد على الجهمية» لنعيم بن حماد، و«السنة» للأثرم، و«السنة»" لحرب بن إسماعيل الكرماني، و«السنة» لابن ابي حاتم، و«السنة» لابن جرير الطبري، و«السنة» للطبري، و«السنة» لأبي الشيخ الأصبهاني، و«السنة» لأبي القاسم اللالكائي، و«السنة» لمحمد بن نصر

المروزي، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث» للإمام الصابوني، و«الإبانة» لابن بطة، و«التوحيد» لابن خزيمة، و«التوحيد» لابن منده، و«الإيمان» لابن أبي شيبة، و«الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام، و«شرح مذاهب أهل السنة» لابن شاهين، و«الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة» لقوام السنة أبي القاسم الاصبهاني، و«أصول السنة» لأبي عبد الله ابن ابي زمنين، و«الشريعة» للآجري، و«اعتقاد أهل السنة» لأبي بكر الإسماعيلي، و«السنة» للبربهاري، و«الإيمان» لابن منده، و«الإيمان» للعدني، و«العرش» لابن ابي شيبه، و«القدر» لابن وهب، و«القدر» لأبي داود، و«الرؤية»، و«الصفات»، و«النزول» للدار قطني، و«جواب أهل دمشق في الصفات» للخطيب البغدادي...» وغيرها كثير كثير[(١)].

وهكذا كتب من جاء بعد هؤلاء من أهل السنة، ككتب ابن عبد البر، وابن قدامة المقدسي، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، ومحمد بن عبد الوهاب، .. وغيرهم؛ فيها بيان المعتقد الصحيح، والاحتجاج له، وكشف شبهات أهل الأهواء.

إن خدمة كتب العلم ولا سيما ما يتعلق بأصول الدين من أفضل الأعمال واكثرها نفعاً لطلاب العمل، بل لعموم المسلمين

وكتاب «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكتب التي نفع الله بها عامة المسلمين وخاصتهم في هذا الزمان، وقد اعتنى بشرحه العلماء والمشايخ على مر السنين ما بين شارح ومعلق ومعتني ومختصر ومخرج.

---

(١) انظر كتاب "المعتقد الصحيح " للشيخ عبد السلام بن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن هؤلاء الفضلاء الذين حفظ الله بهم الشريعة: صاحب الفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد بن خليفة التميمي حفظه الله الذي قام بشرح هذا الكتاب النفيس فألفيته شرحاً قيماً نافعاً مفيداً لإخواني من طلاب العلم لما حواه من تأصيل بديع وفوائد جمة.

ونسأله سبحانه أن يجزي فضيلته خيراً الجزاء وأن يمتعه بالصحة والعافية ويبارك له في علمه وعمله وعمره.

كما نسأله جل ثناؤه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم نافعاً لعباده مقرباً إليه إنه سميع مجيب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد
a.j.majid@hotmail.com




مقدمة المصنف

«الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليُظهره علىٰ الدين كُله، وكفىٰ بالله شهيدًا.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له؛ إقرارًا به وتوحيدًا.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

صَلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آله وسَلَّم تسليمًا مزيدًا».






مقدمة الشارح

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا؛ مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، **ثم أما بعد:**

قبل أن نشرع في بيان ما احتوت عليه هذه «العقيدة الواسطية» من مسائل وقضايا - أُحِبُّ أن أُقَدِّم ببعض المقدمات.

المقدمة الأولىٰ: مفهوم العقيدة:

أولىٰ تلك المقدمات: هي ما يتعلق بشأن هذا العلم؛ علم العقيدة، فإن كثيرًا من طلبة العلم قد يدرس جزئيات هذه العقيدة دون أن يستوعب كيفية الربط بينها وبين ما يَعنيه هذا العلم؛ لذا لا بد من وضع مقدمة هنا تتعلق بأمر هذه العقيدة؛ لكي يستطيع طالب العلم أن يربط بين جزئيات المسائل وبين كلياتها.

فعلم العقيدة علم يُعنىٰ بباطن الإنسان، فنحن إذا ما تأملنا حديث جبريل المعروف، والذي بَيَّن فيه النبي ﷺ أركان الإسلام وأركان الإيمان والإحسان، نرىٰ أنَّ النبي ﷺ جعل أركان الإسلام هي الأمور الظاهرة، وجعل أركان الإيمان هي الأمور الباطنة، ثم ذكر الإحسان، والإحسان مجموع الأمرين؛ لأن الإحسان هو إتقان الظاهر والباطن، فإذا ما أتقن الإنسان الظاهر والباطن - فإنه بذلك

يكون من أهل الإحسان.

فإذا قلنا: إن العقيدة أمر يُعنىٰ بالباطن، فالسؤال الذي يفرض نفسه ما هو الباطن؟

والجواب: أن الباطن هو مجموع أمرين: أمر الفكر والنَّظر. وأمر الإرادة والعمل.

ونحن لو تأملنا في عِدَّة نصوص من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ؛ لأرشدتنا إلىٰ مفهوم هذا الباطن؛ وذلك كقول الله ﷻ في تزكيته لنبيه ﷺ حيث قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجم: ٢]؛ فقد زَكَّاه الله سبحانه وتعالى في جانبين، وكذا تزكية النبي ﷺ للخلفاء من بعده؛ كقوله: «**عَليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**»(١).

قال الراغب الأصفهاني: «والرُّشد: خلاف الغَي، يستعمل استعمال الهداية؛ يقال: رَشَدَ يَرْشُدُ، ورَشِدَ يَرْشَدُ؛ قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النِّسَاء: ٦]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبيَاء: ٥١]، وبين الرُّشدين - أعني: الرُّشد المؤنس من اليتيم، والرُّشد الذي أوتي إبراهيم عليه السلام - بونٌ بعيدٌ»(٢).

وإذا ما جمعنا بين الآية والحديث نجد أن لكل لفظ ما يقابله؛ فالرشد ضد الغواية، والهدىٰ ضده الضلال، فإذًا أخبر الله تعالىٰ بكمال الهدىٰ والرشد للنبي ﷺ، وزكىٰ النبي ﷺ الخلفاء وأخبر بأنهم راشدون مهديون.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والدارمي (٩٦) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧).

(٢) «المفردات في غريب القرآن» (ص ٣٥٤).

والرشد مكانه العقل، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في شأن اليتامىٰ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النِّساء: ٦]؛ فلا يدفع المال إلىٰ اليتيم إلا إذا بلغ رشده، وليس ببلوغه سن التكليف، فإذا أحسن التصرف في ماله فعند ذلك يُدفع إليه، وأما إذا لم يحسن ذلك فلا يدفع إليه هذا المال حتىٰ يرشد.

فالرشد مكانه العقل، والهدىٰ مكانه الإرادة أو القلب بمفهومه الخاص؛ لأن القلب في الحقيقة هو الباطن، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب. والعقل يُراد به العلم، ويراد به العمل؛ فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد؛ فلا بد أن يكون القلب متصورًا، فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدة إلىٰ الدماغ؛ فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء»[١].

وإن كان في بعض النصوص قد يُطلق القلب ويراد به أحد الجانبين، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صَلَحت صَلَح الجسد كله، وإذا فَسَدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢].

وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم ألهمني رُشدي، وأَعِذني من شَرِّ نفسي**»[٣]؛ فدعا هنا بكمال الأمرين: بكمال الإرادة والعمل،

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٣/ ١٩٧) برقم (١٩٩٩٢)، والترمذي (٣٤٨٣) واللفظ له من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وإسناده عند أحمد صحيح علىٰ شرط مسلم، كما قال محققو «المسند».

وبكمال الفكر والنظر.

ولو تأملنا قول النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء: حارثٌ وهَمَّام**»(١).

فهذان الاسمان أصدق وسم على الإنسان؛ لأنه في إرادة دائمة وكسب دائم؛ إمَّا إلى خير وإما إلى شر، وفي همٍّ وتفكير دائم؛ إمَّا إلى خير وإما إلى شرٍّ؛ فهذان الاسمان أصدق وصف للإنسان.

والوحي قد جاء يخاطبك أيها الإنسان من داخلك، وهذه العقيدة جاءت لتعنى بك من داخلك، وداخلك هما هذان الأمران، ولذلك تأمل قول الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقَّة: ٤٠-٤٢]، لماذا ذكر الشعراء؟ ولماذا ذكر الكُهَّان هنا؟ وما وجه هذا الذكر في باب الثناء على الوحي؟

والجواب: لتعلم أن هذا الوحي جاء يخاطبك أيها الإنسان، وليس هذا الوحي مجرد قول شاعر يتلاعب بمشاعر الإنسان وإرادته، ويحاول في بعض الأحيان أن يقلب الحق باطلًا والباطل حقًّا، فقد يُزَيِّن الزنا باسم الحب والغرام وغير ذلك، وهذا ما يفعله كثير من الشعراء، وكذلك قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾؛ لأن الكاهن يتلاعب بالحقائق العلمية.

فإذًا نزه الله هذا الوحي عن أن يكون من هذا أو من ذاك.

وتأمل كذلك هذا النص في سورة الشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٢٢١-٢٢٢]؛ فذكر الكهان، ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤]؛ فذكر الصنفين، وأعاد

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) و أحمد في «المسند» (١٩٠٣٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥١٤) من حديث أبي وهب الجشمي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٤٠).

ذكر هذين الصنفين، والشيطان عدو الإنسان لا يدخل عليه إلا من أحد هذين البابين؛ إمَّا باب الشهوات المحرمة، وهذه تتسلط علىٰ الإرادة. وإما من باب شبهات الضلال، وهذه تتسلط علىٰ الفكر والنَّظر.

فإذًا نخلص من هذه النصوص إلىٰ أن الباطن مجموع الأمرين: مجموع الفكر والنظر ومجموع الإرادة والعمل.

وقد لخَّص لك السلف هذه الحقائق بقولهم: «الإيمان قول وعمل».

ومعنىٰ قولهم: «قول» أي علم؛ فالعلم يجعل الإنسان يُميز بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال، وبالتالي يعرف الإيمان؛ فيقوم به، ويعرف الكفر ليجتنبه. وعمل وهو الجانب الإرادي.

ولذلك وأنت تدرس العقيدة يجب أن تعلم أنها تقوم علىٰ مجموع الأمرين، وهذا ما تميز به منهج السلف؛ فقد اعتنىٰ بكلا الجانبين (العلم والعمل)؛ فاعتنىٰ بمجموع الأمرين في هذا الباطن الذي هو في الحقيقة بصلاحه يصلح أمر الإنسان كله؛ لأنه متىٰ ما صلح الباطن صلح الظاهر، واستقامت الجوارح بناءً علىٰ استقامة هذا الباطن؛ فضلًا عن أن هذا هو المقصود بعلم العقيدة.

وهاك بعض الأمثلة كتطبيقات علىٰ ما تقدم: كيف تكون مؤمنًا بالله تعالىٰ؟

لا تكون مؤمنًا بالله تعالىٰ حتىٰ تعرف الله، وهذا جانب علمي. وحتىٰ تعبد الله، وهذا جانب عملي.

وإيمانك بالنبي ﷺ لا يصح حتىٰ تصدق به، وهذا جانب علمي. وحتىٰ تتبعه، وهذا جانب عملي.

وكذلك القرآن وهو إما أخبار وإما أوامر؛ فحق الأخبار أن

تُصدق، وحق الأوامر أن تُتَّبع، إذًا ما جاء هذا الوحي إلا لِيُصلح هذا الباطن.

فهذا هو علم العقيدة إذا درسته وتعمقت فيه فبقدر هذا التعمق يجب أن تصلح من باطنك، وإذا أصلحت هذا الباطن استقام هذا الفكر؛ فرأيت الحق حقًّا والباطل باطلًا، وعندها تستقيم عندك أمور النظر، وتستقيم بهذا الوحي الذي هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وتستقيم كذلك باتباع الأوامر؛ فمن هنا قدمت بهذه المقدمة المختصرة.

فالجانب العلمي هو أنك عرفت الله سبحانه وتعالى، ومَيَّزت بين هذا الإلٰه الحق وبين هذه الآلهة الباطلة، وعرفت ما يستحقه سبحانه وتعالى من أسماء حسنىٰ وصفات عُلَا.. إلىٰ غير ذلك من هذه الجوانب العلمية، وهكذا إذا درست أعمال القلوب من خوف ورجاء وتوكل وغير ذلك.. فهذه جوانب عملية، وطبعًا كلا الأمرين لا بد منه، فعندما يقول السلف: «الإيمان - أي: العقيدة - قولٌ وعملٌ»، فإنما يعنون مجموع الأمرين؛ فلا ينفع العلم وحده، ولا ينفع العمل وحده.

ونحن لا نكتفي بباب العلم بالله سبحانه وتعالى، فهذا العلم لا بد أن يتبعه العمل، لذا بوب البخاري بابًا سماه: (باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم)[(١)].

فلعل في هذه المقدمة المختصرة بيانًا لمفهوم العقيدة وهو أن اعتقاد الإنسان في باطنه بمجموع الأمرين؛ فيؤمن بجانب العلم، ويؤمن بجانب العمل.

وبالتالي دراسة هذه العقيدة تصلح هذين الجانبين، وبصلاحهما يَصلح الإنسان في جميع أحواله بإذن الله سبحانه وتعالى؛ فمتىٰ ازداد علمًا بها

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٢٤، ٢٥).

وتعمُّقًا فيها فإنه بذلك يصلح من أمر هذا الباطن، وهذا سبب في سَدِّ منافذ الشيطان من شبهات الضلال وشهوات الحرام.. فنحن متىٰ استقام فكرنا ونظرنا وعلمنا واستقامت كذلك إرادتنا صلح حالنا، ومن هنا يجب أن نُعنىٰ بهذا الجانب أعظم العناية؛ فنأخذه من منبعه الصافي، لأننا أمناء علىٰ ما نتعلم ونعتقد وما نعمل، وسنسأل عما نعلم وعما نعمل؛ لذا يجب أن يكون ما نعلمه وما نعمله وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى به ووفق ما أمر به رسوله ﷺ.

فهذا مفهوم العقيدة، والعقيدة - بحمد الله تعالىٰ - سهلة ميسرة ومحببة إلىٰ النفس، لكن متىٰ أحسن الإنسان أخذها من معينها الصافي، ومتىٰ ما أحسن استيعابها وأخذها علىٰ الوجه الذي ينبغي، أما إذا حصل خلل من جهة المأخذ أو من جهة التطبيق؛ فهذا الخلل يعود إلىٰ المتلقي.

المقدمة الثانية: فهم الأوليات والأولويات:

هناك أوليات وأولويات للعقيدة؛ لأن النبي ﷺ قد قال لمعاذ عندما بعثه إلىٰ اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إلٰه إلا الله**»[(١)]، وفي رواية: «**فليكن أول ما تدعوهم إلىٰ أن يوحدوا الله تعالىٰ**»[(٢)].

فينبغي أن تتأمل في ترتيب هذه الأولويات؛ كيف رتبها المصنف؟ وهذا هو ترتيب أهل السنة والجماعة؛ وكل خير في اتباع

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٨٤) بلفظ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله...»، وأخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...».

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

من سلف وكل شر في ابتداع مَن خلف؛ فأول ما يبدأون به: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ثم بقية أركان الإيمان.

وقد يأتي وقت من الأوقات مَن يحاول أن يغير هذا الترتيب، وأن يقدم بعض الأمور التي جاءت في آخر العقيدة؛ فهل ننساق وراء رغباته؟ أو وراء هذا المنهج الذي قد يسلكه البعض؟

لا، بل يرجى أن يتم التمكن لهذه المسألة؛ لأننا أصحاب العقيدة، وفيها أوليات وفيها أولويات، ولسنا بحاجة إلى مَن يعيد لنا ترتيب هذه الأمور، فلا يأتي إنسان فيجعل من مسائل الأحكام أو مسائل الأسماء أولية، أو يجعل من مسائل الخلافة والإمامة أول هذه المسائل ويرجئ مسائل الإيمان بالله.. إلى آخر ذلك، فمثلًا إذا جاء إنسان يريد أن يحيد عن منهج أهل السنة والجماعة ومنهج أهل السلف؛ فيجب أن نعلم أن هذا هو سبيلنا؛ فأمورنا مرتبة بحمد الله تعالى.

ونحن - بحمد الله تعالى - نتميز بأمرين:

أولًا: ثبات العقيدة؛ فما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وما كان عليه أصحابه فنحن عليه إلى هذا اليوم، ووالله ما نرضى أن نحيد عن هذا قدر أنملة، وإن حدنا عن هذا المنهج فنحن - والله - في ضلال، والعقيدة منا براء.

ثانيًا: اتصال العقيدة؛ فعقيدتنا ليست منقطعة، ولا شك أن العقيدة التي تركها النبي صلى الله عليه وسلم واستقام عليها أصحابه رضوان الله عليهم محفوظة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تزال طائفة من أُمَّتي على الحق ظاهرين»**[(١)]، وعندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٥٦) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

«مَن كان علىٰ مِثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(١).

فإذا كنا علىٰ هذه العقيدة التي كان عليها النبي ﷺ وكان عليها أصحابه فنحن علىٰ الحق بإذن الله تعالىٰ، وإذا حُدنا فضلالنا علىٰ أنفسنا.

فلنعلم أننا أمام عقيدة ثابتة متصلة سندها إلىٰ النبي ﷺ، ولذلك تميز أهل السنة - أهل الحديث - بالإسناد. هذا ما أردتُ أن أُقَدِّم به بين يدي شرح هذه العقيدة وبالله التوفيق.

أمَّا عن سبب تأليف العقيدة الواسطية؛ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كان سبب كتابتها**: أنه قدم عليَّ من أرض واسط بعض قُضاة نواحيها - شيخ يقال له: رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قدم علينا حاجًا، وكان من أهل الخير والدين، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفي دولة التَّتَر من غلبة الجهل، والظلم، ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فاستعفيت من ذلك، وقلت: قد كتب الناس عقائد متعددة، فخذ بعض عقائد أئمة السنة، فألحَّ في السؤال، وقال: ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت، فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر»(٢).



---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قال الحافظ العراقي في «المغني» (٣/ ٢٨٤): «أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك: «وهي الجماعة»، وأسانيدها جياد، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٢٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ١٦٤).




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أمَّا بعد: فهذا اعتقاد الفرقة النَّاجية المنصورة إلىٰ قيام الساعة؛ أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة.

وهو الإيمانُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبَعث بعد الموت، والإيمان بالقدَر؛ خَيره وشَرِّه».

الشرح:

نبدأ الآن بشرح كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ قال إنه سيذكر اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلىٰ قيام الساعة، وهم أهل السنة والجماعة.

والفرقة الناجية لها ألقاب: (أهل السنة والجماعة - الطائفة المنصورة - أهل الحديث - الغرباء)؛ فهذه المسميات جاءت بها النصوص، وبحمد الله تعالىٰ عُرف أهل السنة بأنهم هم أهل السنة، فهذا هو اسمهم ثم كما جاء في الحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين**»؛ فهم الطائفة الناجية والطائفة المنصورة التي استقامت علىٰ هذا المنهج الذي جاء به الوحي؛ فلزمته علمًا وعملًا ودعوة.

فأول ما بدأ به المصنف هنا أنه ذكر أركان الإيمان فقال: «الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر؛ خيره وشره»، فهذه أركان الإيمان التي جاء بها حديث جبريل[1].

(١) حديث جبريل الطويل، وفيه بيَّن النبي ﷺ أركان الإسلام وأركان الإيمان وعرَّف الإحسان، وذكر بعض علامات الساعة، أخرجه البخاري مختصرًا (٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم بطوله (٩) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولفظ الإيمان تارة يُطلق ويراد به: مجموع الدين، وتارة يطلق ويراد به: الأمور الباطنة.

ولفظ الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ فحديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»[1] - شمل جميع أمور الدين؛ فالإيمان يشمل جميع أمور الدين أحيانًا، وتارة يراد بالإيمان الجانب الباطن من الإنسان، كما في حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وبالقدر؛ خيره وشره**». فهنا يراد به الأمور الباطنة.

وهكذا الإسلام تارة يُطلق ويراد به جميع الدين، كما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وتارة يطلق ويراد به: الأمور الظاهرة، كما في حديث جبريل المتقدم، وفيه: «**الإسلام: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**».

فمن هذا نعلم أن هذه الألفاظ أحيانًا تعم جميع الدين، وأحيانًا تختص ببعض أموره، ومراد المصنف هنا: ما يتعلق بالأمور الباطنة.

والإيمان لغة: التصديق.

أو أنه أمر يشمل التصديق، ويشمل معه غيره.

والصواب: أن الإيمان ليس مجرد التصديق، فالإيمان يشمل التصديق ويشمل الإقرار والانقياد.

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أركان الإيمان:

ذكر المصنف أركان الإيمان السِّتة، وسنتحدث عنها بشيء من التفصيل.

قال العلامة السّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته النافعة «التنبيهات اللطيفة»: «وأصلها الذي عليه تُبنىٰ: أي: أصل هذه العقيدة هو الإيمان بهذه الأصول السِّتَّة التي صرَّح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جملة وتفصيلًا وتفريعًا، وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور حيث قال جبريل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الإيمان؟ فأجابه.

فهذه الرسالة من أولها إلىٰ آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة»[1].

ومن المواضع التي ذكر اللهُ فيها هذه الأركانَ السِّتَّةَ العظيمة قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٦]

فهذه خمسة أركان، والسَّادس بيَّنه اللهُ في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: ٤٩].

وذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُنَّتِه في حديث جبريل المشهور، عندما سأله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإيمان، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**».

---

(١) «التنبيهات اللطيفة» (ص١٣).

الركن الأول: الإيمان بالله:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله هو الرَّبُّ الخالق المدبِّر المتصف بصفات الكمال والجلال، المنزَّه عن كل نقص وعيب، المستحق للألوهية وحده لا شريك له، وهو أصل الأصول وأعظمها وأهمها، وعليه تُبنىٰ العقيدة كلها.

ثمرات الإيمان بالله ﷻ:

ذكر العلامة ابن عثيمين رحمه الله: أن «الإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبةَ الله وتعظيمَه الموجبةَ للقيام بأمرِه واجتنابِ نَهْيِهِ، ويحصل بهما كمال السَّعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]»[1].

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

قال الكرماني: «الملائكةُ: جمع مَلَكٍ؛ نظرًا إلىٰ أصله الذي هو (مألك) مَفْعَل من الألوكة، بمعنىٰ الرسالة، والتاء زيدت فيه لتأكيد معنىٰ الجمع، أو لتأنيث الجمع»[2].

والإيمان بالملائكة يجب أن يكون إيمانًا مُجملًا بجميعهم؛ مَن علمنا منهم ومَن لم نعلم، وأن الله خلقهم من نور، وأنهم عباد مُكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، وكذلك يجب أن يكون إيمانًا مُفَصَّلًا بمن ذُكر منهم باسمه؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وبصفة مَن ذُكر منهم بوصفٍ؛ كحملة العرش وخزنة النار

---

(١) «مجموع رسائل وفتاوىٰ العثيمين» (٣/ ٢٥٩).

(٢) «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» (١/ ١٩٤).

وجبريل، وبعدد مَن ذُكِر منهم بعددٍ كخزنَة النار وحملة العرش.

وبعمل مَن ذُكِر منهم بعملٍ؛ فمنهم الموكَّل بالجبال، ومنهم الموكَّل بالقَطر، ومنهم الموكَّل بفتنة القبر، ومنهم الموكَّل بالنفخ في الصور وغير ذلك.

ومن ثمرات الإيمان بالملائكة:

أولًا: العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالىٰ وقدرته وسلطانه.

ثانيًا: شكره تعالىٰ علىٰ عنايته بعباده، حيث وكَّل بهم مِن هؤلاء الملائكة مَن يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثًا: محبَّة الملائكة علىٰ ما قاموا به من عبادة الله علىٰ الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين(١).

الرُّكن الثالث: الإيمان بالكتب:

هو الاعتقادُ الجازمُ أن الله تعالىٰ أنزل علىٰ رسله كتبًا حجة علىٰ العالمين، ومحجة للعاملين؛ يعلمونهم بها الحكمة، ويزكونهم.

ونؤمن بأن الله تعالىٰ أنزل مع كل رسول كتابًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ونعلم من هذه الكتب:

١- التوراة: التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ عليه السلام، وهي أعظم كتب بني إسرائيل؛ قال عز وجل: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن

(١) انظر: «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ العثيمين» (٣/ ٢٥٩).

﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

٢- الإنجيل: الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مصدق للتوراة، ومتمم لها؛ قال جل وعلا: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عِمرَان: ٥٠].

٣- الزَّبور: الذي آتاه الله تعالىٰ داود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- صُحف إبراهيم وموسىٰ عليهما الصلاة والسلام.

٥- القرآن العظيم: الذي أنزله الله علىٰ نبيه، محمد خاتم النبيين ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فكان ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المَائدة: ٤٨]؛ فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفل بحفظه عن عبث العابثين، وزيغ المحرفين؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩]؛ لأنه سيبقىٰ حجة علىٰ الخلق أجمعين إلىٰ يوم القيامة(١).

من ثمرات الإيمان بالكتب:

أولًا: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

ثانيًا: ظُهُور حِكمته تعالىٰ؛ حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مُناسبًا لِجَميع الخَلْقِ في كلِّ عَصر ومكانٍ إلىٰ يوم القيامة.

ثالثًا: شكر نعمة الله علىٰ ذلك(٢).

---

(١) انظر: «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ العثيمين» (٣/ ٢٤١).

(٢) انظر: «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ العثيمين» (٣/ ٢٥٩، ٢٦٠).

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

والرسول: هو رجلٌ من بني آدم بَعَثَه اللهُ بشرعٍ، وأَمَرَه بتبليغه.

والإيمان بالرسل مُجْمَلٌ، وذلك بجميع رسل الله؛ مَن علمنا منهم ومَن لم نعلم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النِّسَاء: ١٦٤]، وإيمانٌ مفصَّلٌ، وذلك بجميع من ذُكر منهم باسمه في كتاب الله، أو في سنة رسول الله ﷺ الصحيحة.

مِن ثمرات الإيمان بالرسل:

أولًا: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد.

ثانيًا: شكره تعالىٰ علىٰ هذه النعمة الكبرىٰ.

ثالثًا: مَحَبَّة الرُّسل وتوقيرهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالىٰ وخلاصة عبيده، قاموا لله بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده والصبر علىٰ أذاهم»[1].

الركن الخامس: البعث بعد الموت:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سيبعث الناس بعد موتهم، ويُعيد إليهم أرواحهم، وذلك للحساب والجزاء.

دلَّ علىٰ ذلك الأدلة المتوافرة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، بل واليهود والنصارىٰ وكل الشرائع السماوية السابقة.

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

أولًا: الحرص علىٰ طاعة الله تعالىٰ؛ رغبة في ثواب ذلك

(١) «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٦٠).

اليوم، والبعد عن معصيته، خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

ثانيًا: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا، ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها[(١)].

الركن السَّادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

هو الاعتقاد الجازم بتقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته؛ قال جل وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ونؤمن مع ذلك أن الله تعالىٰ جعل للعبد اختيارًا وقدرة بهما يكون الفعل، وإن كان لا يخرج بهما عن مشيئته سبحانه؛ قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

والاعتقاد أن الله تعالىٰ أرسل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره ما بطلت حجته جل وعلا علىٰ الناس بإرسال رسله.

من ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كليهما بقضاء الله وقدره.

ثانيًا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متىٰ علم أن ذلك بقضاء الله تعالىٰ، وأن المكروه كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشًا، وأروح نفسًا، وأقوىٰ طمأنينة ممن آمن بالقدر.

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول

---

(١) «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٦٠).

ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح؛ فيشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك ويدع الإعجاب[١].



(١) «مجموع رسائل وفتاوىٰ فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/٢٥٦- ٢٦٠) بتصرف.





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسَه في كتابه، وبما وصفه به رسوله مُحمد ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ».

الشرح:

بعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أركان الإيمان إجمالًا - بدأ في بيان تفصيلِها؛ فبدأ بالأصلِ الأولِ، وهو الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ فقال: **«من الإيمان بالله: الإيمانُ بما وصف به نفسَه في كتابه، وبما وصفه به رسوله مُحمد ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ».**

فعقيدة أهل السنة والجماعة: الإيمان بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه الأول بلا ابتداء، والآخِر بلا انتهاء، وأنَّه الرب الخالق الرازق المُدَبِّر، الإلٰه الحق، المستحق للعبادة وحده، وأن من الإيمان به سبحانه: الإيمان بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ، وذلك بأن نثبت له ما أثبته لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله محمد ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

فأهل السنة يؤمنون أن الله ليس كمثله شيء؛ فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يكيفون ولا يُمَثِّلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كُفء له، ولا نِدَّ له، ولا يقاس جل وعلا بخلقه.

وهذا ما دلَّت عليه أدلة الكتاب والسُّنَّة وإجماع سَلَف الأمة؛ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز القرآن والحديث»(١).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل السُّنَّة مجتمعون علىٰ الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فيُنكرونها ولا يحملونها علىٰ الحقيقة، ويزعمون أنَّ مَن أقَرَّ بها مُشَبِّه، وهم عند من أقَرَّ بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به الكتاب والسنة وهم أئمة الجماعة»(٢).

وقال الحافظ ابن رجب: «والصواب: ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت؛ مِن غير تفسير لها، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يُوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السَّابقون الأولون لا يُتَجاوز القرآن والحديث»(٤).

فالسلف يعتقدون أن الواجب في نصوص القرآن والسنة بما في ذلك نصوص الأسماء والصفات هو إجراؤها علىٰ ظاهرها، وذلك بأن تُفهم وَفق ما يقتضيه اللسان العربي، وأن لا يُتعرض لها بتحريف أو تعطيل كما فعل المعطلة، الذين تلاعبوا بظواهر النصوص لمجرد

---

(١) انظر: «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد» (ص ١١٦).
(٢) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٤٥).
(٣) انظر: «فضل علم السلف علىٰ الخلف» لابن رجب ص (٢٢).
(٤) «الفتوىٰ الحموية» (ص ٦١).

أنَّها خالفت باطلهم ومناهجهم الفاسدة(١).

فنصوص الصفات ألفاظ شرعية يجب أن تُحفظ لها حُرمتها، وذلك بأن نفهمها وَفق مراد الشارع؛ فلا نتلاعب بمعانيها لنصرفها عن مراد الشارع.

فمن الأصول الكلية عند السلف أن الألفاظ الشرعية لها حرمتها، ومِن تمام العلم أن يُبحث عن مراد الله ورسوله بها ليُثبت ما أثبته الله ورسوله من المعاني، ويُنفىٰ ما نفاه الله ورسوله من المعاني(٢).

وبحمد الله وفضله نجد أن نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة هي من الوضوح والكثرة بمكان، بحيث يستحيل تأويلها والتلاعب بنصوصها، فلقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصَّلاً علىٰ وجهٍ أزال الشبهة وكشف الغطاء، وحصل به العلم اليقيني، ورفع الشك والريب؛ فثلجت به الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، فلقد فَصَّلت رسالة نبينا محمد ﷺ الأسماء والصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقَرَّرت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ.

فالمُطَّلع علىٰ نصوص القرآن والسنة الخبير بهما، لا يزيده تحريف المعطلة لتلك النصوص إلا احتقارًا لهم، ويقينًا بفساد معتقدهم وبطلانه.

ولا تَرُوج تحريفات المعطلة إلا علىٰ الجاهل بمعرفة تلك النصوص قليل البضاعة فيها، فهذا الصنف أُتِي مِن جهة جهله لا مِن قِلَّة النصوص الواردة في هذا الباب.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٠١).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ١١٣، ١١٤) بتصرف.

وأما معاني هذه الكلمات:

فقد قال العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التَّحْرِيف: هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلىٰ غيره، وهو نوعان:

تحريف لفظه، وتحريف معناه:

والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود، فهم الراسخون فيها، وهم شيوخ المحرِّفين وسلفهم؛ فإنهم حرَّفوا كثيرًا من ألفاظ التوراة، ولما غُلبوا عن تحريف لفظه حَرَّفوا معناه؛ ولهذا وُصِفُوا بالتَّحْرِيف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج علىٰ آثارهم الرافضةُ، فهم أشبه بهم من القُذَّة بالقُذَّة، والجهمية؛ فإنهم سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك إخوانهم من اليهود، ولمَّا لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرَّفوا معانيه وسَطَوْا عليها، وفتحوا باب التَّأْوِيل لكل مُلْحِدٍ يكيد الدين، فإنه جاء فوجد بابًا مفتوحًا وطريقًا مسلوكًا، ولم يمكنهم أن يخرجوه من باب أو يردوه من طريقٍ قد شاركوه فيها، وإن كان الملحد قد وسَّع بابًا هم فتحوه وطريقًا هم اشتقوه، فهما بمنزلة رجلين ائتُمِنا علىٰ مالٍ فتأول أحدهما وأكل منه دينارًا، وتأول الآخر وأكل منه عشرةً، فإذا أنكر عليه صاحبه قال: إن حلَّ أكل الدينار بالتَّأْوِيل حلَّ أكل العشرة به، ولا سيما إذا زعم آكل الدينار أن الذي ائتمنه إنما أراد منه التَّأْوِيل، وأن المتأول أعلم بمراده من المالك، فيقول له صاحبه: أنا أسعد منك، وأولىٰ بأكل هذا المال.

والمقصود أن التَّأْوِيل يتجاذبه أصلان: التفسير، والتَّحْرِيف.

فتأويل التفسير هو الحق، وتأويل التَّحْرِيف هو الباطل.

فتأويل التَّحْرِيف مِن جنس الإلحاد؛ فإنه هو الميلُ بالنصوصِ

عن ما هي عليه، إما بالطعن فيها أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها، وكذلك الإلحاد في أسماء الله يكون بجحد معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بإنكار المسمَّىٰ بها، وتارة يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها.

فالتَّأْوِيل الباطل هو إلحادٌ وتحريفٌ، وإن سماه أصحابه تحقيقًا وعرفانًا وتأويلًا.

فمِن تأويل التَّحْرِيف والإلحادِ تأويلُ الجهمية قولَه تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّسَاء: ١٦٤]، أي: جَرَحَ قلبَه بالحِكم والمعارف تجريحًا.

ومن تحريف اللفظ إعراب قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ من الرفع إلىٰ النصب، وقال: (وكلَّم اللهَ) أي: موسىٰ كلم اللهَ، ولم يكلمه اللهُ، وهذا من جنس تحريف اليهود، بل أقبح منه، واليهود في هذا الموضع أولىٰ بالحق منهم.

ولما حرَّفها بعضُ الجهمية هذا التَّحْرِيف قال له بعض أهل التوحيد: فكيف تصنعُ بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعرَاف: ١٤٣]؟! فَبُهِتَ المحرِّف.

ومن هذا أنَّ بعض الفرعونيَّة سأل بعضَ أئمة العربية هل يمكن أن يُقرأ العرش بالرفع في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ وقصد الفرعونيُّ بهذا التَّحْرِيف أن يكون الاستواء صفة للمخلوق، لا للخالق.

ولو تَيَسَّر لهذا الفرعوني هذا التَّحْرِيف في هذا الموضع لم يتيسر له في سائر الصفات»[١].

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٢١٥- ٢١٨).

وأما التَّعْطِيل فهو في اللغة مأخوذ من العَطَل، وهو الخلو والفراغ.

والمعطِّلة: هم نفاة الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان السلف والأئمة يُسَمُّون نُفاة الصفات: معطلة؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالىٰ، وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولَهم مستلزمٌ للتعطيل»[(١)].

وقال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والمراد بالتَّعْطِيل**: إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات، سواءً كان كليًّا أو جزئيًّا، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمىٰ تعطيلًا.

فأَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة لا يعطِّلون أيَّ اسمٍ من أسماء الله، أو أي صفةٍ من صفاته، ولا يجحدونها، بل يقرون بها إقرارًا كاملًا.

فإن قلت: ما الفرق بين التَّعْطِيل والتَّحْرِيف؟

قلنا: التَّحْرِيف في الدليل، والتَّعْطِيل في المدلول فمثلًا:

إذا قال قائل: معنىٰ قول تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: بل قوَّتاه، هذا محرف للدليل ومعطل للمراد الصحيح؛ لأن المراد اليد الحقيقية، فقد عطَّل المعنىٰ المراد، وأثبت معنًىٰ غير المراد.

وإذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا أدري، أفوِّض الأمر إلىٰ الله، لا أثبت اليد الحقيقية ولا اليد المحرف إليها اللفظ، نقول: هذا معطِّل، وليس بمحرِّف؛ لأنه لم يغير معنىٰ اللفظ ولم يفسِّره بغير مراده، لكن عطَّل معناه الذي يراد به، وهو إثبات اليد لله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/٣٢٦).

أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة يتبرأون من الطريقتين:

الطريقة الأولىٰ: التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلىٰ معنىٰ غير مراد.

والطريقة الثانية: هي طريقة أهل التفويض، فهم لا يفوضون المعنىٰ كما يقول المفوِّضة، بل يقولون: نحن نقول: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، أي: يداه الحقيقيتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المَائدة: ٦٤]، وهما غير القوة والنعمة.

فعقيدة أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة بريئة من التَّحْرِيف ومن التَّعْطِيل»[(١)].

وأمَّا الفرق بين التحريف والتعطيل فقد بينه العلامة السِّعْدي بقوله: «التَّعْطِيل نفيٌ للمعنىٰ الحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، والتَّحْرِيف: تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه.

فالتَّحْرِيف والتَّعْطِيل قد يكونان متلازمَيْن إذا أُثبت المعنىٰ الباطل ونفي المعنىٰ الحق، وقد يوجد التَّعْطِيل بلا تحريف كما هو قول النافين للصفات الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة، ويقولون: ظاهرها غير مراد ولكنهم لا يعيِّنونَ معنًىٰ آخرَ، ويسمُّون أنفسهم: مفوِّضة، ويظنون أن هذا مذهب السلف، وهو غلط فاحش؛ فإن السلف يثبتون الصفات، وإنما يفوِّضون علم كيفيتها إلىٰ الله، فيقولون: الوصف المذكور معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، وإثباته واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء»[(٢)].

وأمَّا التكييف والتمثيل:

فالتكييف: هو جعل الشيء علىٰ حقيقة مُعَيَّنة من غير أن يُقَيِّدها

---

(١) «شرح الواسطية» (ص٧٢-٧٣).

(٢) «التنبيهات اللطيفة» (ص١٧).

بمماثل.

والتمثيل: هو الاعتقاد في صفات الخالق: أنَّها مِثل صفات المخلوقين.

فمنه قول المُمَثِّل: له يدٌ كيدي وسَمع كسمعي. تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

فالتكييف: ليس فيه تقيد بمماثل، وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والحق: أن التكييف أعم من التمثيل؛ فكل تمثيل تكييف؛ لأن مَن مَثَّل صفات الخالق بصفات المخلوقين فقد كَيَّف تلك الصفة، أي: جعل لها حقيقة معينة مشاهدة.

وليس كل تكييف تمثيلًا؛ لأن مِن التكييف ما ليس فيه تمثيل بصفات المخلوقين؛ كقولهم: (طوله كعرضه).

وقد وقع في التمثيل والتكييف (المُشَبِّهة) الذين بالغوا في إثبات الصفات إلىٰ درجة تشبيه الخالق بالمخلوق.

قال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ الله: «**(تكييف)** لم ترد في الكتاب والسنة، ولكن ورد ما يدل علىٰ النهي عنها.

والتَّكْيِيف هو أن تذكر كيفيَّة الصفة، ولهذا تقول: كَيَّفَ يُكَيِّفُ تَكْيِيفًا، أي: ذَكَرَ كيفية الصفة.

التَّكْيِيف يُسأل عنه بكيف، فإذا قلت مثلًا: كيف جاء زيد؟ تقول: راكبًا.

إذًا كيفت مجيئه. كيف لون السيارة. أبيض، فذكرت اللون.

أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة لا يكيِّفون صفات الله؛ مُستندين في ذلك

إلىٰ الدليل السمعي، والدليل العقلي.

فأما الدليل السَّمعي: فمثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]

فإذا جاء رجل وقال: إن الله استوىٰ علىٰ العرش علىٰ هذه الكيفية، ووصف كيفيةً معينةً، نقول: هذا قد قال علىٰ الله ما لا يعلم، هل أخبرك اللهُ بأنه استوىٰ علىٰ هذه الكيفية؟ لا، أخبرنا الله بأنه استوىٰ، ولم يخبرنا كيف استوىٰ، فنقول: هذا تكييف وقول علىٰ الله بغير علم.

ولهذا قال بعض السلف: إذا قال لك الجهمي: إن الله حين ينزل إلىٰ السماء كيف ينزل؟

فقل: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل؟

وهذه قاعدةُ مُفيدة.

دليل آخر من السَّمع: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] لا تتَّبع ما ليس لك به علم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وأما الدليل العقلي: فكيفيةُ الشَّيءِ لا تُدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة:

مشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر الصادق عنه.

إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته، أو شاهدت نظيره، كما لو قال لك واحد: إن فلانًا اشترىٰ سيارة (داتسون)، (موديل ثمان وثمانين)، رقم (ألفين)، فتعرف كيفيتها؛ لأن عندك مثلها.

أو خبر صادق عنه، أتاك رجل صادق وقال: إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا، ووصفها تمامًا فتدرك الكيفية الآن.

ولهذا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا: إن معنىٰ قولنا: «بدون تكييف» ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية، لكن المنفي علمنا بالكيفية؛ لأن استواء الله علىٰ العرش لا شك أن له كيفيةً، لكن لا تُعلم؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة.

سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استوىٰ؟ فأطرق برأسه حتىٰ علاه العرق، ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء غير مجهول»، أي: من حيث المعنىٰ معلوم؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا، كل المواضع التي وردت فيها «استوىٰ» مُعَدَّاة بـ (علىٰ) معناه العلو، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول»؛ لأن العقل لا يدرك الكيف، فإذا انتفىٰ الدليل السمعي والعقلي عن الكيفية وجب الكفُّ عنها.

«والإيمان به واجب»؛ لأن الله أخبرنا عن نفسه، فوجب تصديقه.

«والسؤال عنه بدعة» السؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنَّ مَن هم أحرصُ مِنَّا علىٰ العلم ما سألوا عنها، وهم الصحابة، لما قال الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، عرفوا عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنىٰ الاستواء علىٰ العرش، وأنه لا يمكن أن تسأل: كيف استوىٰ؟ لأنك لا تدرك ذلك، فنحن إذا سئلنا فنقول: هذا السؤال بدعة.

وكلامُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ميزانٌ لجميعِ الصفاتِ.

فإن قيل لك - مثلًا -: إن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا كيف ينزل؟ فالنزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به

واجب، والسؤال عنه بدعة...».

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهنالك كلام للسلف يدلُّ علىٰ أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله علىٰ رسوله من الصفات، كما نُقل عن الأوزاعي وغيره أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: «أَمِرُّوها كما جاءت، بلا كيفٍ» وهذا يدل علىٰ أنهم يثبتون لها معنًىٰ من وجهين:

أولًا: أنهم قالوا «أَمِرُّوها كما جاءت»، ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانٍ، ولم تأت عبثًا، فإذا أمررناها كما جاءت لزم من ذلك أن نثبت لها معنًىٰ.

ثانيًا: قولهم «بلا كيف»؛ لأن نفي الكيفية يدل علىٰ وجود أصل المعنىٰ؛ لأن نفي الكيفية عن شيء لا يوجد لغوًا وعبثًا، إذًا فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل علىٰ أنهم يثبتون لهذا النصوص معنًىٰ»(١).



(١) «شرح الواسطية» (ص٧٧- ٧٨).




قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بل يؤمنون بأن الله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فلا ينفون عنه: ما وصف به نفسَه، ولا يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ولا يُلْحِدُونَ في أسمائه وآياته، ولا يُكَيفُونَ، ولا يُمَثلُونَ صفاتِه بصفاتِ خلقِه.

لأنه - سبحانه - لا سَمِيَّ له، ولا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له.

ولا يُقاس بخلقه؛ فإنه - سبحانه - أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وبغيرِه، وأصدق قِيلًا، وأَحْسَنُ حديثًا من خلقه».

الشرح:

لما بيَّن شيخُ الإسلام أن مِن الإيمان بالله الإيمانَ بما وصف به نفسَه أو وصفه به رسولُه ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، بَيَّنَ أن الله جل وعلا قد «هدىٰ الله أصحاب سواء السَّبيل للطريقة المُثلىٰ؛ فأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات؛ فكان مذهبهم مذهبًا بين مذهبين وهديًا بين ضلالتين.

فقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تمثيل ولا تكييف.

بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل ولا نُؤول ولا نُمَثِّل ولا نجهل.

ولا نقول: ليس له يدان، ولا وجه، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استوىٰ علىٰ عرشه.

ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوقين، ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء، كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم.

بل نقول: له ذات حقيقة ليست كذوات المخلوقين.

وله صفات حقيقة ليست كصفات المخلوقين.

وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالىٰ، ويديه، وسمعه، وبصره، وكلامه، واستوائه.

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك الصفات وحقائقها، كما لم يمنع ذلك مَن أثبت لله شيئًا من صفات الكمال من فهم معنىٰ الصفة وتحقيقها، فإن من أثبت له سبحانه السمع والبصر أثبتهما حقيقة وفهم معناهما، فهكذا سائر الصفات المقدسة، يجب أن تجري هذا المجرىٰ، وإن كان لا سبيل لنا إلىٰ معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يُكَلِّف العباد ذلك، ولا أراده منهم، ولم يجعل لهم إليه سبيلًا»[1].

لأن الصفة هي: ما قام بالذات مما يميزها عن غيرها من أمور ذاتية، أو معنوية، أو فعلية.

وقد تنوعت تقسيمات أهل السنة للصفات، وذلك بحسب الاعتبارات التي يرجع لها كل تقسيم، ومن تلك التقسيمات: أقسام الصفات عمومًا.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٢٥- ٤٢٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصفات نوعان:

أحدهما: صفات نقص؛ فهذه يجب تنزيه الله عنها مطلقًا؛ كالموت، والعجز، والجهل.

والثاني: صفات كمال؛ فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء»[(١)].

ومعتقد أهل السنة في أسماء الله وصفاته هو: أنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتًا ونفيًا، فهم بذلك:

١- يُسَمُّون الله بما سمَّىٰ به نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ، لا يزيدون علىٰ ذلك ولا ينقصون منه.

٢- ويُثبتون لله ﷻ ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٣- وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله محمد ﷺ، مع اعتقاد أنَّ الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

فأهل السنة سلكوا في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات؛ فيجب بذلك إثباتها.

وأمَّا النفي فهو أن ينفىٰ عن الله ﷻ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي.

فقول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فلا يَنْفُونَ عَنْهُ ما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ»**

---

(١) «الصفدية» (١/ ١٠٢).

- **معناه**: أنهم مع إيمانهم بأن الله ليس كمثله شيءٌ، لا يحملهم ذلك على نفي صفة من صفاته جل وعلا؛ لأنهم يؤمنون بالكتاب كله، لأن القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هو نفسه ﷻ القائل: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو الذي أثبت لنفسه صفات الكمال ونعوت الجلال الدَّالَّة على عظمته وجماله وجلاله.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ اللهُ: **«ولا يُلْحِدُونَ في أسمائه وآياته»** - فقد أشار به إلى أن أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة من تمام وكمال إيمانهم بالله: أنهم لا يلحدون في أسمائه ولا في آياته.

والإلحاد مأخوذ من المَيل، كما يدل عليه مادته (ل- ح- د)؛ فمنه: اللحد، وهو الشَّق في جانب القبر الذي قد مال عن الوَسط.

ومنه المُلحد في الدين: المائل عن الحقِّ إلى الباطل؛ قال ابن السِّكِّيت: «الملحد: المائل عن الحقِّ المُدخِلُ فيه ما ليس فيه»(١).

وقد ذكر المصنف هنا قسمين من الإلحاد:

القسم الأول: الإلحاد في أسماء الله جل جلاله: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحقِّ الثابت لها؛ قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]- قال الإمام البغوي: «قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يَتَسَمَّ به، ولم ينطق به كتابُ الله ولا سُنَّة رسوله ﷺ»(٢).

وقال ابن حجر: «قال أهل التفسير: مِن الإلحاد في أسمائه: تسميته بما لم يَرد في الكتاب أو السنة الصحيحة»(٣).

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩).
(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٧).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٢٢١).

والإلحاد في أسمائه تعالىٰ أنواع.

أحدها: أن يسمىٰ الأصنام بها؛ كتسميتهم اللات من الإلهيَّة، والعُزَّىٰ من العزيز، وتسميتهم الصنم إلاهًا، وهذا إلحاد حقيقة؛ فإنهم عَدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة[(١)].

قال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالىٰ عما هيٰ عليه، فسموا بها أوثانهم؛ فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعُزَّىٰ من العزيز، ومَناة من المنَّان»[(٢)].

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله؛ كتسمية النصارىٰ له أبًا، وتسمية الفلاسفة له: مُوجبًا بذاته أو علَّةً فاعلةً بالطبع، ونحو ذلك[(٣)]؛ وذلك لأنَّ أسماء الله - تعالىٰ - توقيفية، فتسميته تعالىٰ بما لم يُسَم به نفسه ميلٌ بها عما يجب فيها، كما أنَّ هذه الأسماء التي سَموه بها نفسها باطلة يُنزه الله تعالىٰ عنها.

قال ابن حزم: «مَنع تعالىٰ أن يُسَمَّىٰ إلا بأسمائه الحسنىٰ، وأخبر أنَّ مَن سَمَّاه بغيرها فقد ألحد»[(٤)].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومَن جعله تسبيحًا للاسم يقول: المعنىٰ: إنَّك لا تسم به غير الله، ولا تُلحد في أسمائه، فهذا ما يستحقُّه اسم الله»[(٥)].

القسم الثاني: الإلحاد في آيات الله تبارك وتعالىٰ:

قال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الإلحاد في آيات الله تعالىٰ

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠).

(٣) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩).

(٤) «المحلىٰ» (١/ ٢٩).

(٥) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ١٩٩).

فالآيات جمع آية، وهي العلامة المميِّزة للشيء عن غيره، والله ﷻ بعث الرسل بالآيات، لا بالمعجزات؛ **لهذا كان التعبيرُ بالآيات أحسنَ من التعبير بالمعجزات:**

أولًا: لأن الآيات هي التي يعبَّر بها في الكتاب والسنة.

ثانيًا: أن المعجزات قد تقع من ساحرٍ ومشعوذٍ وما أشبه ذلك، تعجِز غيرَه.

ثالثًا: أن كلمةَ (آيات) أدلُّ على المعنى المقصود من كلمة معجزات، فآيات الله هي العلامات الدالة على الله ﷻ، وحينئذ تكون خاصَّة به، ولولا أنها خاصة ما صارت آيةً له.

وآيات الله ﷻ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية:

القسم الأول: الآيات الكونيَّة: ما يتعلق بالخلق والتكوين، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٣-٢٥]: ، فهذه آياتٌ كونيَّةٌ، وإن شئت فقل: كونيَّة قدريَّة، وكانت آيةَ الله؛ لأنه لا يستطيع الخلقُ أن يفعلوها، فمثلًا:

لا يستطيع أحدٌ أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار، ولا بالنهار إذا جاء الليل، فهذه الآيات كونيَّة.

والإلحاد فيها: أن ينسبها إلىٰ غير الله استقلالًا، أو مشاركةً، أو إعانةً، فيقول: هذا من الولي الفلاني، أو من النبي الفلاني، أو شارك فيه النبي الفلاني، أو الولي الفلاني، أو أعان اللهَ فيه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سَبَإ: ٢٢].

فنفىٰ كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا في السموات والأرض استقلالًا أو مشاركةً ولا معينة لله ﷻ، ثم جاء بالرابع: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سَبَإ: ٢٣]، لما كان المشركون قد يقولون: نعم هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك، ولم تعاون، لكنها شفعاء؛ قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾، فقطع كُلَّ سَبَبٍ يَتَعلَّقُ به المشركون.

القسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية:

وهي ما جاءت به الرُّسل من الوحي؛ كالقرآن العظيم، وهو آيات؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٢]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العَنكبوت: ٥٠-٥١]، فجعله آياتٍ.

ويكون الإلحادُ فيها إما بتكذيبها، أو تحريفها، أو مخالفتها، فتكذيبها أن يقول: ليست من عند الله، فيكذِّب بها أصلًا، أو يكذِّب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل، فيقول مثلًا: قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة، والله لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل.

وأما التَّحْرِيف: فهو تغيير لفظها أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله، مثل أن يقول: الله استوىٰ علىٰ العرش، أي: استولىٰ، أو ينزل إلىٰ السماء الدنيا، أي: ينزل أمره.

وأما مخالفتها: فبترك الأوامر أو فعل النواهي.

قال تعالىٰ - في المسجد الحرام -: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحَجّ: ٢٥]؛ فكلُّ المعاصي إلحادٌ في الآيات الشرعية؛ لأنه خروجٌ بها عما يجب لها؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر، وأن نجتنب النواهي؛ فإن لم نقم بذلك فهذا إلحاد»[١].

وقد تَقَدَّم الكلام عن التكييف والتمثيل في صفاته جل وعلا.

ثم بَيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ السبب في أنَّ أهل السنة لا يُكَيِّفُونَ ولا يُمَثِّلُونَ صفاته بصفات خلقه، فقال: **«لأنه - سبحانه - لا سَمِيَّ له، ولا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له»**.

ومعنىٰ تسبيح الله: تَنْزِيهه عن النَّقَائِصِ والعيوب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وقوله: **«لا سَمِيَّ له، ولا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له»** هذه الأسماء الثلاثة معناها متقارب، لكن كل اسم منها له اختصاص بمورد أكثر من الآخر؛ فينزه الله جل وعلا عن السَّمِيِّ والكفء والمثل؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ومعنىٰ: «لا سَمِيَّ له»: أنه لا يُساميه أحدٌ في ذاته ولا في أسمائه صفاته ولا في أفعاله، أو أنه لا يستحق أحد من الخلق مثل

(١) «شرح الواسطية» (ص١٠٠- ١٠٣).

اسمه؛ **قال العَلَّامة محمد بن إبراهيم**: «**المعنىٰ**: لا يُساميه أحدٌ، أو لا يستحق مثل اسمه، وكلا المعنيين راجع إلىٰ الآخر؛ لكون اسمِه تعالىٰ دالًّا علىٰ الكمال، والخلقُ - وإن كان لهم نوعُ كمالٍ - فإن الله هو الذي أكسبهم إيَّاه»(١).

والكفءُ: **هو** المكافئُ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول عن نفسه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، و﴿كُفُوًا﴾: نكِرَةٌ في سياق النفي، فتفيد العموم.

والنِّدُّ: هو النظير؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

قال العلامة السِّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيره**: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أشباهًا ونُظَراءَ من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتُحِبُّونَهُم كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون ومرزوقون مدبَّرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا ينفعونكم ولا يضرون.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن اللهَ ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في ألوهيته والكمال، فكيف تعبدون معه آلهةً أخرىٰ مع علمكم بذلك؟! هذا من أعجب العجب وأَسْفَهِ السَّفَه»(٢).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **«ولا يُقاس بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وبغيره، وأصدق قِيلًا، وأَحْسَنُ حديثًا من خلقه»**.

لأنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ ليس له مَثيل حتىٰ يُقاس عليه، وعقول البشر لا يمكن أن تستقلَّ بمعرفة الله تعالىٰ استقلالًا؛ لأنها قاصرة عاجزة،

---

(١) «شرح العقيدة الواسطية (ص٣٠).

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٤٤).

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ لذا وجب الوقوف علىٰ ما جاء في القرآن وصحَّ في السنة من أسماء الله وصفاته، وإثبات ذلك له جَلَّ وَعَلَا علىٰ ما يليق بذاته.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيرِه، وأصدقُ قِيلًا، وأحسنُ حَدِيثًا مِن خَلْقِه**» - بيان لعلة وجوب إثبات ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال ومنع قياسه بخلقه؛ لأنه سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقد بَيَّن العلَّامةُ ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواع القياس، وأوضح فساد قياس الله بخلقه في نوعين منها، وجوازه في الثالث؛ فقال: «القياسُ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ: قياس شمولٍ، وقياس تمثيلٍ، وقياس أولويَّة.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقاس بخلقه لا قياسَ تمثيلٍ ولا قياسَ شمولٍ:

١- قياس الشمول: هو ما يُعرفُ بالعامِّ الشاملِ لجميع أفراده، بحيث يكون كلُّ فردٍ منه داخلًا في مسمَّىٰ ذلك اللفظ ومعناه، فمثلًا إذا قلنا: الحياة؛ فإنه لا تقاس حياة الله بحياة الخلق؛ من أجل أن الكُلَّ يشمله اسمُ (حي).

٢- وقياس التَّمْثِيل: هو أن يلحق الشيء بمثيله، فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق.

٣- وقياس الأَوْلَوِيَّة: هو أن يكون الفرعُ أولىٰ بالحكم من الأصل؛ وهذا يقول العلماء: إنه مُسْتَعْمَلٌ في حق الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، بمعنىٰ: كل صفة كمال؛ فَلِلَّهِ تعالىٰ أعلاها، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوق، لكن لله أعلاها وأكملها.

ولهذا - أحيانًا - نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس

بالأولىٰ، فمثلًا:

نقول: العلو صفة كمال في المخلوق، فإذا كانت صفةَ كمالٍ في المخلوق فهي في الخالق من باب أولىٰ، وهذا- دائمًا- نجده في كلام العلماء.

فقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ**» بعد قوله: «**لا سَمِيَّ ولا كُفْءَ له ولا نِدَّ لَهُ**» يعني: القياس المقتضي للمساواة، وهو قياس الشُّمول، وقياس التَّمْثِيل.

إذًا؛ يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتباين بينهما، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب علىٰ الجائز أو الجائز علىٰ الواجب، ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولىٰ.

لو قال لك قائل: الله موجود، والإنسان موجود، ووجود الله كوجود الإنسان بالقياس.

فنقول: لا يصح؛ لأن وجود الخالق واجب، ووجود الإنسان ممكن.

فلو قال: أَقِيسُ سَمْع الخالق علىٰ سمع المخلوق.

نقول: لا يمكن؛ سمع الخالق واجبٌ له، لا يعتريه نقصٌ، وهو شامل لكل شيء، وسمع الإنسان ممكنٌ؛ إذ يجوز أن يُولد الإنسانُ أَصَمَّ، والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع، وسمعه محدود.

إذًا؛ لا يمكن أن يقاس الله بخلقه، فكل صفات الله لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق والمخلوق»[١].

(١) «شرح الواسطية» (ص١٠٥-١٠٦).







قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ثم رسلُه صادقون مصدَّقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون؛ ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠-١٨٢]؛ فَسَبَّح نفسَه عمَّا وصفه به المُخَالِفون للرسُّل، وسَلَّم علىٰ المُرسلين؛ لسلامة ما قالوه من النَّقْص والعَيب».

الشرح:

اقتضت رحمة العزيز الحكيم أن بعث الرسل به مُعَرِّفين، وإليه داعين، وجعل معرفته - سبحانه - بأسمائه وصفاته وأفعاله هي مفتاح دعوتهم وزُبدة رسالتهم؛ فأساس دعوة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم- والأصل الأول فيها: معرفة الله - سبحانه - بأسمائه وصفاته وأفعاله. ثم يتبع هذا الأصل أصلان عظيمان هما:

الأصل الأول: تعريف الناس الطريق الموصلة إلىٰ الله، وهي: «شريعته المتضمنة لأمره ونهيه».

الأصل الثاني: تعريفهم مآلهم في الآخرة.

وهذان الأصلان تابعان للأصل الأول مَبنيان عليه؛ فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق المُوصلة إليه، وأعرفهم بحال الناس عند القدوم عليه.

وأساس العلم الصَّحيح هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وعليه يقوم الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص، وتَنبني مطالب

الرسالة جميعها، فهذا التوحيد هو أساس الهداية والإيمان، وهو أصل الدِّين الذي يقوم عليه، ولذلك فإنه لا يُتصور إيمان صحيح ممن لا يعرف ربَّه، فهذا العلم لازم لانعقاد أصل الإيمان، وهو مهم جدًّا للمؤمن لشدة حاجته إليه؛ لسلامة قلبه وصلاح معتقده واستقامة عمله.

فهذا العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله يُوجب للعبد التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

وذلك يتمُّ عن طريق تدبر كلام الله تعالىٰ وما تعَرَّف به - سبحانه - إلىٰ عباده علىٰ ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله؛ لذا سَبَّح نفسَه عمَّا وصفه به المُخالِفون للرُّسل، وسَلَّم علىٰ المُرسلين؛ لسلامة ما قالوه من النَّقْص والعَيب؛ فقال جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠-١٨٢]؛

«**والعلم بالله يُراد به في الأصل نوعان:**

أحدهما: العلم به نفسه، أي بما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنىٰ.

وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فإنه لابد أن يَعلم أن الله يُثيب علىٰ طاعته، ويُعاقب علىٰ معصيته.

والنوع الثاني: يُراد بالعلم بالله: العلم بالأحكام الشرعية من الأوامر والنواهي والحلال والحرام»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٣٣) بتصرف يسير.

وقول المصنف: «ثم رُسُلُه صَادقون مُصَدَّقون» عطفٌ على قوله: «فإنَّه أَعْلَمُ بنفسِه...»؛ وذلك لأن رسلَ الله صادقون فيما بَلَّغوه عنه؛ لأنَّهم بَلَّغوا ما عَلَّمهم الله إيَّاه وما أمرهم بتبليغه؛ وحاشاهم من الكذب؛ فهم اختيار الله؛ قال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد صدَّقهم سبحانه وتعالى وأيدهم بالمعجزات الدَّالة على صدقهم.

لذا يجب على الناس تصديقُهم، ومَن كَذَّبهم أو كَذَّبَ واحدًا منهم فهو مُكَذِّبٌ بهم جميعًا، كافرٌ بِمَن أرسلهم؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَراء: ١٦٠].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠-١٨١]؛ فقد قال الحافظ ابنُ كثير رحمه الله **في تفسيرها:** «يُنزِّه تعالى نفسَه ويُقَدِّسها ويبرِّئها عما يقوله الظَّالمون المُكَذِّبون المعتدون؛ تعالى وتَنَزَّه وتقدَّس عن قَولهم علوًّا كبيرًا؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي: ذي العزَّة التي لا تُرَامُ، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] أي: عن قول هؤلاء المُعتدين المُفترين، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقِّيَّتِه، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافات: ١٨٢] أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال.

ولما كان التَّسبيح يَتضَمَّن التنزيه والتبرئة من النَّقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال، كما أنَّ الحمد يدلُّ على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قُرن بينهما في هذا

الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن»[(١)].

وقد بَيَّن المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ **معنىٰ تسبيح الله تعالىٰ، وذكر أنَّ** «تسبيح الرَّبِّ نفسَه يتضمن تنزيهَه وتعظيمَه جميعًا، فقول العبد: «سبحان الله» يتضمن تنزيهَ الله وبراءته من السوء»[(٢)].

والمُخالفون للرُّسل هم الذين حَرَّفوا أو عَطَّلوا أو كَيَّفوا أو مَثَّلُوا صفات الخالق جلَّ وعلا بالمخلوق؛ لأن الرسل عليهم السَّلام ما جاءوا بشيء من هذا.



(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ١٤٤).





قال المصنف رحمه الله:

«وهو سبحانه قد جَمَع فيما وَصَفَ وسَمَّىٰ به نفسَه بين: النفي والإثبات».

الشرح:

أي: قد أخبرت الرسل أن لله تعالىٰ أسماءً حسنىٰ وصفاتٍ عُلَا وأفعالًا جليلة؛ فأثبتوا له كل كمال علىٰ وجه التفصيل، ونفوا عنه كل نقص علىٰ وجه الإجمال.

قال شيخ الإسلام رحمه الله **تعالىٰ**: «فالربُّ - تعالىٰ - مُستحقٌّ للكمال علىٰ وجهِ التَّفصيل، كما أخبرت به الرسل، فإن الله تعالىٰ أخبر أنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد، وأنه يحب المتقين والمُحسنين والصَّابرين، ويرضىٰ عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الفساد، ولا يرضىٰ لعباده الكفر، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش، وأنه كلَّم موسىٰ تكليمًا، وناداه وناجاه، إلىٰ غير ذلك مِمَّا جاء به الكتاب والسُّنَّة.

وقال في التنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فنزَّه نفسه عن النظير باسم الكفء والمثل والنِّد والسَّمِيِّ.

فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها: إثباتٌ مفصَّلٌ، ونفيٌ مجملٌ.

إثبات الكمال علىٰ وجه التفصيل ونفي النَّقص والتَّمْثِيل مُجملًا، كما ورد ذلك في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وهي تَعْدِل ثُلُث القرآن، كما ثبت ذلك في الحديث الصَّحيح.

فاسمه (الصَّمَدُ) يتضمَّنُ صفاتِ الكمالِ، كما روىٰ الوالبيُّ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنه قال: «هو العليم الذي كَمُلَ في علمه، والقدير الذي كَمُلَ في قُدرته، والسيِّدُ الذي كَمُلَ في سُؤْدَدِهِ، والشريفُ الذي كَمُلَ في شَرَفِهِ، والعظيم الذي كَمُلَ في عظمته، والحليم الذي كَمُلَ في حلمه، والحكيم الذي كَمُلَ في حكمته، وهو الذي كَمُلَ في أنواع الشرف والسُّؤْدَدِ، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه صفته لا تنبغي إلا له».

و**(الأحد)** يتضمن نفي المِثْل عنه.

والتنزيه الذي يستحقه الرَّبُّ يَجمعه نوعان:

أحدهما: نَفْيُ النَّقْصِ عنه.

الثاني: نَفْيُ مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال.

فإثباتُ صفات الكمال له مع نفي مماثلة غيره له يجمعُ ذلك، كما دلت عليه هذه السورة.

وأمَّا المخالفون لهم من المشركين والصَّابِئَةِ ومَن اتَّبَعَهُمْ من الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم، فطريقتهم: نفيٌ مفصَّلٌ، وإثباتٌ مجمَلٌ.

ينفون صفات الكمال، ويثبتون ما لا يُوجد إلا في الخيال،

فيقولون: ليس بكذا ولا كذا، فمنهم من يقول: ليس له صفة ثبوتية، بل إمَّا سلبية، وإمَّا إضافية، وإمَّا مركبة منهما، كما يقوله من يقول من الصابئة والفلاسفة، كابن سينا وأمثاله، ويقول: هو وجود مطلق بشرط سلب الأمور الثبوتية عنه، ومنهم من يقول: وجود مطلق بشرط الإطلاق.

وقد قرَّروا في منطقهم ما هو معلوم في العقل الصريح: أن المطلق بشرط الإطلاق إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان، فلا يُتصور في الخارج حيوانٌ مطلق بشرط الإطلاق، ولا إنسانٌ مطلَق بشرط الإطلاق، ولا جسمٌ مطلق بشرط الإطلاق، فيبقىٰ واجب الوجود ممتنع الوجود في الخارج، وهذا مع أنه تعطيلٌ وجهلٌ وكفرٌ، فهو جمعٌ بين النقيضين»(١).

وقد أشار العلامة السّعْدي رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ ضابط مهم في كلام شيخ الإسلام فقال: «وهذا الذي ذكره المصنف ضابطٌ نافعٌ في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، **وأنه مبني علىٰ أصلين: أحدهما: النفي، وثانيهما: الإثبات.**

أما النفي: فإنه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص، وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك، أو نديد، أو شبيه في شيء من صفاته، أو في حَقٍّ من حقوقه الخاصة، فكلُّ ما يُنافي صفات الكمال فإن اللهَ منزَّهٌ عنه مقدَّس.

والنَّفي مقصود لغيره، والقصد منه إثبات ما لم يرد نفي شيء منه في الكتاب والسنة عن الله إلا بقصد إثبات ضده، فنفيُ الشَّريكِ والنَّديدِ عن الله لكمال عظمته وتفرُّده بالكمال، ونفي السِّنَةِ والنَّوْمِ

(١) «منهاج السُّنَّة» (٢/ ١٨٤- ١٨٧).

والموتِ لكمال حياته.

ونفي عُزوب شيء عنه لعلمه وقدرته.

ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة.

وأمَّا الإثبات: فإنه يجمع الأمرين: إثبات المجملات كالحمد المطلق والكمال المطلق والمجد المطلق ونحوها، وإثبات المفصَّلَات كتفصيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته، ونحو ذلك من صفاته»[(١)].



(١) «التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» للسعدي (ص٢٠).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فلا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّة والجَمَاعَة عما جاء به المرسلون؛ فإنه الصِّراطُ المستقيمُ؛ صراطُ الذين أَنْعَمَ اللهُ عَليهم من النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين».

الشرح:

أي: لا ميل لأهل السنة ولا انحراف عما جاءت به الرسل من الإيمان، بل هم مُقْتَفُونَ آثارهم، مُسْتَضِيئُونَ بأنوارهم، ومن ذلك إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما لا يليق به؛ فإن الرسل قد قرَّروا ذلك الأصل العظيم، وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك.

وقوله: «فإنه الصراط المستقيم» تعليلٌ لقوله: **«فلا عدول لأَهْل السُّنَّة»** أي: لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذي لا تعدُّد فيه ولا انقسام، وهو المذكور في قوله تعالىٰ في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهو الذي ندعو الله في كل ركعة من صلواتنا أن يهدينا إليه[(١)].

ولا يُوَفَّق لهذا الصِّراط المستقيم ولا يَثبت عليه إلا مَن أطاع الله ورسوله؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ

---

(١) انظر: «شرح الواسطية» للفوزان (ص٢٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

قال العلامة السِّعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الذين فضَّلهم اللهُ بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلىٰ الخلق ودعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ. ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾، وهم: الذين كَمُلَ تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق، وصدَّقوه بيقينهم، وبالقيام به قولًا وعملًا وحالًا ودعوة إلىٰ الله. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فَقُتِلُوا. ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين صَلُحَ ظاهرُهم وباطنُهم، فصلحت أعمالهم، فكل مَن أطاع الله تعالىٰ كان مع هؤلاء في صحبته. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ بالاجتماع بهم في جنَّات النعيم والأُنْس بقربهم في جِوَار ربِّ العالمين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ فهو الذي وَفَّقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النِّسَاء: ٧٠] يعلم أحوال عباده ومَن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة التي تَواطأ عليها القلبُ والجوارحُ»[١].

فأَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ هداهم الله لمعرفة هذا الطريق الذي هو الصِّراطُ المستقيمُ صراطُ الذين أنعم الله عليهم، ووفَّقَهم للثبات عليه، وبلزومهم لهذا الطريق النَّافع تَمَّت لهم النعمة، وصحَّت عقائدُهم، وكَمُلَتْ أخلاقُهم، أمَّا مَن سلك غير هذا السبيل فإنه مُنحرفٌ في عقيدته وأخلاقه وآدابه[٢].

(١) «تفسير السعدي» (ص ١٨٥).

(٢) انظر «التنبيهات اللطيفة» للسعدي (ص٢١).





قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد دَخلَ في هذه الجُملة: ما وصف اللهُ به نفسَه في سورة الإخلاص، التي تَعدل ثلثَ القرآن، حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وما وَصَفَ به نَفْسَهُ في أعظم آية في كتابه؛ حيث يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولهذا كان مَن قَرأ هذه الآية في ليلةٍ - لَم يَزل عليه من الله حافظٌ، ولا يَقربه شيطانٌ حتَّىٰ يُصبح».

الشرح:

ذكر العلَّامةُ ابنُ عثيمين في بيان المراد بقول المصنف: «وقد دخل في هذه الجملة» - احتمالين فقال: «يحتمل أنه يريد بها قوله: «وهو قد جمع فيما وَصَفَ وسَمَّىٰ به نفسَه بين النفي والإثبات»، ويحتمل أن يريد ما سبق مِن أنَّ أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة يصفون الله تعالىٰ بما وصف به نفسَه وما وصفه به رسولُه، وأيًا كان فإن هذه السورة وما بعدها داخلةٌ في ضمن ما سبق من أنَّ اللهَ - تعالىٰ - جَمَع فيما وَصَفَ وسَمَّىٰ به نفسَه بين النفي والإثبات، وأن أَهْل السُّنَّة

يؤمنون بذلك»[١].

ولعلَّ سورةَ الإخلاص قد سُمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّها تخلص الإخبار عن الله، أي: تُمَحِّصه وتُبَيِّنه. وبها يُخلص قارئها التوحيد ويتخلىٰ عن الشرك. وتخلص السورة صاحبها يوم القيامة من العذاب أو من الخلود في النار.

وقد ذكر الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ سببَ تسميتها بسورة الإخلاص، وبَيَّن لماذا تعدل ثلث القرآن؟ فقال: «عادَلَت ثُلُثَ القرآن؛ لأن القرآن خبر وإنشاء، والإنشاء: أمر ونهي وإباحة. والخبر خبر عن الخالق، وخبر عن خلقه؛ فَأَخْلَصَت سورةُ الإخلاص الخبرَ عن الله، وخلَّصَتْ قارئَها من الشِّرك الاعتقادي»[٢].

وكذلك قال العلَّامة ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلثَ القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبارَ عن الرب تعالىٰ وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه»[٣].

ودليل ذلك: ما رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردِّدها، فلما أصبح جاء إلىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالُّها - فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن»**[٤].

وروىٰ أبو الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«أَيَعْجِزُ أحدُكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟»**. قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: **«﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن»**[٥].

---

(١) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (ص١٢٧).
(٢) «فتح الباري» (٩/ ٦١).
(٣) «مختصر الصواعق» (ص١٢٥).
(٤) أخرجه البخاري في مواضع: (٥٠١٣)، و(٦٦٤٣)، و(٧٣٧٤).
(٥) أخرجه مسلم (٨١١).

وروي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ بعث رجلًا علىٰ سَرِيَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**سَلُوهُ لأي شيءٍ يصنع ذلك؟**». فسألوه، فقال: لأنَّها صِفَةُ الرَّحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أنَّ الله يُحِبُّه**»(١).

فلما أحبَّ هذا الرجل المبارك هذه السورة المباركة؛ لأنها تشتمل علىٰ صفة الرحمن وتفرده بالوحدانية في الأسماء والصفات والأفعال - كان الجزاء أن أحَبَّه الله تعالىٰ، وتلك الغاية العظمىٰ والأمنية التي ليس بعدها أُمنية.

وقد بَيَّن العلامةُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعضَ ما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة؛ فقال: «سورةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: متضمنَّةٌ لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباتُه للرب تعالىٰ من الأَحَدِيَّةِ المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصَّمِدِيَّة المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصَّمَدِيَّة، وغِنَاهُ وأَحَدِيَّتِهُ، ونفي الكفءِ المتضمِّن لنفي التشبيه والتَّمْثِيل والتَّنْظِير.

فتضمَّنت هذه السورةُ إثباتَ كلِّ كمالٍ له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلقِ الشَّريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبُه جميعَ فِرَقِ الضَّلَالِ والشِّرْكِ؛ ولذلك كانت تعدلُ ثُلُثَ القرآنِ»(٢).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٣١٦).

وأمَّا عن تفسير هذه السورة الكريمة فقد قال **الحافظُ ابنُ كثير**:

«قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] «يعني: هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وَزِيرَ، ولا نَديد، ولا شَبيه، ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ علىٰ أحد في الإثبات إلا علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢].

قال عكرمة، عن ابن عباس: يعني: الذي يَصمد الخلائقُ إليه في حوائجهم ومسائلهم.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو السَّيد الذي قد كَمُل في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُل في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُل في عظمته، والحليم الذي قد كَمُل في حِلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كَمُل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشَّرف والسُّؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صِفته لا تَنبغي إلا له، ليس له كفءٌ، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

أي: ليس له ولدٌ ولا والدٌ ولا صاحبةٌ.

قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يعني: لا صاحبةَ له.

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له مِن خلقه نَظير يُساميه، أو قريب يُدانيه، تعالىٰ وتقدس وتنزه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

وفي «صحيح البُخاري»: «**لا أحدَ أصبرُ علىٰ أذىٰ سَمعه من الله؛ إنَّهم يجعلون له ولدًا، وهو يَرزقهم ويُعافيهم**»(١).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: كَذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتمني ولم يكن له ذلك؛ فأمَّا تكذيبه إيَّاي فقوله: لَن يُعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ مِن إعادته. وأمَّا شتمه إيَّاي فقوله: اتَّخذ الله ولدًا. وأنا الأحدُ الصَّمَدُ الَّذي لم يَلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ**»(٢)(٣).

ثم قال المُصنِّفُ: «وما وَصَفَ به نَفْسَهُ في أعظم آية في كتابه»، يعني: آية الكرسي، والدَّليلُ علىٰ أنَّها أعظمُ آية في كتاب الله: هو ما رواه أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المُنْذِر، أَتَدْرِي أيَّ آيةٍ مِن كتاب الله معك أعظم؟**». قال: قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: «**يا أبا المُنْذِر، أَتَدْرِي أيَّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟**». قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٣)، وبرقم (٤٩٧٤).
(٣) «تفسير ابن كثير» بتصرف واختصار (٨/ ٥٢٩).

قال: فضرب في صدري، وقال: «واللهِ، لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المُنْذِرِ»[(١)].

وسُمِّيَت آية الكرسي؛ لأنَّ الله جل جلاله ذَكَر صفة كُرسيِّه فيها.

وقد تضَمَّنت هذه الآيةُ الجليلةُ أسماءً حُسنىٰ وصفاتٍ عُلَا لله تَباركت أسماؤه وتقدست صفاته؛ بَيَّنها بالتفصيل العَلَّامة ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقال: «وهذه الآية تتضمَّن من أسماء الله خمسة، وهي: (الله، الحي، القيوم، العَلِي، العظيم).

وتتضمن من صفات الله ستًّا وعشرين صفة، منها خمس صفات تتضمنها هذه الأسماء.

والسادسة: انفراده بالألوهية.

السابعة: انتفاء السِّنَة والنَّوم في حقِّه؛ لكمال حياته وقَيُّومِيَّتِهِ.

الثامنة: عموم ملكه؛ لقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

التاسعة: انفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالملك، ونَأْخُذُهُ مِن تقديم الخبر.

العاشرة: قوَّة السلطان وكماله؛ لقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الحادية عشرة: إثبات العِنْدِيَّة، وهذا يدلُّ علىٰ أنه ليس في كلِّ مكان، ففيه الردُّ علىٰ الحلولية.

الثانية عشرة: إثبات الإذن من قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الثالثة عشرة: عموم علم الله تعالىٰ؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

الرابعة عشرة والخامسة عشرة: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَنسىٰ ما مضىٰ؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ولا يَجهل ما يستقبل؛ لقوله ﴿مَا بَيْنَ

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

﴿أَيْدِيهِمْ﴾.

السادسة عشرة: كمال عظمة الله؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به.

السابعة عشرة: إثبات المشيئة؛ لقوله ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

الثامنة عشرة: إثبات الكرسي، وهو موضع القدمين.

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون: إثبات العظمة والقوة والقدرة؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق.

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون: كمال علمه ورحمته وحفظه، من قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

الخامسة والعشرون: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

«**السادسة والعشرون:** إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]»[(١)].

وأمَّا تفسير آية الكرسي فقد جاء في «تفسير ابن كثير»: أنَّ هذه الآية مشتملةٌ على عشر جُمَلٍ مستقلَّة، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إخبارٌ بأنه المتفرِّد بالإلهيةِ لجميع الخلائق.

﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبدًا، القيِّم لغيره.

وكان عُمَرُ يقرأ «القَيَّام»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، لا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٥].

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، أي: لا يعتريه نقصٌ ولا

---

(١) «شرح الواسطية لابن عثيمين (ص١٤١- ١٤٦).

غَفلة ولا ذُهول عن خلقه، بل هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، شهيد علىٰ كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفىٰ عليه خافية، ومن تمام القَيُّومِيَّة أنه لا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ ولا نومٌ، فقوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾، أي: لا تغلبه سِنَةٌ، وهي الوَسَنُ والنُّعَاسُ، ولهذا قال: ولا نومٌ؛ لأنه أقوىٰ مِن السِّنَةِ.

وفي الصَّحيح عن أبي مُوسىٰ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: «**إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عملُ النهار قبل عمل الليل، وعملُ الليل قبل عمل النهار، حِجَابُهُ النورُ - أو النارُ - لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: إخبارٌ بأن الجميعَ عبيدُه وفي مُلكه وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ أنه لا يَتَجَاسَرَ أحدٌ علىٰ أن يشفع لأحدٍ عنده إلا بإذنه له في الشَّفَاعة، كما في حديث الشفاعة: «**آتي تحت العرش فَأَخِرُّ سَاجِدًا، فيدعني ما شاء الله أن يَدَعَنِي، ثم يُقَالُ: ارفع رأسك، وَقُلْ تُسْمَع، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ** - قال -:

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

فيحدُّ لي حَدًا فأُدخلهم الجنةَ»[١].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله - إخبارًا عن الملائكة -: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، أي: لا يَطَّلِعُ أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عَزَّ وَجَلَّ وأطلعه عليه، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ثم ذكر الأقوال الواردة في ذلك، وصَحَّحَ أنَّ الكرسي موضع القدمين، وأنَّه غير العرش، وأنَّ العرش أكبر منه، كما دَلَّت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، أي: لا يُثْقِلُهُ ولا يُكْرِثُهُ حفظ السماوات والأرض ومَن فيهما، ومَن بينهما، بل ذلك سهلٌ عليه يسيرٌ لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيبُ على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيءٌ ولا يغيب عنه شيءٌ.

والأشياءُ كلُّها حقيرةٌ بين يديه، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو القاهر لكل شيءٍ، الحسيب على كل شيءٍ، الرَّقيبُ العليُّ العظيمُ، لا إلـه غيرُه، ولا رَبَّ سِوَاهُ، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرَّعد: ٩]، وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأَجْوَدُ فيها طريقةُ السَّلَفِ الصالحِ: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ ولا تَشْبِيهٍ[٢].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في مواضع: (٤٤٧٦)، و(٤٧١٢)، و(٦٥٦٥)، و(٧٤١٠)، و(٧٤٤٠)، و(٧٥١٠)، وأخرجه مسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٧٨-٦٨٢) بتصرف واختصار.

ثم ذكر المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ فضائل آية الكرسي: أنَّ مَن قرأها كل ليلة «لَم يَزل عليه من الله حافظٌ، ولا يَقربه شيطانٌ حتَّىٰ يُصبح»، ويشير بهذا إلىٰ ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «وَكَّلني رسول الله ﷺ بحفظِ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ؛ فجعل يَحثو من الطعام فأخذتُه، وقلتُ: والله لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة! قال: فخَلَّيت عنه، فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُك البارحة؟**». قال: قلتُ: يا رسول الله، شَكَا حاجة شديدة وعيالًا؛ فَرحمتُه، فخَلَّيت سبيله. قال: «**أمَا إنَّه قَد كَذَبك، وسيعودُ**»، فعرفتُ أنه سيعود؛ لقول رسول الله ﷺ: إنَّه سيعود، فرصدتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُه، فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ! قال: دعني؛ فإني محتاجٌ وعليَّ عيال، لا أعود! فرحمتُه، فخَلَّيت سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُك؟**»، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا؛ فرحمتُه، فخَلَّيت سبيله، قال: «**أما إنَّه قد كذبك وسيعود**»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود! قال: دعني أُعَلِّمْك كلمات يَنفعك اللهُ بها! قلت: ما هو؟ قال: إذا أَوَيت إلىٰ فراشك، فاقرأ آيةَ الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، حتىٰ تَختم الآية، فإنَّك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يَقرَبَنَّك شيطانٌ حتىٰ تُصبح. فخَلَّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعلَ أسيرُك البارحة؟**». قلت: يا رسول الله، زعم أنه يَعلمني كلمات يَنفعني الله بها، فخَلَّيت سبيله، قال: «**ما هي؟**». قلت: قال لي: إذا أَوَيت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تَختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يزال عليك مِن الله حافظ، ولا يَقربك شيطانٌ حتىٰ تصبح - وكانوا أحرصَ شيء علىٰ الخير - فقال النبي ﷺ: «**أَمَا إِنَّه قَد صَدَقك وهو كذوبٌ، تَعلم مَن تُخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟**». قال: لا. قال: «**ذاكَ شَيطانٌ**»(١).



(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ :

«**وقوله سبحانه:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، **وقوله سبحانه:** ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، **وقوله سبحانه:** ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، **وقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، **وقوله:** ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، **وقوله:** ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، **وقوله:** ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، **وقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]

وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾

[المائدة: ٦٤]، **وقوله:** ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، **وقوله:** ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣-١٤]، **وقوله:** ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، **وقوله:** ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، **وقوله:** ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، **وقوله:** ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، **وقوله:** ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، **وقوله:** ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، **وقوله:** ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، **وقوله:** ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، **وقوله:** ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، **وقوله:** ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، **وقوله:** ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، **وقوله:** ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، **وقوله:** ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، **وقوله:** ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، **وقوله:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ في سبعة مواضع في سورة الأعراف، قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٥٤]، وقال في سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٣]، وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٢]، وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [٥]، وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [٥٩]، وقال في سورة (الم) السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٤]، وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٤].

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿بَل

﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧]

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، **وقوله:** ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ

﴿مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا البابُ في كتابِ الله كثيرٌ، ومَن تَدبَّرَ القُرآنَ طالبًا للهُدَىٰ منه تَبين له طريقُ الحقِّ».

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا نصوصًا كثيرًا دالَّة علىٰ إثبات هذه الأسماء والصفات لله عَزَّ وَجَلَّ، وسنتناولها بشكل عام؛ مُبيِّنين قواعد إثبات الأسماء والصفات، واختلاف العلماء فيما يَثبت به الاسم، ومناهجهم في جمع الأسماء الحسنىٰ، والفرق بين ما هو اسم وما هو صفة وما هو خبر.

فهذه النُّصوص جاءت في ثلاثة أبواب: باب الأسماء، وباب الصِّفات، وباب الإخبار.

أمَّا الأسماء: فقد سار العلماء في جمعهم للأسماء الحسنىٰ علىٰ مناهج مختلفة إلىٰ حدٍّ ما (عددًا وطريقة)؛ فمن حيث الكمِّ هناك مَن اقتصر علىٰ التِّسعة والتِّسعين، وهناك مَن قَصر عن ذلك، وهناك مَن زاد.

ومن حيث الطَّريقة التي ساروا عليها في جمع تلك الأسماء هناك أربعة مناهج وقفتُ عليها من خلال استقراء جُهودهم في هذا المجال، أُوردها لك علىٰ النحو التالي:

المنهج الأول:

الاعتماد علىٰ العَدِّ الوارد في روايات حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه، وبالأخص طريق الوليد بن مُسلم عند الترمذي وغيره، وذلك «لاعتقادهم بصِحة حديثِ الأسماء وتعدادها علىٰ مذهب المُتساهلين في التصحيح وعدم النَّظر في العِلل الواردة فيه»[(١)].

المنهج الثاني:

الاقتصار علىٰ ما ورد من الأسماء بصورةِ الاسم فقط، أي: ما ورد إطلاقُه.

وهذا مَنهجُ ابنِ حزم في عدِّ الأسماء[(٢)].

قال عنه ابن حجر: «فإنَّه - أي: ابن حزم - اقتصر علىٰ ما ورد فيه بصورة الاسم لا ما يُؤخذ من الاشتقاق؛ كـ(الباقي) من

---

(١) «العواصم والقواصم» (٧/ ٢٠٧).

(٢) «المحلىٰ» (٨/ ٣١).

قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٧]، ولا ما ورد مضافًا كـ(البديع) من قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١١٧]»[(١)].

المنهج الثالث:

منهج المُتوسطين الذين اشتقوا من كلِّ صفة وفِعل اسمًا، ولم يُفَرِّقوا بين البابين - أي: باب الأسماء وباب الصِّفات - بل إنهم يُدخلون ما يتعلق بباب الإخبار أحيانًا.

ومِن هؤلاء ابنُ العربي المالكي، وابنُ المرتضىٰ اليَماني، والشَّرَباصي.

المنهج الرابع:

منهج المُتوسطين الذين تَوَسَّطوا بين أصحاب المنهج الثاني والمنهج الثالث، فلا هُم الَّذين حَجَّروا تحَجُّر ابنِ حزم، ولا هم الذين تَوَسَّعُوا تَوَسُّعَ ابن العربىٰ وأمثاله.

وهذا المنهج هو الأشهر والأكثر تطبيقًا عند أهل العلم؛ فهم حافظوا علىٰ خاصية هذا الباب، وبالتالي جعلوا شروطًا لاشتقاق الاسم من الصفة، وهذه الشروط دَلَّت عليها النصوص.

وليس الغرض هنا تفصيل تلك المناهج وبيان ما لها وما عليها، ولكن المقصود هنا هو الإشارة إلىٰ أن هذا الاختلاف الحاصل بين المناهج الأربعة السابقة الذِّكر يُؤكد ضرورة تحديد ضابط للأسماء الحسنىٰ يُعِين علىٰ معرفة الرَّاجح منها.

وتبعًا لهذه المناهج فقد تباينت آراء العلماء في جمعهم لأسماء الله الحسنىٰ؛ **قال ابنُ حَجَر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تقرَّرَ رُجحان أنَّ سردَ الأسماء

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٢١٧).

ليس مرفوعًا[١]، فقد اعتنىٰ جماعة بتتبعها من القرآن مِن غير تقييد بعدد»[٢].

نماذج لاجتهادات أهل العلم في جمع الأسماء الحسنىٰ:

إذا تبيَّن أن الروايات في عدِّ الأسماء ليست من كلام النبي ﷺ، فإن الحقيقة التي يجب أن تُقرَّر في هذا المقام: أنَّ جميع ما ورد من جمع للأسماء الحسنىٰ إنَّما هو من اجتهاد أهل العلم من خلال استقرائهم للنُّصوص، والملاحظ علىٰ تلك الاجتهادات ما يلي:

١- اقتصار الأغلب في جمعهم علىٰ عدِّ تسعةٍ وتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنىٰ، ولعلَّ المقصود من هذا التَّقَيُّد هو تحصيل الفضل الوارد في الحديث، إذ الفضل قد ورد فيمن أَحْصَىٰ هذا القَدْر من أسماء الله.

٢- الاقتصار كذلك علىٰ تَتَبُّع تلك الأسماء في سور القرآن الكريم فقط، دون الرُّجوع إلىٰ السنة الصَّحيحة، ولعل السَّبب يرجع في ذلك إلىٰ صعوبة تتبُّع ما ورد في السُّنَّة؛ إذ أنَّه يحتاج إلىٰ جهدٍ في الاستقصاء، مع ملاحظة أن غالب مَن يعتني بعدِّ الأسماء يَقتصر علىٰ عدِّ تسعةٍ وتسعين - كما أسلفنا - لتحصيل فضل ما ورد في الحديث، وبما أنهم يستخرجون ذلك العدد من القرآن، فإنهم يَكتفون بذلك.

٣- الاختلاف في العدِّ بين جمعٍ وآخر، ويَندر أن تجد اتِّفاقًا كليًّا بين جمعين؛ لأن الاستقراء قدْ يختلف من شخص لآخر، وكذلك الضابط في تعيين ما يَنطبق عليه شرطُ الاسم قد يختلف؛ فهناك مَن يتوسَّع، وهناك مَن يتقيَّد بشروط مُعيَّنة بحسب ما وصل إليه

---

(١) أي: لم يثبت بدليل قويٍّ أنه من كلام النبي ﷺ.

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢١٧).

اجتهاد كلٍّ واحد منهم في المنهج الذي ارتضاه، كما أسلفنا.

وأمَّا الصفاتُ عمومًا فثلاثة أنواع: صفات كمال. وصفات نَقص. وصفات لا تَقتضي كمالًا ولا نقصًا. وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالًا ونقصًا باعتبارين.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفاتُه كمال مَحْض؛ فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، ومُنَزَّهٌ عن الأقسام الثلاثة الأخرىٰ(1).

وتنقسمُ الصِّفات باعتبار ورودها في النُّصوص إلىٰ قسمين:

١- صفات ثبوتية. ٢- صفات سلبية (أي: منفية).

القسم الأول: الصفات الثبوتية:

وتعريفها: هي ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والصفات الثبوتية كثيرة جدًّا؛ منها: العلم - والحياة - والعزة - والقدرة - والحكمة - والكبرياء - والقوة- والاستواء - والنزول - والمجيء، وغيرها.

وتنقسم الصفات من حيث أدلة ثبوتها إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الصفات الشرعية العقلية:

وضابطها: هي التي يشترك في إثباتها: الدليل الشرعي السَّمعي، والدليل العقلي، والفطرة السليمة.

وهي أكثر صفات الرب تعالىٰ، بل أغلب الصفات الثُّبوتية

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٧)، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

يشترك فيها الدَّليلان السَّمعي والعقلي[١]، وإن كان الأصل في ثبوتها الدليل الشرعي.

ومنها: (العلم، السَّمع، البصر، العلو، القدرة، الإرادة، الخلق، الحياة).

وسميت «شرعية عقلية».

فشرعية: لأنَّ الشرع دلَّ عليها أو أرشد إليها.

وعقلية: لأنها تُعلم صحتها بالعقل، ولا يقال: إنها لم تُعلم إلا بمجرد الخبر.

فإذا أخبر الله بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية - صار مدلولًا عليه بخبره، ومدلولًا عليه بدليل العقل الذي يُعلم به؛ فيصير ثابتًا بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تُسَمَّىٰ الدلالة الشرعية[٢].

القسم الثاني: الصفات الخبرية وتسمىٰ النقلية والسمعية:

وضابطها: هي التي لا سبيل إلىٰ إثباتها إلا بطريق السَّمع والخبر عن الله أو عن رسوله الأمين عليه الصلاة والتَّسليم[٣].

ومنها: (الوجه - اليد - العين - الرِّضا - الفرح - الغضب - القَدَم - الاستواء - النزول - المجيء - الضحك).

وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

١- صفات ذاتيَّة؛ مثل: (الوجه - اليد - العين - القَدَم).

---

(١) «الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه» (ص٢٠٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٧١، ٧٢).

(٣) «الصفات الإلهية» (ص ٢٠٧).

٢- **صفات فعلية؛** مثل: (النزول - الاستواء - الغضب - الفرح - الضحك).

القسم الثاني: الصفات السلبية:

وتعريفها: هي ما نفاه الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ.

والصفات المنفية كلها صفات نقص في حقه.

ومن أمثلتها: النَّوم - الموت - الجهل - النِّسيان - العجز - التعب - الظلم.

فيجب نفيُها عن الله عز وجل مع إثبات أنَّ الله موصوف بكمال ضدها.

فأهل السنة يجعلون الأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيها عن الله تعالىٰ هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يتجاوزونها، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه.

«وأما ما لم يَرِد إثباتُه ونفيُه فلا يصح استعماله في باب الأسماء وباب الصفات إطلاقًا، وأما في باب الإخبار فمن السلف مَن يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حقًّا يليق بالله تعالىٰ فهو مقبول، وإن أراد به معنىً لا يليق بالله ﷺ وجب ردُّه»(١).

فَمن شرط الأسماء الحسنىٰ: صحة الإطلاق، بمعنىٰ: أن يقتضي الاسم المدح والثناء بنفسه بدون متعلق أو قيد.

---

(١) «رسالة في العقل والروح» (٢/ ٤٦، ٤٧) لابن تيمية، (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية).

وهذا الشرط هو الذي يُميز باب الأسماء عن باب الصفات، بخلاف شرط ورود النص بهما؛ فإنه شرط مشترك بين الاثنين؛ فأسماء الله وصفاته لابد من ورود النَّصِّ بهما[١].

وهذا الشرط من دقيق فقه الأسماء الحسنىٰ، فنحن إذ وقفنا وقفة تأمل عند نصوص الكتاب والسنة الواردة في هذا الشأن نجد الحقائق التالية:

أولًا: أنَّ الله أطلق علىٰ نفسه أسماء كـ(السميع) و(البصير)، وأوصافًا كـ(السمع) و(البصر)، وهكذا أخبر عن نفسه بأفعالها؛ فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥]؛ فاستعملها في تصاريفها المتنوعة، مما يدل علىٰ أنَّ مثل ذلك يجوز إطلاقه عليه في أيِّ صورةٍ وَرَدَ.

ثانيًا: وأطلق علىٰ نفسه أفعالًا كـ(الصُّنع) و(الصِّبغة) و(الفعل) ونحوها؛ قال تعالىٰ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النَّمل: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البَقَرَة: ١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: ١٠٧]، لكنه لم يَتَّسم ولم يَصف نفسه بها، ولكن أخبر بها عن نفسه، مما يدل علىٰ أنَّها تُخالف الأول في الحكم، فوجب الوقوفُ فيها علىٰ ما ورد.

ثالثًا: ووصف نفسَه بأفعال في سياقها المدح كـ(يريد) و(يشاء)؛

---

(١) باب الإخبار لا يُشترط فيه التوقيف، فما يدخل في الإخبار عنه- تعالىٰ- أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كـ(الشيء والموجود والقائم بنفسه)، فإنه يُخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، فالإخبار عنه قد يكون باسم حَسَن، أو باسم ليس بسيئ، أي: باسم لا يُنافي الحسن، ولا يجب أن يكون حسنًا، ولا يجوز أن يُخبر عن الله باسم سيئ. «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١)، «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ١٤٢، ١٤٣) بتصرف.

فقال جل شأنه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، إلَّا أنه لم يشتق له منها أسماء؛ فدل علىٰ أنَّ هذا النوع مخالف للقِسمين الأولين، فوجب ردُّه إلىٰ الكتاب والسنة وذلك بالوقوف حيث أوقفنا الله ورسوله ﷺ.

رابعًا: ووصف نفسَه بأفعال أخرىٰ علىٰ سبيل المقابلة بالعقاب والجزاء؛ فقال تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولم يَشتق منها أسماء له تعالىٰ؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ مثل هذه الأفعال لها حكم خاص فوجب الوقوف علىٰ ما ورد.

فهذه الحقائق السابقة قَرَّرت عند العلماء النتائج التالية:

١- أنَّ النصوص جاءت بثلاثة أبواب هي (باب الأسماء) و(باب الصفات) و(باب الإخبار).

٢- أن باب الأسماء هو أخص تلك الأبواب، فما صحَّ اسمًا صَحَّ صفة وصحَّ خبرًا، وليس العكس.

٣- باب الصِّفات أوسعُ مِن باب الأسماء، فما صَحَّ صفة فليس شرطًا أن يصح اسمًا، فقد يصح وقد لا يَصح، مع أن الأسماء جميعها مُشتقة من صفاته.

٤- أن ما يدخل في باب الإخبار عنه - تعالىٰ - أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ فالله يُخْبر عنه بالاسم وبالصفة، وبما ليس باسم ولا صفة كألفاظ (الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه) و(المعلوم)، فإنَّه يُخبر بهذه الألفاظ عنه، ولا تَدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُليا.

والذي يَعنينا هنا من بين تلك النتائج هو تحديد سبب خصوصية باب الأسماء، وما المانع من دخول بعض ألفاظ الصفات وغيرها في هذا الباب، وهذا يتضح لنا عند تحليل ما اشتقت منه أسماء الله.

فَمِن المعلوم: أنَّ أسماء الله الحسنىٰ كلها مُشتقة؛ فكلُّ اسم من أسمائه مشتق إمَّا مِن صفة من صفاته، أو فِعل قائم به(١)، ولمعرفة صحة الاسم ينظر إلىٰ الصفة أو الفعل الذي اشتُقَّ منه، **ولبيان ذلك نقول**:

أولًا: باب الصفات أوسع مِن باب الأسماء:

فإن كانت الصفة منقسمة إلىٰ كمال ونقص لم تَدخل بمطلقها في أسمائه.

مثال ذلك: (المتكلم - والمُريد - والفاعل - والصانع)، فهذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط مَن سَمَّاه بهذه الأسماء؟

لأنَّ الكلام والإرادة والفعل والصنع مُنقسمة إلىٰ محمودٍ ومَذموم(٢).

ومِن أجل ذلك كان باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ فالله يُوصف بصفات كـ(الكلام، والإرادة، والاستواء، والنزول، والضحك)، ولا يُشتق له منها أسماء، فلا يُسَمَّىٰ بالمتكلم، والمريد، والمُستوي، والنازل، والضاحك، «فهذه الأسماء التي فيها عُموم وإطلاق لما يُحمد ويُذم - لا تُوجد في أسماء الله الحسنىٰ؛ لأنَّها لا تدل في حال إطلاقها علىٰ ما يُحمد الربُّ به ويُمدح»(٣).

---

(١) «شفاء العليل» (ص ٢٧١).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١)، «شرح الأصفهانية» (ص ٥).

(٣) «نقض تأسيس الجهمية» (٢/ ١١).

وفي المقابل هناك صفات ورد إطلاق الأسماء منها؛ كـ(العُلو، والعلم، والرحمة والقدرة)؛ لأنها في نفسها صفات مَدح، والأسماء الدالة عليها أسماء مدح»(١)؛ فمن أسمائه: (العَلِي، والعليم، والرحيم، والقدير).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الصفة إذا كانت مُنقسمة إلىٰ كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يُطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمُريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تَدخل في أسمائه، ولهذا غلط مَن سَمَّاه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفَعَّال لما يريد؛ فإن الإرادة والفِعل والصُّنع مُنقسمة، ولهذا إنما أطلق علىٰ نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومِن هنا يتبين لك خطأ مَن أطلق عليه اسم (الصانع والفاعل والمُرَبِّي) ونحوها؛ لأن اللفظ الذي أطلقه - سبحانه - علىٰ نفسه، وأخبر به عنها أتم مِن هذا وأكمل وأجل شأنًا، فإنه يُوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها.

فيُوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يُريد بإرادته... وكذلك العليم الخبير أكمل مِن الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والرَّحيم أكمل من الشفيق، والخالق البارئ المُصور أكمل من الفاعل الصانع.

ولهذا لم تجئ هذه في أسمائه الحسنىٰ؛ فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه علىٰ نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يُطلقه علىٰ نفسه، ما لم يكن مطابقًا لمعنىٰ

(١) «شرح الأصفهانية» (ص ٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١).

أسمائه وصفاته، وحينئذ فيُطلق المعنىٰ لمطابقته لها دون اللفظ، ولا سِيَّما إذا كان مجملًا أو منقسمًا أو مما يُمدح به غيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيدًا، وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنه لا يُطلق عليه في أسمائه الحسنىٰ إلا إطلاقًا مقيدًا كما أطلقه علىٰ نفسه كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فإن اسم (الفاعل) و(الصانع) مُنقسم المعنىٰ إلىٰ ما يُمدح عليه ويذم، فلهذا المعنىٰ لم يجئ في الأسماء الحسنىٰ (المريد)، كما جاء فيها (السميع) (البصير)، ولا (المتكلم، الآمر، الناهي)؛ لانقسام مُسَمَّىٰ هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومِن هنا يعلم غَلط بعض المتأخرين وزَلَقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه مِن كلِّ فعل أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا، وأدخله في أسمائه الحسنىٰ؛ فاشتق منها اسم (الماكر، والمخادع، والفاتن، والمضل)؛ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما كان مُسَمَّاه مُنقسمًا إلىٰ كامل وناقص وخير وشَرٍّ - لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنىٰ؛ كـ(الشيء والمعلوم)، ولذلك لم يُسَمَّ بالمريد ولا بالمتكلم، وإن كان له الإرادة والكلام؛ لانقسام مسمىٰ (المريد) و(المتكلم)، وهذا مِن دقيق فقه الأسماء الحسنىٰ؛ فتأمله، وبالله التوفيق»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا تَسميته - سبحانه - بأنَّه مُريد وأنه متكلم، فإن هذين الاسمين لم يَرِدَا في القرآن ولا في

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٥٧٢، ٥٧٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥، ٤١٦).

الأسماء الحسنىٰ المعروفة، ومعناهما حقٌّ، ولكن الأسماء الحسنىٰ المعروفة هي التي يُدعىٰ الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسُّنَّة، وهي التي تَقتضي المدح والثناء بنفسها، والعلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك هي في نفسها صفات مدح، والأسماء الدالة عليها أسماء مدح، وأمَّا الكلام والإرادة فلما كان جِنسه ينقسم إلىٰ محبوب؛ كالصِّدق والعدل، وإلىٰ مَذموم كالظلم والكذب، والله تعالىٰ لا يُوصف إلا بالمحمود دون المذموم - جاء ما يُوضح به من الكلام والإرادة في أسماء تخصُّ المحمود؛ كاسمه (الحكيم والرحيم والصادق والمؤمن والشهيد والرؤوف والحليم والفتَّاح) ونحو ذلك.

فلهذا لم يَجِئ في أسمائه الحسنىٰ المأثورة: (المتكلم المُريد)»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله - سبحانه - له الأسماء الحسنىٰ، كما سَمَّىٰ نفسه بذلك، وأنزل كُتَبه، وعَلَّمه مَن شاء مِن خلقه كاسمِّه (الحق) و(العليم)، و(الرَّحيم) و(الحكيم) و(الأَوَّل) و(الآخِر) و(العَلِي) و(العظيم) و(الكبير)، ونحو ذلك.

وهذه الأسماء كلها أسماء مَدح وحَمد تَدل علىٰ ما يُحمد به، ولا يكون معناها مذمومًا، والله له الأسماء الحسنىٰ، وليس له مَثَل السَّوْء قَطُّ؛ فالأسماء التي فيها عموم وإطلاق لما يُحمد ويُذم لا توجد في أسماء الله الحسنىٰ؛ لأنها لا تدلُّ علىٰ ما يُحمد الرب ويُمدح؛ فالإرادة إذا أُخذت مطلقًا، وقيل: (المريد)؛ فالمريد قد يُريد خيرًا، يحمد عليه، وقد يُريد شرًّا يُذم عليه، وإذا أُخذ الكلام وقيل: (متكلم)؛ فالمتكلم قد يتكلم بصدقٍ وعدل، وقد يتكلم بكذب وظلم، ولذلك لم تُذكر مُطلقة»[٢].

---

(١) «شرح الأصفهانية» (ص ٥) باختصار.

(٢) «نقض تأسيس الجهمية» (٢/ ١٠، ١١) بتصرف.

ثانيا: باب الأفعال أوسعُ من باب الأسماء:

وأمَّا إذا كان الاسم مشتقًّا مِن أفعاله القائمة به، فإن كان الفعل ورد مُقَيَّدًا فإنَّه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يُشتق له منه اسم مُطلق، كما غَلط فيه بعضُ المتأخرين؛ فجعل من أسمائه الحسنىٰ (المُضل، الفاتن، الماكر)؛ تعالىٰ الله عن قوله، فإنَّ هذه الأسماء لم يُطلق عليه سبحانه منها إلا أفعالًا مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمىٰ بأسمائها المطلقة، والله أعلم»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله علىٰ نفسه أفعالًا لم يَتَسَمَّ منها أسماء الفاعل؛ كـ(أراد، وشاء، وأحدث)، ولم يُسَمَّ بـ(المريد والشائي والمحدث)، كما لم يسم نفسه بـ(الصَّانع والفاعل والمُتقن)، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها علىٰ نفسه؛ فبابُ الأفعال أوسع مِن باب الأسماء، وقد أخطأ- أقبح خطإ- مَن اشتق له مِن كل فعل اسمًا، وبلغ بأسمائه زيادة علىٰ الألف فسَمَّاه (الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد)، ونحو ذلك»[(٢)].

وقال الشيخ حافظ حَكَمي: (اعلم أنه قد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ نفسه علىٰ سَبيل الجزاء والعدل والمُقابلة، وهي فيما سِيقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يُشتق له تعالىٰ منها أسماء، ولا تُطلق عليه في غير ما سِيقت فيه من الآيات؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥).

[التوبة: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، ونحو ذلك، فلا يجوز أن يُطلق علىٰ الله تعالىٰ (مخادع، ماكر، ناس، مُستهزئ)، ونحو ذلك مما تَعالىٰ الله عنه، ولا يُقال: الله يَستهزئ ويُخادع ويَمكر ويَنسىٰ علىٰ سبيل الإطلاق؛ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا»[(١)].

وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله تعالىٰ لم يَصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنىٰ، ومَن ظَنَّ مِن الجُهَّال المُصَنِّفين في شرح الأسماء الحسنىٰ أنَّ مِن أسمائه تعالىٰ (الماكر، المخادع، المستهزئ، الكائد)- فقد فَاهَ بأمرٍ عَظيم تَقشعر منه الجلود، وتَكاد الأسماع تصم عند سماعه، وغرَّ هذا الجاهل أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أطلق علىٰ نفسه هذه الأفعال؛ فاشتق له منها أسماء، وأسماؤه تعالىٰ كلها حسنىٰ؛ فأدخلها في الأسماء الحسنىٰ وقرنها بـ(الرَّحيم، الودود، الحكيم، الكريم)، وهذا جهل عظيم؛ فإنَّ هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تُمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها علىٰ الله تعالىٰ مطلقًا، فلا يقال: إنه تعالىٰ يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد، فكذلك بطريق الأَوْلَىٰ لا يُشتق له منها أسماء ويُكفىٰ بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنىٰ (المريد والمتكلم ولا الفاعل ولا الصانع)؛ لأن مُسَمَّياتها تَنقسم إلىٰ ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كـ(الحليم والحكيم والعزيز والفَعَّال لما يُريد)، فكيف يكون منها (الماكر والمخادع والمستهزئ).

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٧٦).

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنىٰ: الداعي، والآتي، والجائي، والذاهب، والقادم، والرَّائد، والنَّاسي، والقاسم، والساخط، والغضبان، واللاعن، إلىٰ أضعاف ذلك من التي أَطلق تعالىٰ علىٰ نفسه أفعالها في القرآن، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل.

والمقصود: أن الله سبحانه لم يَصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا علىٰ وجه الجزاء لِمَن فعل ذلك بغير حقٍّ، وقد علم أنَّ المجازاة علىٰ ذلك حَسَنة من المخلوق، فكيف مِن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»[١].

قلتُ: ومِن هنا يَتبين لك خطأ ما عَدَّه بعضُهم - ومنهم ابنُ العربي المالكي في كتابه «أحكام القرآن»؛ حيث سَمَّاه بـ(الفاعل والزَّارع)، فإن الفاعل والزارع إذا أُطلقا بدون متعلق ولا سياق يدل علىٰ وصف الكمال فيهما فلا يُفيدان مدحًا، أمَّا في سياقها من الآيات التي ذُكِرت فيها، فهي صفات كمال ومدح توحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤] الآيات، بخلاف ما إذا عدت مجردة عن متعلقاتها وما سيقت فيه وله، وأكبر مصيبة أن عَدَّ في الأسماء الحسنىٰ: رابع ثلاثة، وسادس خمسة، مصرحًا قبل ذلك بقوله: «وفي سورة المجادلة اسمان»؛ فذكرهما. وهذا خطأ فاحش، فإن الآية لا تدل علىٰ ذلك ولا تقتضيه بوجهٍ؛ لا منطوقًا ولا مفهومًا، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ

---

(١) «مختصر الصواعق» (٢/ ٣٤).

أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجَادلة: ٧]الآية. وأين في هذا السياق: رابع ثلاثة، سادس خمسة؟ وكان حقه اللائق بمراده أن يقول: رابع كل ثلاثة في نجواهم، وسادس كل خمسة كذلك، فإنَّه- تعالىٰ- يعلم أفعالهم ويسمع أقوالهم، كما هو مفهوم من صدر الآية، ولكن لا يليق بهذا المعنىٰ إلا سياق الآية، والله تعالىٰ أعلم[١].

هذا، وقد زلَّت في هذا الباب فِرَقٌ شتىٰ، وقد أرجع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ اختلافهم إلىٰ قولين؛ فقال: «والناس متنازعون: هل يُسَمَّىٰ الله بما صح معناه في اللغة والعقل والشرع وإن لم يَرد بإطلاقه نص ولا إجماع، أم لا يُطلق إلا ما أطلق نصًّا أو إجماعًا، علىٰ قولين مشهورين:

١- فعامة النُّظَّار - أي: أهل الكلام - يُطلقون ما لا نص في إطلاقه ولا إجماع؛ كلفظ (القَديم) و(الذات) ونحو ذلك.

٢- ومِن الناس مَن يَفْصِل بين الأسماء التي يُدعىٰ بها، وبَين ما يُخبر به عنه للحاجة؛ فهو - سبحانه - إنَّما يُدعىٰ بالأسماء الحسنىٰ، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأمَّا إذا احتيج إلىٰ الإخبار عنه مثل أن يقال: ليس هو بقديم ولا موجود ولا ذات قائمة بنفسها، ونحو ذلك. فقيل: بل هو سبحانه قديم موجود وهو ذات قائمة بنفسها. وقيل: ليس بشيء. فقيل: بل هو شيء. فهذا سائغ، وإن كان لا يُدعىٰ بمثل هذه الأسماء التي ليس فيها ما يدلُّ علىٰ المدح»[٢].

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٧٦، ٧٨).

(٢) «رسالة في العقل والرُّوح» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٤٦، ٤٧)، (مطبوعة ضمن الرسائل المنيرية).

فالذين خالفوا الحقَّ في هذا الباب هم بعض أهل الكلام، كما أشار لذلك شيخ الإسلام في النَّقل السابق، ومِن هؤلاء بعض المعتزلة وبعض الأشاعرة، وكذلك الكرَّامِيَّة.

أمَّا المعتزلة، فقد ذكر البغداديُّ أنَّ المعتزلة البَصرية أجازوا إطلاق الأسماء عليه بالقياس»[١].

وقال أبو الحسن الأشعري: «واختلفت المعتزلة، هل يجوز أن يسمىٰ البارئ عالمًا مَن استدل علىٰ أنه عالم بظهور أفعاله عليه، وإن لم يَأته السمع مِن قِبَل الله سبحانه؛ بأن يسميه بهذا الاسم أم لا، علىٰ مَقالتين:

فزعمت الفرقة الأولىٰ منهم: أنه جائز أن يسمي الله سبحانه عالمًا قادرًا حيًّا سميعًا بصيرًا مَن استدل علىٰ معنىٰ ذلك أنه يليق بالله وإن لم يأت به رسول.

وزعمت الفرقة الثانية: أنه لا يجوز أن يسمي الله سبحانه بهذه الأسماء من دَلَّه العقلُ علىٰ معناها إلا أن يأتيه بذلك رسولٌ مِن قِبَل الله سبحانه يأمره بتسميته بهذه الأسماء»[٢].

٢- وأما الأشاعرة، فإنَّ جمهورهم مع أهل السنة في كون أسماء الله توقيفية وكذلك الماتريدية، ولكن القاضي الباقلاني- من الأشاعرة- لا يَشترط التوقيف، واشترط أمرين هما:

١- أن يدل علىٰ مَعنىٰ ثابت لله تعالىٰ.

٢- ألَّا يكون إطلاقه موهمًا لما لا يليق بالله تعالىٰ[٣].

---

(١) «الفَرق بين الفِرَق» (ص ٣٣٧).

(٢) «مقالات الإسلاميين» (ص ١٩٧).

(٣) «شرح المقاصد» للتفتازاني (٤/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وتَوَقَّف الجُويني في هذه المسألة؛ فهو يَرىٰ أنَّ الجواز وعدمه حكمان شرعيَّان لا سبيل إلىٰ إطلاق أحدهما إلا بإذن الشرع، ولم يأت، ولذا قال بالتَّوَقُّف[(١)].

قال السَّفَّاريني: «الجمهور منعوا إطلاق ما لم يَأذن به الشرع مطلقًا، وجَوَّزه المعتزلة مطلقًا، ومال إليه بعضُ الأشاعرة؛ كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وتوقَّف إمامُ الحرمين الجوينىٰ...»[(٢)].

غير أنَّ مُعتقد أهل السنة في الأسماء والصفات قد قام علىٰ أساس وجوب الإيمان بما وردت به نصوصُ القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتًا ونفيًا.

وهذا الأساس لابد فيه من مراعاة ما يلي:

أولاً: أنَّ طلب العلم في المطالب الإلهية إنما يكون عن طريق الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة.

فالذي يجب اعتقاده هو أنَّ معرفة هذا النوع من أنواع التوحيد تتوقف علىٰ دراسة الكتاب والسُّنَّة؛ لأن هذا التوحيد يتطلب أسماء وصفات معينة، وهذه لا سبيل إلىٰ معرفتها والحصول عليها إلا من طريق الكتاب والسنة؛ «فنحن نؤمن بالله تعالىٰ وبما أخبر به عن نفسه سبحانه علىٰ ألسنة رسله من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ بلا تكييف ولا تمثيل، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته؛ فإنَّه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأبين دليلاً من غيره»[(٣)]، ولذلك كان معتقد أهل السنة هو الإيمان بما سمىٰ ووصف

(١) «الإرشاد» (ص ١٣٦، ١٣٧).

(٢) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٤).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

الله به نفسه إثباتًا ونفيًا؛ لأنه لا يُسَمِّي اللهَ أعلم بالله من الله، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ١٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فَاطِر: ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفُرقان: ٥٩]، فالله ﷻ هو الذي سَمَّىٰ ووصف نفسه بما جاء في نصِّ كلامه الذي هو القرآن.

ولا يُسَمِّي ويَصف اللهَ بعد الله أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال الله في حقِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجم: ٣-٤]، ولقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصلاً علىٰ وجه ثلجت به الصدور واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، وفَصَّلت ذلك أعظم مِن تفصيل الأمر والنهي، وقَرَّرته أكمل تقرير في أبلغ لفظ، ولذلك كان لزامًا علىٰ كل مسلم أن يؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.

ثانيًا: تقديم الشرع علىٰ العقل، فالأصل في الدين الاتباع والمعقول تَبع؛ فمعتقد أهل السنة في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام: أنَّ العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما المرجع في ذلك إلىٰ القرآن والسنة.

فالعقل لا يُمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالىٰ من الأسماء والصفات؛ فوجب الوقوف في ذلك علىٰ النص؛ لأن العقل يَقصر عن إدراك حقيقة المغيبات، حتىٰ وإن كانت تلك المغيبات أقرب شيء إليه، فهو قاصر عن أن يُحيط علمًا بحقيقة رُوحه التي بين جَنْبَيْه؛ لمَّا أخفىٰ الله أمرها عنه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، فإذا كان الإنسان يجهل أمر رُوحِه، فكيف يحيط علمًا بذات الله وما يَصلح

وما لا يَصلح لذاته من الأسماء والصفات، والله قد أخفىٰ عن الخلق كيفيَّة ذاته؟!

فمجمل القول: أن أهل السنة يعتقدون: أن باب الصفات كباب الأسماء يجب الاعتماد فيهما علىٰ ما جاء في الكتاب وما ثبت في السنة فقط.

وأن ما اتصف الله به من الصفات لا يُماثله فيها أحد من خلقه؛ فالله عز وجل قد أخبرنا بذلك بنصِّ كتابه العزيز حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فإذا ورد النص بصفة من صفات الله تعالىٰ في الكتاب أو السنة فيجب الإيمان بها، والاعتقاد الجازم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعُلو مما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فالشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فعلىٰ القلب المؤمن المصدق بصفات الله التي تَمَدَّح بها أو أثنىٰ عليه بها نبيُّه ﷺ: أن يكون مُعَظِّمًا لله جل وعلا غير مُتنجس بأقذار التشبيه؛ لتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات علىٰ أساس التنزيه؛ أخذًا بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

فالعارفون به سبحانه وتعالىٰ، والمصدقون لرسله، المُقِرُّون بكماله - يُثبتون لله جميع صفاته، وينفون عنه مشابهة المخلوقات؛ فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل؛ فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهُدًىٰ بين ضلالتين.

(١) انظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (ص ٢١، ٢٢).

وكذلك أهل السنة يُفَوِّضون علم كيفية اتصاف الباري ﷻ بتلك الصفات إليه جل وعلا؛ فلا علم للبشر بكيفية ذات الله تبارك وتعالىٰ، «ولا تفسير كُنه شيء من صفات ربنا تعالىٰ، كأن يقال: استوىٰ علىٰ هيئة كذا، وكلُّ مَن تجرأ علىٰ شيء من ذلك فقوله من الغُلو في الدين والافتراء علىٰ الله ﷻ، واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة، ولو كان ذلك مطلوبًا من العِباد في الشريعة لبَيَّنه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فهو لم يَدَع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بَيَّنه ووضحه، والعِباد لا يعلمون عن الله تعالىٰ إلا ما علَّمهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، فليؤمن العبد بما علمه الله تعالىٰ وليقف معه، وليمسك عما جهله ولْيَكِل معناه إلىٰ عالمه»(١).



(١) انظر: «معارج القبول» (١/ ٣٢٦، ٣٢٧).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَصْلٌ: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عز وجل مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِك.

فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (مُتَفَقٌ عَلَيْهِ).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهُ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

«وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». (حَدِيثٌ حَسَنٌ).

وقوله ﷺ: «يَضحَكُ اللهُ إلىٰ رَجلينِ يَقتُل أحدُهما الآخَرَ، كلاهما يَدخُل الجنَّة». مُتَّفقٌ عليه.

وقولُه ﷺ: «لا تزالُ جَهنَّمُ يُلقىٰ فيها، وهي تقول: هل مِن مَزيد؟ حتىٰ يَضَعَ ربُّ العِزَّة فيها رِجلَه»، وفي رواية: «عليها قَدَمَهُ، فيَنْزَوي بعضُها إلىٰ بعض، وتقول: قَطِ قَطِ». مُتَّفقٌ عليه.

وقوله: «يقولُ الله تعالىٰ يا آدمُ، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْديكَ، فيُنادي بصَوتٍ: إنَّ اللهَ يأمُركَ أنْ تُخرج من ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إلىٰ النَّار». مُتَّفقٌ عليه.

وقوله: «ما مِنكم من أحدٍ إلا سيُكَلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان».

وقوله في رُقْية المَريض: «ربَّنا اللهُ الذي في السماء، تَقدَّس اسمُك، أَمْرُكَ في السماء والأرض كما رَحْمَتُكَ في السماء، اجعَل رَحْمَتكَ في الأرض، اغفِرْ لنا حُوبَنا وخَطايانا، أنتَ ربُّ الطَّيِّبينَ، أنزِل رحمةً من رَحْمتكَ وشِفاءً من شِفائِك على هذا الوَجَع؛ فيَبْرأُ». حديث حَسَن، رواهُ أبو داود وغيرُه.

وقوله: «ألا تَأْمَنُوني وأنا أَمِينُ مَن في السماء». حديث صحيح.

وقوله: «والعرشُ فوقَ ذلك، واللهُ فوقَ العرشِ، وهو يَعلم ما أنتُم عليه». حديثٌ حسن، رواه أبو داود وغيرُه.

وقوله للجارية: «أينَ اللهُ؟». قالت: في السَّماء، قال: «مَنْ أنا؟»

قالت: أنتَ رسولُ الله، قال: «أَعْتِقْها فإنَّها مُؤْمِنة». رواه مسلم.

وقوله: «أفضَلُ الإيمانِ أنْ تعلَم أنَّ الله معكَ أيْنَما كنتَ». حديث حسن، أخرجه الطَّبرانيُّ من حديث عُبادة بن الصَّامت.

وقوله: «إذا قام أحدُكم إلى الصلاة فلا يَبصُق قِبَلَ وَجْهِه، ولا عن يَمِينه؛ ولكنْ عن يَسارِه أو تحتَ قَدَمِه». مُتَّفقٌ عليه.

وقوله: «اللهم ربَّ السموات السَّبْع وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء، فالِقَ الحَبِّ والنَّوى، مُنزِلَ التَّوراة والإنجِيل والقرآن، أعوذُ بكَ من شَرِّ نفسي ومن شَرِّ كلِّ دابَّة أنتَ آخِذٌ بناصِيَتها، أنتَ الأوَّل فليس قَبْلكَ شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَكَ شيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوقَكَ شيء، وأنت الباطِنُ فليس دُونَكَ شيءٌ؛ اقْضِ عنِّي الدَّيْن وأَغْنِني من الفَقْر». رواه مسلم.

وقوله لَمَّا رفَع الصَّحابةُ أصواتَهم بالذِّكر: «أيُّها النَّاس، ارْبَعوا على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُون أصمَّ ولا غائبًا؛ إنما تَدْعون سميعًا

بصيرًا قريبًا، إن الذي تَدْعون أقرَبُ إلىٰ أحدِكم من عُنُق راحِلَتِه». مُتَّفقٌ عليه.

وقوله: «إنَّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ القمَر ليلةَ البَدْر، لا تضامُّون في رُؤْيته؛ فإن استطَعْتم أنْ لا تُغلَبوا علىٰ صلاةٍ قبل طُلوع الشمس وصلاةٍ قبل غُروبها، فافْعَلوا»، مُتَّفقٌ عليه. إلىٰ أمثال هذه الأحاديث التي يُخبر فيها رسولُ الله ﷺ عن ربِّه بما يُخبِر به».

الشرح:

بعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عن سبيل المُرسلين، ومن ذلك: أنَّهم يَصفون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما وصف به نفسه في كتابه؛ ثم دَلَّل علىٰ ذلك بأمثلةٍ كثيرة من القرآن - بيَّنَ بعد ذلك أنه لا عدول لأهل السنة والجماعة كذلك عن وصف الله تعالىٰ بما وصفه به نبيه ﷺ في سُنَّته؛ إذ السُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ.

ثم أورد جملةً من الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ، وفيها بعض صفاتِ ربِّنا جل وعلا؛ لذا وَجَبَ الإيمَانُ بِهَا، علىٰ ما هو معتقد السلف في ذلك.

والقول الصَّحيح المشهور الذي عليه جمهور أهل السنة: هو أن المقصود بالسلف الصالح هم القرون الثلاثة المفضلة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية، حيث قال: «**خيرُ القرون القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يَلونهم**»[١]، فالسَّلف الصَّالح هم الصحابة والتَّابعون وتابعو التَّابعين، وكلُّ مَن سلك سبيلهم وسار علىٰ نَهجهم فهو سلفيٌّ نسبة إليهم.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥/ ١٩٩)، (١١/ ٤٦٠)، ومسلم (٧/ ١٨٤، ١٨٥).

والسَّلفية: هي المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ والقرون المُفَضَّلة من بعده والذي أخبر النبي ﷺ بأنه باق إلىٰ أن يأتي أمر الله، لحديث: «**لا تَزال طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ لا يَضرهم مَن خذلهم، حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك**»[١].

فيَصح الانتساب إلىٰ هذا المنهج متىٰ التزم الإنسان بشروطه وقواعده، فكل مَن حافظ علىٰ سلامة العقيدة طبقًا لفهم القرون الثلاثة المفضلة فهو ذو نهج سلفي.

ويمكن حصرُ ركائز وقواعد المنهج السلفي علىٰ سبيل الاختصار في النقاط التالية:

أولًا: ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها.

ثانيًا: التقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وذلك يتم بـ:

أ- الاجتهاد في تمييز صحيحِه مِن سَقِيمه.

ب- الاجتهاد في الوقوف علىٰ معانيه وتفَهُّمِه[٢].

ثالثًا: العمل بذلك والاستقامة عليه اعتقادًا وتفكيرًا وسلوكًا وقولًا، والبعد عن كل ما يخالفه ويناقضه.

رابعًا: الدعوة إلىٰ ذلك باللِّسان والبَنان.

فمن التزم هذه القواعد في الاعتقاد والعمل فهو علىٰ النَّهج السلفي بإذن الله.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٥٢٣).

(٢) «بيان فضل السلف علىٰ الخلف» لابن رجب (ص ١٥٠- ١٥٢)، و«أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (١/ ٩، ١٠).

د- الأدلة علىٰ وجوب اتباع السلف الصالح ولزوم منهجهم:

أولاً: من القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فرضي ﷻ عن السَّابقين الأولين رضاءً مطلقًا، ورضي عن التابعين لهم بإحسان، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فتوَعَّد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد في الآية السابقة متبعهم بالرضوان.

ثانيًا: الأدلة من السنة:

١- قوله ﷺ: «**خيرُ النَّاس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم**»(١).

فهذه (الخيرية) التي شهد النبي ﷺ بها لهذه القرون الثلاثة تدل علىٰ تفضيلهم وسبقهم وجلالة قدرهم وسَعة عِلمهم بشرع الله، وشدة تمسكهم بسنة رسوله ﷺ، وهذا ما تؤكده الأحاديث التالية.

٢- قوله ﷺ: «**افترقت اليهودُ علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وافترقت النَّصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النَّار إلا واحدة**». قيل: مَن هي يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري ٥/١٩٩، ٧/٦، ١١/٤٦٠، وأخرجه مسلم ٧/١٨٤، ١٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٥٩٦، ٤٥٩٧، والترمذي ٢٦٤٠، ٢٦٤١، والإمام أحمد ٢/٣٣٢، ٣/١٢٠، ١٤٥، ٤/١٢٠، وابن ماجه ٣٩٩١- ٣٩٩٣.

الله؟ قال: «**مَن كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، حديث صحيح مشهور[1].

٣- قوله ﷺ: «**...فإنَّه مَن يَعِش بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المَهديين مِن بعدي؛ فتمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[2].

فحَثَّ ﷺ بأن يتَّبعوا سنته وسنة من بعده من الخلفاء الراشدين، عند وقوع التفرق والاختلاف.

ثالثًا: من أقوال السلف الصالح وأتباعهم:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّا نَقتدي ولا نَبتدي، ونَتَّبع ولا نبتدع، ولن نَضل ما تمسكنا بالأثر»[3].

وعنه رضي الله عنه قال: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفِيتم»[4].

وقال الأوزاعي: «اصبر نفسك علىٰ السُّنَّة، وقِفْ حيث وَقَفَ القومُ، وقل بما قالوا، وكُفَّ عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنَّه يَسعك ما وسعهم»[5].

وقيل لأبي حنيفة رحمه الله: «ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟

قال: مقالات الفلاسفة، عليكَ بالأثرِ وطريقة السَّلَف، وإيَّاك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/١٢٦، ١٢٧، وأبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، والدارمي ١/ ٤٤، وغيرهم.

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (ح١١٥).

(٣) «البدع والنهي عنها» لابن وضَّاح ص١٣.

(٤) «الشريعة» للآجري ص ٥٨.

(٥) «صون المنطق» للسيوطي ٣٢٢.

وكلَّ محدثة؛ فإنها بدعة»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والواجب علىٰ كل مسلم يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله: أن يكون أصلُ قصده توحيد الله بعبادته وحدة لا شريك له وطاعة رسوله، يدور علىٰ ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقًا عامًّا إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًّا إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين. فإن الهدي يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يجمعوا علىٰ خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يُجمعون علىٰ خطأ، بل كل ما قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ، فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلىٰ عالم واحد وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله ﷺ، وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولابد أن يكون الصحابة والتابعون يَعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحقٍّ يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم عَلِم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا علىٰ ضلالة، فلابد أن يكون قوله - إن كان حقًّا - مأخوذًا عما جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قيل في دين الإسلام، مخالف لما مضىٰ عليه الصحابة والتابعون - لم يَقله أحدٌ منهم بل قالوا خلافه -

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٦٢-٢٦٣.

فإنَّه قول باطل»(١).

فأصول أهل السنة والجماعة تقوم من حيث التأصيل علىٰ اعتماد الكتاب والسنة باعتبارهما الأصل في كل أمور الدِّين؛ سواء كانت تلك الأمور تتعلق بباب الاعتقاد أو بغير ذلك من أبواب الدِّين.

فصاحب السُّنَّة يُؤمن بأنَّ النبي ﷺ قد قال **«تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»**(٢).

ويعلم أن السنة مصدر من مصادر التشريع في هذا الدِّين، وهي -كما قال المصنف-: «تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ».

فالسُّنَّةُ مُفَسِّرة ومُبينة ودالَّة ومُعبرة عمَّا جاء في القرآن.

وقد ترد بعض أمور الدين في القرآن، ولا ترد في السُّنَّة، وقد ترد في السنة ولا تَرد في القرآن، أو تَرِدُ فيهما معًا.

فصاحب السُّنَّة يُؤمن أن هذا هو الأصل والمَصدر، ولا شكَّ أن في الاعتماد علىٰ هذين الأصلين الفلاح والنجاح، وهذا لا يتَّضح إلا إذا نظرنا إلىٰ أصول أهل الباطل وما اعتمدوا عليه.

فمن أهل الباطل مَن اعتمد علىٰ ما يُسمونه بـ(المعقولات)؛ فاعتمدوا علىٰ عقولهم وعلىٰ أفهامهم، وقَدَّسوا تلك المعقولات وتلك الفُهوم، وقَدَّموها علىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ثم طَعنوا في كلام الله وفي كلام رسوله؛ فما استطاعوا أن يَطعنوا فيه ثبوتًا فعلوا ذلك، وما استطاعوا أن يطعنوا فيه دلالة فعلوا ذلك.

وفئة أخرىٰ منهم تعتمد علىٰ الرُّؤىٰ والمنامات، ويُسمونه (العلم

(١) رواه مالك بلاغًا (٢/ ٨٩٩) (٣٣٣٨)، وقال ابن عبد البر رحمه الله في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣١): «وهذا محفوظٌ معروفٌ مشهورٌ عن النَّبيِّ؟ عند أهل العِلمِ، شُهرَةً يكاد يُستَغنَىٰ بها عن الإسنادِ، وروي في ذلك من أخبار الآحاد أحادِيثُ مِن أحاديث أبي هريرة وعمرو بن عوف»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

اللدني).

إلىٰ غير ذلك من الخزعبلات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ فضلَّ هؤلاء وأولئك عن سبيل الله عز وجل وأَضَلُّوا.

أمَّا صاحب السنة فهو يعلم أن السنة كالقرآن من حيث الاعتماد في التشريع؛ فيؤمن بكل ما جاء في السنة الصحيحة؛ لأنها وحي من الله عز القائل في حق نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النّجم: ٣-٤].

فالسنة جاءت بإثبات العديد من الصفات أورد المصنف هنا جملة منها:

فقال: «**وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عز وجل مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإيمَانُ بِهَا كَذَلِك**».

وهو هنا يُؤصل لمسألة: أنَّ ما جاءت به السنة الثابتة الصحيحة

فشأنه كشأن القرآن من حيث الاعتقاد، وأما الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة، فهذا لا يُحتج به في باب الاعتقاد.

والنصوص قد جاءت بجملة من هذه الصفات التي إما أن تكون وردت في القرآن أو تكون قد وردت في السنة، ويجب أن نتعامل مع ما ورد من الصفات في نصوص السنة الصحيحة، كما تعاملنا مع ما ورد منها في نصوص القرآن.

كقَوْلِهِ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ...**» الحديث، متفق عليه[1]، وغير هذا الحديث من أحاديث النزول الثابتة الصحيحة، التي قال عنها العلماء: «إنها قد بلغت حدًّا في التواتر،

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقد رواه أكثر من عشرين من الصحابة.

فقد قال شيخُ الإسلام: «إن حديث النُّزول مُتواتِر»[(١)].

وقال العلَّامة ابن القيِّم: «وتَواترتِ الرِّواية عن رسول الله ﷺ بنُزول الربِّ - تَبارك وتَعالىٰ - كلَّ ليلة إلىٰ سماءِ الدنيا»[(٢)].

وقال أيضًا: «إن نُزول الربِّ تبارك وتعالىٰ إلىٰ سماءِ الدُّنيا قد تَواترتِ الأخبارُ به عن رسول الله ﷺ؛ رواهُ عنه نحوُ ثمانيةٌ وعشرون نَفْسًا من الصَّحابة»[(٣)].

وقال اللَّالكائيُّ: «سِياق ما رُوِيَ عن النَّبي ﷺ في نُزول الربِّ - تبارك وتعالىٰ - رَواه عن النَّبي ﷺ عشرون نَفْسًا»[(٤)].

وقد أجمع سلَفُ الأمَّة علىٰ إثبات صِفة النُّزول؛ فقد سُئل شيخ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ عن رَجُلين أحدهما مُثبِت للنُّزول ومُستدِل بالحديث الوارد في ذلك، والآخر نافٍ للنُّزول، فقال: «الحمدُ لله ربِّ العالَمين، أما القائِلُ الأول الذي ذكَر نصَّ النَّبي ﷺ، فقد أصابَ فيما قال؛ فإن هذا القول الذي قاله قدِ استَفاضتْ به السُّنَّة عن النَّبي ﷺ، واتَّفقَ سلَفُ الأمة وأئمتُها وأهل العلم بالسُّنة والحديث علىٰ تَصْديق ذلك وتَلقِّيه بالقَبول»[(٥)].

ونقَل رَحِمَهُ اللهُ **عن أبي عمرٍو الطَّلَمَنْكيِّ قولَه**: «وأجمَعوا علىٰ أن الله يَنزِل كلَّ ليلة إلىٰ سماءِ الدُّنيا علىٰ ما أتتْ به الآثارُ كيف شاء»[(٦)].

---

(١) «شرح حديثِ النُّزول» (ص١٠٢، ١٠٣).

(٢) «مُختصَر الصَّواعق المرسلة» (ص٤٣٠).

(٣) «مُختصَر الصَّواعق المرسلة» (ص٤٢٣).

(٤) «أصول اعتِقاد أهل السُّنَّة والجَماعَة» (٣/ ٤٣٤).

(٥) «مَجموع الفَتاوىٰ» (٥/ ٣٢٢).

(٦) انظر: «مَجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٣٢٢) (٥/ ٥٧٨).

وقد قال الشيخ ابن عثيمين عن حديث النزول: «هذا الحديث حديث عظيم ذكر بعض أهل العلم أنه بلغ حَدَّ التواتر عن النبي ﷺ، ولا شكَّ أنه حديث مُستفيض مشهور، وقد شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بكتاب مُستقل(1)؛ لما فيه من الفوائد العظيمة»(2).

وهكذا أورد أحاديث أخرىٰ مثل قوله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ..**»، الحديث، ففيه أثبت صفةَ الفرح لله عز وجل.

وَكذلك قَوْلُهُ ﷺ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**»، وفيه أثبت صفة العَجَب والضحك.

وغير ذلك من الصفات التي جاءت في هذه الأحاديث، وجاءت في غيرها من أحاديث السُّنَّة الصحيحة.

قال العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله: «قال أبو العباس بن سُرَيج: وقد صَحَّ عن جميع أهل الدِّيانة والسُّنَّة إلىٰ زماننا: أنَّ جميعَ الآثار والأخبار الصَّادِقة عن رسول الله ﷺ في الصِّفات، يجب علىٰ المُسلم الإيمانُ بها، وأن السُّؤال عن معانيها بِدْعَة، والجواب كُفْر وزَنْدقة، مثل قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ونظائرها مِما نطَق به القرآنُ كالفَوْقِيَّة والنَّفْس واليَدَين والسَّمع والبصر وصُعود الكلام الطيِّب إليه والضَّحِك والتَّعجب والنُّزول كلَّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا»(3).

وقد ذكر رحمه الله **أن ابن عبد البَرِّ نقل أن** «أهل السُّنَّة مُجمِعون علىٰ

---

(1) يقصد كتابه: «شرح حديثِ النُّزول».

(2) «مجموع رسائل وفتاوىٰ العثيمين» (١/ ٢٠٣).

(3) «مُختصَر الصَّواعق» (ص٤٤٥).

الإقرار بالصِّفات الوارِدة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحَملِها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المَجاز؛ لأنهم لا يُكيِّفون شيئًا من ذلك»[(١)].

ثم قال: «وقال الخَلَّال: أخبَرني عليُّ بن عيسىٰ أن حَنْبلًا حدَّثهم قال: سألتُ أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروىٰ أن الله ﷻ يَنزِل إلىٰ سماء الدُّنيا، وأن الله يُرىٰ، وأنَّ الله يضَع قدَمه... وما أشبه ذلك! فقال أبو عبد الله: نُؤمِن بها ونُصدِّق بها، ولا كَيْفَ ولا مَعنىٰ، ولا نَرُدُّ منها شيئًا، ونَعلم أنَّ ما جاء به الرَّسُولُ حقٌّ إذا كانت بأسانيدَ صِحاحٍ».

فقول أهل السنة في الصفات مبنيٌّ علىٰ أصلين:

أحدهما: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ منزه عن صفات النقص مطلقًا؛ كالسِّنَة والنوم والعجز والجهل وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها علىٰ وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يُماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات»[(٢)].

«وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء وباب الصفات إطلاقًا، وأما في باب الأخبار فمن السلف من يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حقًّا يليق بالله تعالىٰ فهو مقبول، وإن أراد به معنىٰ لا يليق بالله ﷻ وجب ردُّه»[(٣)].

ثم لا نخوض في كيفية اتصاف الله ﷻ بتلك الصفة.

---

(١) «مُختصَر الصَّواعق» (ص٤٤٦).

(٢) «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٣).

(٣) «رسالة في العقل والروح» (٢/ ٤٦، ٤٧) لابن تيمية، (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية).

فإيماننا بهذه الصفة إيمان وجود؛ فنعلم أن هذه الصفة حقيقية، وأن الله متصف بها حقيقة دون الخوض في كيفية اتصافه جل وعلا بها.

فالصفات التي ذكرها المصنف هنا هي من باب الاستدلال على جانب التأصيل لهذه المسألة، وسيأتي بعد ذلك جانب التقرير عند كلامه عن صفة العلو وعن صفة الكلام.

فإيراد المصنف هنا من باب التأصيل: أنَّ هذه الأسماء وهذه الصفات جاءت في القرآن والسنة لذا وجب الإيمان بها.

كما قال قبلُ: «**ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسَه في كتابه، وما وصفه به رسوله مُحمد ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ**».

وبعد أن أورد نصوصًا من الكتاب ونصوصًا من السنة على إثبات هذه الصفات - عاد فقال: «**فإنَّ الفِرقة الناجِية أهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة، يُؤمنون بما أخبَر اللهُ به في كتابه من غير تَحريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومن غير تَكْييف ولا تَمثيل**».

فكما نعتمد القرآن أصلًا في هذا الباب (باب الأسماء والصفات)، كذلك نعتمد السنة الصحيحة أصلًا فيه؛ فنؤمن بها ونَقبلها ولا نردُّها، ولا نسعى في تعطيل نصوصها ولا تحريفها ولا الخوض في تكييفها أو تمثيلها.

فإن قيل: ما الأصل عند أهل السنة في هذا الباب؟

نقول: الأصل فيه عندهم أنهم يؤمنون بكل ما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي من أسمائه تعالى وصفاته مِن غير تَحريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومن غير تَكْييف ولا تَمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وطريقة سلف الأمة وأئمتها:

أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات؛ قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذا ردٌّ علىٰ الممثلة. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ المُعَطِّلَة»[(١)].

فعمدتهم فيه إثباتًا ونفيًا: الكتاب والسنة.

فهم أبعد الناس عن التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل. فكل هذا أهل السنة منه بَرَاء ولو حاول مَن حاول أن يُنَفِّر عنهم بادعاءات باطلة؛ كقولهم: إنهم مجسمة، أو حشوية، أو مُشبهة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة»[(٢)].

فأهل السنة لم يتجاوزوا القرآن والسنة، وما جاءوا بشيء من كِيسهم، وإنما هي نصوص وردت في القرآن والسنة، كما قال وهب للجعد بن درهم: «ويلك يا جعد، أقصر المسألة؛ إني لأظنك من الهالكين، لو لم يُخبرنا الله في كتابِه أنَّ له يدًا ما قلنا ذلك، وأنَّ له عينًا ما قلنا ذلك»[(٣)].

فسلك أهل السنة في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة؛ فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات؛ فيجب بذلك إثباتها.

وأمَّا النفي فهو أن يُنفىٰ عن الله عَزَّ وَجَلَّ كل ما يضاد كماله من أنواع

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٥٢٣).

(٢) «الفتوىٰ الحموية» (ص٦١)، دار فجر التراث.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ١٤٩)، وانظر: «مقالة التعطيل والجعد بن درهم» (ص١٧٠) للشارح.

العيوب والنقائص، مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضِدِّ ذلك المنفي.

قال ابن القيم: «فله مِن كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىٰ وأبعده عن شائبة عيب أو نقص. فله مِن صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه. والسميع البصير، دون السامع والباصر والناظر...»(١).

ومجمل القول أن أهل السنة يعتقدون: أن باب الصفات كباب الأسماء يجب الاعتماد فيهما علىٰ ما جاء في الكتاب وما ثبت في السنة فقط.

وأن ما اتصف الله به من الصفات لا يُماثله فيها أحد من خلقه؛ فالله ﷻ قد أخبرنا بذلك بنص كتابه العزيز حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فإذا ورد النص بصفة من صفات الله تعالىٰ في الكتاب أو السنة فيجب الإيمان بها، والاعتقاد الجازم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو مما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فالشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فعلىٰ القلب المؤمن المصدق بصفات الله التي تَمَدَّح بها أو أَثنىٰ عليه بها نبيُّه ﷺ: أن يكون مُعَظِّمًا لله جل وعلا غير متنجس بأقذار التشبيه؛ لتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات علىٰ أساس التنزيه؛ أخذًا بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢).



---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٨).

(٢) انظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (ص ٢١، ٢٢).




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإنَّ الفِرقة الناجِية أهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة، يُؤمنون بما أخبَر الله به في كتابه من غير تَحريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومن غير تَكْييف ولا تَمثيل.

بل هُم الوَسَطُ في فِرَق الأُمَّة، كما أنَّ الأُمَّةَ هي الوَسَطُ في الأُمَم.

فهُم وسَطٌ في باب صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين أهلِ التَّعْطِيل الجَهْميَّة وأهل التَّمْثِيل المُشبِّهة، وهم وسَطٌ في باب أفعال الله بين الجَبْريَّة والقَدَريَّة وغيرِهم، وفي باب وعيدِ الله بين المُرجِئة والوَعِيديَّة من القَدريَّة وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدِّين بين الحَرِوريَّة والمُعتَزِلة وبين المُرجئة والجَهْميَّة، وفي باب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الرَّافِضة والخَوارِج».

الشرح:

أمة الإسلام وسط بين الأمم، والمقصود بالأمم: أهل الكتاب (اليهود والنصارىٰ).

فمثلًا في باب الصفات: اليهود وصفوا الله بصفات النقص، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، والنَّصارىٰ وصفوا المخلوق بصفات الخالق، فأعطوا المخلوق (عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ) - بل وأحبارهم ورهبانهم - بعض خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما أهل الإسلام فهم الذين وَحَّدوا الله عَزَّ وَجَلَّ، ووصفوه بما يليق

بجلاله سبحانه وتعالى، ووصفوه بالكمال التي لا يُماثله فيه أحد من خلقه، وكذلك لم يُعطوا المخلوق بعض صفات الخالق؛ فكانوا وسطًا في هذا الباب.

كذلك ما يتعلق بالأنبياء: اليهود قتلوهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨١]، وكذلك تنقَّصُوهم، وفي التوراة المحرفة وصفوهم بأمور يترفع عنها أقل الناس قدرًا.

وأمَّا النَّصارىٰ فعبدوهم من دون الله عز وجل، بل جعلوا الحواريين - الذين ليسوا بأنبياء ولا رسل - جعلوهم رسلًا، وتجاوزوا بهم القَدْر.

فاليهود تنقصوا والنصارىٰ غَلوا.

وفي جانب الشَّرائع: اليهود أهل كذب وباطل وشهوات، فتجد أنهم حتىٰ في الشرائع مُفَرِّطون، حتىٰ في السَّبت الذي زعموا أنهم لا يعملون فيه، ويتفرغون للعبادة - قضوه في شهواتهم.

واليهود حَرَّموا علىٰ أنفسهم طيبات أُحِلَّت لهم، والنصارىٰ لا يحرمون ما حرَّم الله؛ بل يستحلون الخبائث؛ كالميتة والدم ولحم الخنزير، فيعلمون أن هذا لا يجوز في شريعتهم، ومع ذلك يستبيحونه.

فاليهود مُتحللون من الشَّرائع، **والنَّصارىٰ** ابتدعوا الرهبانية، وجاءوا بأمور ما شرعها الله عز وجل.

فحصل ضلالٌ مِن هؤلاء وهؤلاء.

فاليهود مكذبون للحق، والنَّصارىٰ ضُلَّال يعبدون الله عز وجل بغير علم.

وأهل الإسلام اتبعوا ما شرع الله، ولم يشرعوا في دينه ما لم يأذن به عز وجل.

فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

والشاهد - كما ذكر المصنف- أن الأُمَّة وَسَط في الأُمَم.

فهذه الأمة قد اختارها الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وجعلها أمة وسطًا، قال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، وبالتالي توسطوا فما فعلوا كاليهود ولا فعلوا كالنصارىٰ، لذلك قال الله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧]؛ فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضَّالُّون هم النَّصارىٰ.

قال ابن القيم رحمه الله: «فَذكر الْهِدَايَة وَالنعْمَة وهما الْهدىٰ والفلاح، ثمَّ قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَذكر المغضوب عَلَيْهِم وهم أهل الشَّقَاء، والضَّالِّين وهم أهل الضلال، وكل من الطَّائِفَتَيْنِ لَهُ الضلال والشقاء، لَكِن ذكر الوصفين مَعًا لتكن الدّلَالَة علىٰ كلٍّ مِنْهُمَا بِصَرِيح لَفظه، وأيضًا فَإِنَّهُ ذكر ماهو أظهر الوصفين فِي كل طَائِفَة، فَإِن الْغَضَب علىٰ الْيَهُود أظهر لعنادهم الْحق بعد معرفته، والضلال فِي النَّصَارَىٰ أظهر لغَلَبَة الْجَهْل فيهم»[١].

وهذا معلوم لمن تتبع حال اليهود والنصارىٰ وحال الأمة، يجد البون شاسعًا بينها.

فأمة الإسلام هي أمة وسط بين الأمم.

فهم وسط بما يتعلق بالإيمان بالله ﷻ، وبما يتعلق بالأنبياء، وبما يتعلق بالشرائع.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٨).

وكما أن الأمة وسط بين الأمم فكذلك أهلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ بين الفرق، وقد بين المصنف هنا أنها وسط في عدة مسائل؛ منها ما يتعلق بصفات الله ﷻ، وما يتعلق بأفعال الله ﷻ (باب القدر)، ثم باب الوعد والوعيد وما يتعلق بحكم مرتكب الكبيرة ثم بعد ذلك جاء إلىٰ باب الإيمان.

أولًا: في باب الصفات:

قال المصنف: «فهُمْ وسطٌ في باب صِفات الله سبحانه وتعالى **بين أهل التَّعْطِيل الجَهْمية وأهلِ التَّمْثِيل المُشبِّهة**».

فأهل التَّعْطِيل علىٰ قسمين:

القسم الأول: الفلاسفة:

فالفلاسفة سلكوا مسلكًا في التعطيل يقوم علىٰ أساس التخييل؛ فنفوا اتصاف الله بهذه الصفات جملة وتفصيلًا، وقال مَن قال من الفلاسفة: إن هذا مجرد وهم وتخييل، وأن هذا خطاب للعوام، وأما الخواص فهم في غنىٰ عنها وهم في الأصل يقولون: إن النبوة اكتساب.

القسم الثاني: أهل الكلام، الذين لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات التي لا وجود لها إلا في أفهامهم الفاسدة.

فعقيدة هؤلاء المعطلة جمعت بين التمثيل والتعطيل، وهذا الشر إنَّما جاء من تنجس قلوبهم وتدنسها بأقذار التشبيه، فإذا سمعوا صفة من صفات الكمال التي أثنىٰ الله بها علىٰ نفسه؛ كاستوائه علىٰ عرشه ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك من صفات الجلال والكمال.

فإن أول ما يخطر في أذهانهم أن هذه الصفة تشبه صفات الخلق؛ فيتلطخ القلب بأقذار التشبيه؛ فلم يقدر الله حقَّ قدره، ولم

يُعَظِّم الله حقَّ عظمته؛ حيث سبق إلىٰ ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولاً نجَّس القلب بأقذار التشبيه، ثم دعاه ذلك إلىٰ أن ينفي صفة الخالق جلَّ وعلا عنه بادِّعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون فيها أولاً مشبهًا، وثانيًا معطلاً ضالًّا ابتداءً وانتهاءً متهجمًا علىٰ ربِّ العالمين يَنفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق[(١)].

وأمَّا عقيدة أهل التمثيل: فهي تقوم علىٰ دعواهم أن الله ﷻ لا يخاطبنا إلا بما نَعقل، فإذا أخبرنا عن اليد فنحن لا نعقل إلا هذه اليد الجارحة؛ فشَبَّهوا صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقالوا: له يد كيدي، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

لذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومِن الإلحاد في أسمائه: تشبيه صفاته بصفات خلقه - تعالىٰ الله عما يقول المشبِّهون علوًّا كبيرًا - فهذا الإلحاد في مقابل إلحاد المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شَبَّهوها بصفات خلقه، فَجَمَعَهُم الإلحادُ وتفرَّقت بهم طُرُقُه، وبرَّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يَصفوه إلا بما وصف به نفسه، لم يجحدوا صفاته، ولم يُشبهوها بصفات خلقه، ولم يَعدلوا بها عما أُنزِلَت عليه لفظًا ولا معنىٰ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات؛ فكان إثباتهم بريًّا من التَّشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شَبَّه حتىٰ كأنه يَعبد صنمًا، أو عَطَّل حتىٰ كأنه لا يعبد إلا عدمًا، وأهل السنة وسطٌ في النِّحَلِ، كما أنَّ أهل الإسلام وسطٌ في المِلل»[(٢)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هدىٰ الله أصحاب سواء السبيل للطريقة

---

(١) انظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (ص ١٩، ٢٠).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٠).

المُثلىٰ فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات؛ فكان مذهبهم مذهبًا بين مذهبين، وهدىٰ بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين، كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشَّاربين، وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات ونفي مشابهة المخلوقات؛ فلا نُعطل ولا نؤول، ولا نُمَثِّل ولا نجهل، ولا نقول: ليس لله يدان ولا وجه ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ولا استوىٰ علىٰ عرشه، ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستوىٰ كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم، بل نقول: له ذات حقيقة ليست كالذوات، وله صفات حقيقة لا مجازًا ليست كصفات المخلوقين»[1].

فأهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة قد جعلوا هذا الباب قائمًا علىٰ أُسُس ثلاثة:

الأول: إثبات بلا تَمْثيل.

الثاني: تَنْزِيه بلا تَعْطيل.

الثالث: قَطْعُ الطَّمَع عن إدراك كيفية اتصاف الله ﷻ بها؛ لأنَّ اللهَ أخبَرنا عن صفاته ولم يُخبِرنا عن كيفية صِفاته.

فيُؤمن أهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة بما وصَف اللهُ به نفسَه، وما وصَفهُ به رسولُ الله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

---

(١) «الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة»، لابن القيم (٢/ ٤٢٥، ٤٢٦)، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

ثانيًا: في باب أفعال الله:

قال المصنف: «وهم وسَطٌ في باب أفعال الله بين الجَبْرِيَّة والقدَرية وغيرهم».

قد ضَلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلىٰ يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر علىٰ أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَح شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذا في «مَجموع الفَتاوىٰ» فقال: «وهم في باب خَلقِ الله وأمرِه وسطٌ بين المُكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشِيئته الشاملة وخَلقِه لكل شيء، وبين المُفسدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِيئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِيرون بمَنزِلة المُشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّنَّة بأنَّ الله علىٰ كل شيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شيء من الأعيان والصِّفات والحَركات.

ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مَجْبورًا؛ إذ المَجْبور مَن أُكْرِه علىٰ خلاف اختِياره، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله»[١].

---

(١) «مَجموع الفَتاوىٰ» (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

وقال العلَّامة السِّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهم وسطٌ في باب أفعال الله بين الجبريَّة والقَدَرية؛ فإن الجبرية يَزعمون أن العبد مَجْبُور على أفعاله لا قُدْرة له عليها، وأن أفعاله بمَنزِلة حرَكات الأشجار، وكل هذا غُلوٌّ منهم في إثبات القدَر.

والقدريَّةُ قابَلوهم فنَفَوْا مُتعلق قدرة الله بأفعال العباد تنزيهًا لله- بزَعْمهم.

فأفعالُ العباد عندهم لا تَدخُل تحت مشيئة الله وإرادته، وكلٌّ مِن هاتين الطائِفتين ردَّتْ طائفةً كبيرة من نصوص الكتاب والسُّنة.

وهدَىٰ الله أهلَ السُّنَّة والجَماعَة للتوسُّط بين الطائفتين المُنحرفتينِ، فآمَنوا بقضاء الله وقدَره وشُمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي مِن جُملتِها أفعالُ المُكلَّفين وغيرهم، وآمَنوا بأنه ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالىٰ جعَل للعِباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالُهم وأفعالهم علىٰ حسب اختِيارهم وإرادتهم، فآمَنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشيئة، وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهم، وعَلِموا أن الأمرينِ لا يَتنافيانِ»[(١)].

ثالثًا: في باب الوعيد:

قال المصنف: «وفي بابِ وَعِيد الله بين المُرْجِئة والوَعِيديَّة من القَدريَّة وغيرِهم».

الوَعِيديَّةُ من المُعتَزِلة والقدرية والخَوارج قالوا: إن مَن تَوعَّده اللهُ علىٰ ذنبٍ فلا بد من إنفاذِ ذلك الوعيد، ولا يجوز إخلافُ ذلك علىٰ

(١) «التنبيهات اللطيفة» (ص٦١، ٦٢).

الله ما لم يَتُبْ فاعِلُه في الدُّنيا، وحكَموا علىٰ مُرتَكِب الكبيرة - إن لم يتب منها - بالخُلود في النار؛ فكفروا بالمعاصي، وأوجبوا الوعيد.

وجاءت المُرْجِئة علىٰ نقيضهم فقالوا: إن إيمانَ الفُسَّاق مثل إيمان الأنبياء، وإن الأعمال الصَّالحة ليست من الدِّين والإيمان، وكَذَّبوا بالوعيد والعِقاب.

وكلاهما جانَبَ الحق والصواب وما وُفِّق للجَمْع بين النصوص، وما فَقُه طريق السَّلف الصالح من الصَّحابة ومَن تَبِعهم بإحسان.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ: «وهم-أهل السُّنَّة- في باب الأسماء والأحكام والوَعْد والوَعِيد وسَطٌ بين الوَعِيدية الذين يَجعلون أهلَ الكبائر من المسلمين مُخلَّدين في النار، ويُخرجونهم من الإيمان بالكُليَّة، ويُكذِّبون بشفاعة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبين المُرْجِئة الذين يقولون: إيمان الفُسَّاق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصَّالحات ليست من الدِّين والإيمان، ويُكذِّبون بالوعيد والعِقاب بالكُليَّة.

فيُؤمِن أهل السُّنَّة والجَمَاعَة بأن فُسَّاق المسلمين معهم بعضُ الإيمان وأصلُه، وليس معهم جميعُ الإيمان الواجِب الذي يَستوجبون به الجنة، وأنهم لا يُخلَّدون في النار؛ بل يَخرج منها من كان في قلبه مِثقالُ حبَّة من إيمان أو مِثْقال خَرْدَلة من إيمان، وأن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّخَر شفاعَتهُ لأهل الكبائِر من أمَّته»[١].

فأهلُ السُّنَّة والجماعة لا يُوجبون العذابَ في حقِّ كلِّ مَن أتىٰ كبيرةً، ولا يَشهدون لمُسلم بعَيْنِه بالنار لأَجْلِ كبيرةٍ واحدة عَمِلَها، بل

(١) «مَجموع الفَتاوىٰ» (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

يجوزُ عندهم أن صاحِبَ الكبيرة يُدخِلُه اللهُ الجنةَ بلا عذابٍ؛ إما لحَسناتٍ تَمْحُو كبيرتَه منه أو من غيره، وإما لمَصائِبَ كفَّرَتْها عنه، وإما لدُعاءٍ مُستَجاب منه أو من غيره فيه، وإما لغير ذلك(١).

فهم بذلك قد توسطوا بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وبين الوعيدية (الخوارج والمعتزلة)؛ فالخوارج يقولون: هو كافر في الدنيا، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، ويتفقون علىٰ أنه في الآخرة خالد مخلد في النار.

رابعًا: في أسماءِ الإيمان والدِّين:

قال المصنف: «وفي باب أسماءِ الإيمان والدِّين بين الحَرُوريَّة والمُعتَزِلة وبين المُرْجِئة والجَهْمِيَّة».

المراد بالأسماء هنا: أسماء الدِّين مثل؛ الإيمان، والإسلام، والكفر، والفسق. والمراد بالأحكام: أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة.

وقد نشأ نزاع قديم بين طوائف الأمة في حقيقة هذه الأسماء، وهل تزيد وتنقص، وهل تتبعض أم لا؟

يقول محمد باكريم: «الخلاف في هذا الباب قديم؛ فهو من أوائل ما حصل فيه النزاع بين الفرق المنتمية إلىٰ الإسلام، وأول من أظهر الخلاف في ذلك وخالف جماعة المسلمين الخوارج، ثم قابلهم المرجئة، ثم خرجت المعتزلة وجاءوا في هذا بما لم يأت به أولئك، والجميع دائر بين إفراط وتفريط.

ولما كان ديدن أهل السنة هو التمسك بكتاب الله عز وجل، وسنة

---

(١) انظر «مَجموع الفَتاوىٰ» (١٢/ ٤٧٩- ٤٨٣).

رسوله ﷺ، والقول بما دلَّا عليه وأَدَّيا إليه؛ فقد جاء قولهم في هذا الباب وسطًا بين إفراط الخوارج وأهل الاعتزال وتفريط أهل الإرجاء»[١].

فالإيمان عند المعتزلة والخوارج: قولٌ وعمل وعقيدة، ولكنه لا يزيد ولا ينقص، وعندهم أن الإنسان إذا ترك واجبًا؛ فإنه يكون خارجًا من الدين.

والمعتزلة لا يدخلونه في الكفر، والخوارج يدخلونه في الكفر ويخرجونه من الدين، أما المعتزلة فهم يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر.

فالمعتزلةُ قالوا: إنَّ أصحابَ الكبائرِ لا مُسلمونَ ولا كفارَ، بل هم في منزلةٍ بينَ المَنزلتينِ، واتَّفقوا معَ الخوارجِ في الحكمِ الأُخرويِّ علىٰ صاحبِ الكبيرةِ: أنَّهُ مُخَلَّدٌ في النارِ.

وهذه أول بدعة ظهرت في الإسلام، وإنما أحدثوا هذا المُعتقد من سوء فهمهم للقرآن، فلم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه؛ فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب[٢].

وأما الإيمان عند المرجئة: فشيءٌ واحد لا يتفاوت، بل إيمان أفسق الناس مثل إيمان جبريل بلا فرق، وإيمان أهل السماء وأهل الأرض عندهم سواء، ولا يكون زائدًا ولا ناقصًا، وأخرجوا جميع الأعمال من الإيمان.

قال المصنف في «مَجموع الفَتاوىٰ»: «تنازَع النَّاس في الأسماء

(١) «وسطية أهل السنة بين الفرق (رسالة دكتوراه)، لمحمد باكريم، (ص ٣٣٣)، دار الراية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) انظر: «مَجموع الفَتاوىٰ» (١٣/ ٣٠).

والأحكام؛ أي: في أسماء الدِّين، مثل: مُسلِم ومُؤمِنٍ وكافِرٍ وفاسِقٍ، وفي أحكام هؤلاء في الدُّنيا والآخرة، فالمُعتزِلة وافقوا الخَوارِجَ علىٰ حُكْمِهم في الآخِرَة دون الدُّنيا؛ فلم يَستَحِلُّوا مِن دمائِهم وأموالهم ما استَحَلَّتْهُ الخوارجُ، وفي الأسماء أحدَثوا المَنزِلة بين المَنْزِلتينِ، وهذه خاصَّة المُعتَزِلة التي انفَردوا بها، وسائِرُ أقوالهم قد شارَكهم فيها غيرُهم»[(١)].

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَة فَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الإِيمَانَ وَالدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ.

فجاء اعتقاد أهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ فالإيمان عندهم قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ فتوسطوا بذلك بين المرجئة الذين أخرجوا العمل عن مسمىٰ الإيمان، والخوارج والمعتزلة الذين أنكروا زيادة الإيمان ونقصانه.

فهم وَسَطٌ بينَ الخوارجِ والمُعتزلةِ، وبينَ المُرجئةِ والجهميَّةِ.

«وأهلُ السُّنَّةِ نَقاوةُ المسلمين، فهم خير الناس للناس»[(٢)]، وأسعدُ النَّاسِ بالحقِّ وأرحمهم بالخلق؛ فإنَّهم لم يُكفِّروا أهلَ القِبْلَةِ بارتكابِ الكبائرِ، وإنَّما قالوا: مرتكب الكبيرة مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، فهوَ مؤمنٌ بإيمانِهِ وفاسقٌ بمعصيتِهِ؛ فلم يُعطوهُ الإيمانَ المطلقَ، ولم يسلبوهُ مطلقَ الإيمانِ، ولم يَحكموا علىٰ الفاسقِ بأنَّهُ مُخلَّدٌ في النارِ يومَ القيامةِ، بل قالوا: إنَّ مُرتكبي الكبائرِ من أهلِ القِبلَةِ في مشيئةِ اللهِ يومَ القيامةِ؛ إن شاءَ عَفَا عنهم وأدخلَهُم الجنَّةَ بلا عذابٍ، وإن شاءَ عذَّبَهُم علىٰ قَدْرِ ذنوبِهِم، ثمَّ أدخلهُمُ الجنَّةَ؛ كما قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ٤٨].

---

(١) «مَجموع الفَتاوىٰ» (١٣/ ٣٨).

(٢) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن أهل السنة، كما في «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨).

خامسًا: في بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **«وفي بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ الرَّافضةِ والخَوَارجِ»**.

الرَّافضة: هم الذين غلوا في عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأهل البيت، ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثَّلاثة، وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والأنصار، وكفَّروهم ومَن تولاهم، وكفَّروا مَن قاتل عليًّا، حتىٰ وصل بهم الأمر إلىٰ أن كفروا جُلَّ الصحابة إلا نفرًا يسير جدًّا.

وأما الخوارج فقابلوا الرَّوافض؛ فكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة بعد التحكيم، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

والنواصب: هم الذين نصبوا العداوة لعليٍّ ومَن والاه، وهم الذين استحلوا قتله بعد أن كفروه، وقتله أحد رؤوسهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

أما أهل السنة والجماعة فهداهم الله تعالىٰ للحق والصواب، فلم يغلوا في علي وأهل البيت، ولم ينصبوا العداوة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم يكفّروهم، ولم يفعلوا كما فعل النواصب من عداوة أهل البيت. بل يعترفون بحق الجميع وفضلهم، ويوالونهم، ويكفون عن الخوض فيما جرىٰ بينهم، ويترحَّمون علىٰ جميع الصحابة، فكانوا وسطًا بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج(١).

(١) انظر «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» لعبد العزيز السلمان (٥٠٥- ٥٠٨)، المملكة العربية السعودية، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠٢هـ.

ومحبتهم لأهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ محبةٌ شرعيَّة دونَ إفراطٍ أو تَفْريطٍ؛ فهم يَعْرِفُونَ لهم حَقَّهم، ويَحفظونَ وَصِيَّةَ رسولِ اللهِ فيهم، ولا يُغالونَ في مَحَبَّتِهِم؛ ولا يَرفعونهم فوق منزلتهم البشرية غلوًّا فيهم، وكذلك لا ينتقصونهم قدرهم جفاء لهم.

وما وقع بين الأصحاب الكرام من خلاف فيجب الإمساك عن الخوض فيه، والتماس العذر لهم؛ يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

«موقف أهل السنة في الخلاف والفتن التي حصلت بين الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: موقفهم في ذلك: أن ما جرىٰ بينهم فإنه باجتهاد من الطرفين، وليس عن سوء قصد، والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وليس ما جرىٰ بينهم صادر عن إرادة علو ولا فساد في الأرض؛ لأنَّ حال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم تأبىٰ ذلك، فإنهم أوفر الناس عقولًا، وأقواهم إيمانًا أشدهم طلبًا للحق، كما قال النبي ﷺ: **«خيرُ النَّاس قَرْني»**[(١)]. **وعلىٰ هذا فطريق السلامة: أن نسكت عن الخوض فيما جرىٰ بينهم، ونَرُدَّ أمرهم إلىٰ الله؛ لأن ذلك أسلم من وقوع عداوة أو حقد علىٰ أحدهم»**[(٢)].

فأهل السنة والجماعة يتميزون بالوسطية والاعتدال بين الفرق الأخرىٰ التي تقف علىٰ طرفي نقيض؛ فتتجه إحداهما لأقصىٰ اليمين، وتنحدر الأخرىٰ لأقصىٰ اليسار، والحق بين هذا وذاك، وتلكم هي الوسطية والطريقة السوية.



(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) «مذكرة علىٰ العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (ص ٨٢)، مدار الوطن للنشر- الرياض، ١٤٢٦هـ.




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد دخلَ فيما ذكرناهُ مِنَ الإيمانِ باللهِ الإيمانُ بما أخبرَ بهِ في كتابِهِ وتواترَ عن رسولِهِ، وأجمعَ عليهِ سلفُ الأُمَّةِ من أنَّهُ - سبحانه - فوقَ سَماواتِهِ علىٰ عرشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خلقِهِ، وَهُوَ - سبحانه - مَعهم أينما كانوا؛ يَعْلَمُ ما هم عاملونَ، كما جَمَعَ بينَ ذلكَ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وليس معنىٰ قولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أنَّهُ مُختلطٌ بالخلقِ؛ فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغة، وهوَ خلافُ ما أجمعَ عليهِ سلفُ الأمَّةِ، وخِلافُ ما فطرَ اللهُ عليهِ الخلقَ، بلِ القمرُ آيةٌ من آياتِ اللهِ مِن أصْغرِ مَخلوقاتِهِ، وهو موضوعٌ فِي السَّماءِ، وهوَ معَ المسافرِ وغيرِ المسافرِ أينما كانَ، وهوَ - سبحانه - فوقَ عرشِهِ، رَقيبٌ علىٰ خلقِهِ، مهيمنٌ عليهم، مُطَّلِعٌ عليهم، إِلَىٰ غيرِ ذلكَ مِن مَعانِي رُبوبيتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الكَلَام الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ؛ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنا - حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَة؛ مِثْل أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: أَنَّ السَّمَاءَ تُقِلُّهُ، أَوْ تُظِلُّهُ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَهُوَ الَّذِي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾

[الحج: ٦٥]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].



الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع ما يتعلق بصفة العلو، وما يتصل بهذه الصفة من جملةِ صفاتٍ.

وأعظم مسألتين في باب أسماء الله وصفاته: هما صفة العلو وصفة الكلام، ولذلك خصهما هنا شيخ الإسلام بالذِّكر؛ فتكلم - أولًا - عن صفة العلو وما يتعلق بها، ثم أعقب ذلك بالحديث عن صفة الكلام، وهذا لأهمية هاتين المسألتين في هذا الباب؛ لأن أهل الباطل من المعطلة أَصَّلوا قولهم في صفة العلو بناء علىٰ أن العلوم محصورة في المحسوس المشاهد، فكذَّبوا بكل غيب، ولذلك أنكروا عُلُوَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهو أعظم غيب، وهم بذلك يُريدون الوصول إلىٰ إنكار وجوده؛ لأن في إثبات علوه إثباتًا لوجوده جل وعلا، وإثبات وجوده إثبات لأعظم الغيب.

وكذلك أرادوا أن يتسلطوا علىٰ صفة الكلام؛ لأن في إثباتها إثباتًا للوحي، وهو مصدر العلم الشرعي، فهم يريدون أن يُفسدوا هذا الباب؛ ليقصروا مصدر العلم علىٰ نفوسهم، وبالتالي يريدون أن يُسووا بين قولهم وقول رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتبار أن مصدر الاثنين واحد.

وبالتالي، فمسألة العلو من أعظم المسائل؛ لذلك نجد أن النصوص التي أثبتت هذه الصفة متواترة ومتنوعة ومتعددة، حتىٰ إنَّ العلماء يذكرون أن في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أكثر من ثلاثمائة آية تتكلم عن علوِّ الله بأساليب متنوعة ومتعددة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ تارة يُخبر بعلوه، وتارة يُخبر باستوائه، وتارة يُخبر بنزوله، وتارة يُخبر بصعود الأشياء إليه، وتارة يخبر بنزولها من عنده، وتارة يخبر بعروجها إليه، وهكذا.

وقد دلَّ علىٰ عُلُوِّ اللهِ علىٰ خلقِهِ بذاته - الكتابُ بدلالاتٍ متنوعةٍ، والسُّنَّةُ بدلالاتِهَا الثلاثِ: (القوليَّة، والفعليَّة، والتقريريَّة)، والإجماعِ، والعقلِ، والفطرةِ.

وقالَ العلَّامةُ السَّعْدي بعدَ أن أَوْرَدَ كلامَ شيخِ الإسلامِ السابقِ: «في هذا الفصلِ مسألة علو اللهِ واستوائِهِ علىٰ عرشِهِ، وأن ذلكَ داخلٌ في الإيمانِ باللهِ، وذلكَ لِمَا حَصَلَ في هذِهِ المسألةِ مِنَ الاختلافِ والمُخَاصماتِ الطويلةِ بينَ أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ وبينَ طوائِفِ الجهميَّةِ والمُعتزلةِ ومَن تَبِعَهُم في هَذِهِ المَسألةِ مِنَ الأشعريَّةِ ونحوهم.

فإنَّ مَسألةَ العلوِّ صُنِّفَت فيها المُصَنَّفات المُستقلَّة، وأَوْرَدَ فيها أهلُ السُّنَّة ما لا يمكنُ دفعُهُ أو دفع بعضِهِ، وحقَّقوا ذلكَ بالعقلِ الصحيحِ، وأنَّ الفِطَر والعقولَ مُعترفة، بل ومضطرة إلىٰ الإيمانِ بعلوِّ اللهِ إلَّا مَن غَيَّرَت فِطَرتَه العقائدُ الباطِلةُ.

وقد بيَّن المُصَنِّفُ في هذا الموضوعِ الجمعَ بينَ الإيمانِ بعلوِّ اللهِ وإثباتِ مَعِيَّته وعِلْمِهِ المُحيط، وحَقَّقه في كلامٍ واضحٍ مُبَيَّنٍ بالأمثلةِ المُقَرِّبَةِ للمعاني بما لا مَزِيدَ عليهِ»[1].

فصفة العلو صفة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، بل وثابتة بالفطرة، وثابتة بالعقل.

قال العَلَّامةُ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قالَ شيخُ الإسلام:** وَهَذَا كتابُ اللهِ من أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ، وسُنَّة رسولِهِ ﷺ، وعامَّة كلام الصَّحابةِ والتَّابعينَ وكلام سائرِ الأئمَّة مَمْلُوءٌ بما هُوَ نصٌّ أو ظَاهِرٌ في أنَّ اللهَ

(١) «التنبيهات اللطيفة» (ص٦٥).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنَّه فوقَ السَّماوات مُسْتوٍ عَلَىٰ عرشِهِ»[١].

وقال - أيضًا - ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما: «...حتىٰ قيل: إن الآياتِ والأخبارَ الدَّالَّةَ علىٰ عُلُوِّ الرَّبِّ علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه تقاربُ الألوفَ، وقد أجمعت عليها الرسلُ مِن أولهم إلىٰ آخرهم»[٢].

وقد تنوَّعَتْ دلالةُ القرآنِ علىٰ عُلُوِّ الله علىٰ وجوهٍ كثيرةٍ، منها:

١- التَّصْريحُ بِالفَوْقِيَّةِ مَقْرُونَةٌ بأداةِ «مِنْ» المُعَيِّنَةِ لِفَوْقِيَّةِ الذَّاتِ، نحو ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

٢- التصريح بالفوقيَّة مُجَرَّدَة عن الأداة، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

٣- التَّصْريح بالعروج إليه؛ نحو ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

٤- التصريح بالصُّعود إليه؛ كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

٥- التَّصريح برفعه بعضَ المخلوقاتِ إليه؛ كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمران: ٥٥].

٦- التَّصريح بالعُلُوِّ المطلقِ الدَّالِّ علىٰ جميع مراتب العلو، ذاتًا وقدرًا وشرفًا، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سَبَإ: ٢٣]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

٧- التَّصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزُّمَر: ١]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، ﴿قُلْ

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/٩٦).

(٢) «مختصر الصواعق» (ص٥٩).

نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، **وهذا يدل على شيئين:**

الأول: على أنَّ القرآنَ ظَهر منه لا من غيره، وأَنَّهُ الذي تكلم به، لا غيره.

الثاني: على عُلُوِّهِ على خَلْقِهِ، وأنَّ كلامَه نزل به الرُّوح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

٨- التَّصريحُ باخْتِصَاصِ بعضِ المخلوقات بأنها عنده، وأنَّ بَعْضَهَا أَقْرَبُ إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، ففرَّق بين من له عمومًا، ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصًا.

٩- التَّصريح بأنه سبحانه في السَّماء، **وهذا عند أَهْل السُّنَّة على أحد وجهين:**

إما أن تكون «في» بمعنى «على».

وإما أن يراد بالسَّماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حملُ النَّصِّ على غيره.

١٠- التَّصريح بالاستواء مقرونًا بأداة «على» مختصًّا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبًا في الأكثر لأداة «ثُمَّ» الدَّالَّة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السِّياق صريحٌ في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العُلُوِّ والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتَّة.

١١- إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصُّعُودَ إلى السماء؛ لِيَطَّلِعَ إلى إله موسى، فيُكذبه فيما أخبر به من أنه فوق السماوات؛ فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]،

فكذَّب فرعونُ موسىٰ في إخباره إيَّاه بأن ربَّه فوق السماء[(١)].

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النِّسَاء: ١٧٢] - بيَّن أن الملائكة أقرب إليه من غيرهم من خلقه.

وكذلك قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، إلىٰ غير ذلك من ألفاظ متنوعة ومتعددة تدل دلالة واضحة علىٰ أن الله عال علىٰ خلقه مُستو علىٰ عرشه.

أما دلالة السُّنَّة علىٰ العلو، فقد قال شيخ الإسلام: «وأما الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يُحصيها إلا الله تعالىٰ»[(٢)].

فالسُّنَّةُ قد دلَّت علىٰ عُلُوِّ الله بدلالاتها الثلاث: (القولية، والفعلية، والتقريرية).

أما السُّنَّة القولية فمنها:

١- ما رواه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الخَوارِج: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا تَأْمَنُونِي، وأَنا أَمِينُ مَنْ في السَّماءِ؟!**»[(٣)].

٢- ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله تعالىٰ طَيِّبٌ لا يقبل إلا طَيِّبًا...**»، إلىٰ أن قال: «**ثم ذكر الرجلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَام، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلىٰ السماء: يا رب، يا رب، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»[(٤)].

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٣١٤- ٣١٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٥).

٣- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَتَعاقَبُونَ فيكم ملائكةٌ باللَّيْلِ وملائكةٌ في النهار، ويجتمعون في صلاة الصُّبحِ وصلاةِ العصرِ، ثم يَعْرُجُ الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله وهو أعلم بهم: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فيقولون: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[١].

وأما أدلة السُّنَّة الفِعلية فمنها:

١- ما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في حديث حَجَّةِ الوَدَاع، وفيه: أن رسول الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ، فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا...**»، إلىٰ أن قال جابر رضي الله عنه: «فقال بإصبعه السَّبَّابَة يَرْفَعُهَا إلىٰ السَّماء وَيَنْكُتُهَا إلىٰ الناس: اللهم اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ»[٢].

قال العَلَّامة ابن القَيِّم رحمه الله **مُعَلِّقًا علىٰ هذا الحديث**: «ليشهد الجميعُ أن الرَّبَّ الذي أرسله ودعا إليه واستشهده هو الذي فوق سماواته علىٰ عرشه»[٣].

٢- ما في الصَّحيحين في رفعه ﷺ يديه إلىٰ السماء قائلًا: «**اللهم اسقنا**»[٤] وهكذا رفعه يديه في الاستسقاء وغير ذلك.

ومن أدلة السُّنَّة التقريريَّة وأشهرها:

ما رواه معاوية بن الحَكَم السُّلَمِي رضي الله عنه قال: «كانت لي جاريةٌ تَرْعَىٰ غَنَمًا قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانيَّة، فاطَّلَعْتُ ذات يومٍ فإذا بالذئب قد

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) «إعلام المُوقعين» (٢/ ٣١٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٠١٣) ومسلم (٨٩٥).

ذهب بشاةٍ مِن غَنَمِهَا، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسَفُ كما يَأْسَفُونَ لكني صَكَكْتُهَا، فأتيتُ رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «**ائتني بها**»، فأتيتُه بها، فقال لها: «**أين الله؟**». قالت: في السماء، قال: «**ومَن أنا؟**». قالت: رسول الله، قال: «**أَعْتِقها؛ فإنَّها مؤمنة**»[١].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم عن السَّلف في ذلك من الأقوال ما لو جُمِعَ لَبَلَغَ مِئِينَ أَوْ أُلُوفًا.

ثُمَّ لَيْسَ في كتاب الله ولا في سُنَّةِ رسوله ﷺ ولا عن أحدٍ من سلف الأمة، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف - حرفٌ واحدٌ يخالف ذلك لا نَصًّا ولا ظاهرًا، ولم يقل أحد منهم قط: إنَّ الله ليس في السماء، ولا إنه ليس علىٰ العرش، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا إنه لا متصل ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسيَّة إليه بالأصابع ونحوها»[٢].

وأما دلالة الإجماع: فقد **قال شيخُ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالسَّلَفُ والأَئِمَّةُ يقولون: إن الله فوق سماواته مُسْتَوٍ علىٰ عرشه بَائِنٌ مِن خَلْقِهِ، كما دَلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وكما عُلِمَ المُبَايَنَةُ والعُلُوُّ بالمعقولِ الصَّريح الموافق للمنقول الصحيح، وكما فَطَرَ اللهُ علىٰ ذلك خَلْقَهُ»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٥).
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٢٩٧).

وأما دلالة الفِطْرَةِ علىٰ عُلُوِّ الله بذاته:

فقد قال إمام الأئمة محمد بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب ذكر البيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ في السماء، كما أخبرنا في مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ وعلىٰ لسان نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما هو مفهوم في فطرة المسلمين علمائهم وجُهَّالِهِمْ وأَحْرَارِهِمْ وَمَمَالِيكِهِمْ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِم بَالِغِيهِم وأَطْفَالِهِم، كل مَن دعا الله جل وعلا فإنه يرفع رأسَه إلىٰ السماء ويمد يدَيْه إلىٰ الله إلىٰ أعلاهُ، لا إلىٰ أسفل»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمَّا كونه عاليًا علىٰ مخلوقاته بائنًا منهم، فهذا أمرٌ معلومٌ بالفطرةِ الضروريةِ التي يشترك فيها جميع بني آدم.

وكُلُّ مَن كان بالله أعرفَ وله أَعْبَدَ ودُعَاؤُهُ له أكثرَ وقَلْبُهُ له أَذْكَرَ كان علمُه الضروريُّ بذلك أقوىٰ وأكملَ، فالفطرة مُكَمَّلَةٌ بالفطرة المنزَّلة؛ فإن الفطرةَ تعلم الأمر مُجْمَلًا والشريعة تُفَصِّلُهُ وتُبَيِّنُهُ وتَشْهَدُ بما لا تَسْتَقِلُّ الفطرة به، فهذا هذا، والله أعلم»(٢).

فالله تعالىٰ فطر القلوب علىٰ إثبات علوه عز جل، ولذلك لما تكلم أبو المعالي الجويني في إنكار صفة العلو؛ وقال علىٰ المنبر: كان اللهُ ولا عَرْشَ، فقال له أبوجعفر الهمداني: يا أستاذ دَعْنَا مِن ذكر العرش - يعني لأن ذلك إنما جاء في السَّمْعِ - أَخْبِرْنَا عن هذه الضرورة التي نَجِدُهَا في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قَطُّ (يا الله) إلا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً تَطْلُبُ العُلُوَّ، لا تلتفت يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي علىٰ رأسه، وقال: حَيَّرَنِي الهمدانيُّ، حَيَّرَنِي الهمدانيُّ، ونزل(٣).

---

(١) «التوحيد» (١/ ٢٥٤).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٤).

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فطر هذه القلوب علىٰ إثبات علوه عَزَّوَجَلَّ فأنت في كل أحوالك إذا سألت الله اتَّجهت إلىٰ جهة واحدة، وهي جهة العلو، فلا تلتفت يمنة ولا يسرة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فطر القلوب علىٰ معرفته، ومن ذلك جواب الجارية علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سألها الجارية: «**أين الله؟**». فقالت: «في السَّماء». فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعْتِقها؛ فإنَّها مؤمنة**»(١).

وأَمَّا دَلَالَةُ العَقْلِ علىٰ إثبات العُلُوِّ لله، فقد قال **العَلَّامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **فقال**: «وأما العقلُ فقد دَلَّ علىٰ وجوب صفة الكمالِ لله تعالىٰ، وتنزيهِه عن النقصِ، والعُلُوُّ صفةُ كمالٍ، والسُّفْلُ نَقْصٌ، فوجب لله تعالىٰ صفة العلو وتنزيهه عن ضده»(٢).

وكذلك العلو ثابت بالعقل، ولذلك يقول الإمام أحمد: «يقال للجهمي: إنَّ الله إذا كان معنا بعظمة نفسه. فقل له: هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه؟ فإن قال: نعم. فقد زعم أن الله بائن مِن خلقه، وأن خلقه دونه. وإن قال: لا، كفر. وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب علىٰ الله حين زعم أنه في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان. فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟ فيقول: نعم. فقل له: حين خلق الشيء خلقه في نفسه، أو خارج عن نفسه؟ فإنه يصير إلىٰ ثلاثة أقاويل لا بد له من واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه، فقد كفر حين زعم أنه خلق الخلق والشياطين وإبليس في نفسه، وإن قال: خلقهم خارجًا من نفسه، ثم دخل فيهم، كان هذا أيضًا كفر، حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر. وإن قال: خلقهم خارجًا من نفسه، ثم لم يدخل فيهم، رجع

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وقد تقدَّم قريبًا.

(٢) «القواعد المُثلىٰ» (ص٦٧).

عن قوله كله أجمع، وهو قول أهل السنة»[(١)].

ونحن نُنَزِّه الله أن يُذكر في الخلاء فضلًا عن أن يكون هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا المكان.

فالله عال علىٰ خلقه، مستو علىٰ عرشه، بائن من خلقه، وهم بائنون منه.

ومقصود أهل السنة بإثبات صفة العلو: أنه ليس بعد هذا العالم إلا الله.

وإثبات الاستواء جاء في القرآن في سبعة مواضع؛ في ستة مواضع: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي واحد منها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ فأخبر باستوائه في هذه المواضع.

وذِكر العرش جاء في واحد وعشرين موضعًا، وهو أكبر مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأثقلها وزنًا وأعظمها خلقًا، وهو - كما يقولون -: سقف الجَنَّة.

فإثبات العلو والاستواء أمرٌ جاءت به النصوص، ولا تعارض بين نصوص العلو والاستواء ونصوص المعية.

الفرق بين العلو والاستواء:

١- العُلُوُّ مِن الصِّفَات المعلومة بالسَّمع مع العقل، وأما الاستواء فمن الصفات المعلومة بالسَّمع دون العقل[(٢)].

٢- أنَّ العُلُوَّ صفةٌ ذاتيةٌ، والاستواء صفة فعلية؛ فالاستواء علو خاص، خَصَّه الله بالعرش.

أما العلو فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ علىٰ جميع خلقه بما في ذلك

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٤٠).

(٢) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٤٩)، (٥/ ١٢٢، ١٥٢، ٢٢٧).

العرش الذي خصه الله سبحانه وتعالى بالاستواء عليه.

ومعنىٰ استوىٰ: علا وارتفع.

لأن استوىٰ إمَّا أن تَرِد مُطلقة وإمَّا أن ترد مقيدة، فإذا أطلقت مثل أن تقول: استوىٰ الطعام، أو استوىٰ النبات، والمعنىٰ: كمل وتم.

وإذا قيدت فإمَّا أن تقيد بإلىٰ أو تقيد بعلىٰ أو تقيد بواو (مع)، فإذا قيدت بإلىٰ فقد جاءت في القرآن - بالنسبة إلىٰ الله سبحانه وتعالى - في موضعين؛ في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فُصِّلَت: ١١].

وإذا قيدت بإلىٰ فقد قال العلماء في معانيها: إنها بمعنىٰ (عمد وقصد وأقبل وعلا، وصعد)، وهي من لوازم علا.

أما إذا قيدت بعلىٰ فليس لها في لغة العرب إلا معنىٰ واحدًا، وهو علا وارتفع، وآيات الاستواء كلها قُيِّدت بعلىٰ: وهي قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: ٥٤].

أمَّا إذا قيدت بواو (مع) فهي تعني المساواة مثل أن تقول: استوىٰ الماء والخشب، أو استوىٰ فلان وفلان في النتيجة، فمعناها المساواة.

والعرب لا تعرف من معاني (استوىٰ): استولىٰ.

فمن فَسَّر استوىٰ بالاستيلاء فليس من لغة العرب في شيء.

ثم ما يتعلق بأمر العلو وأمر المعية فلا تعارض بينهما، والله سبحانه وتعالى قد جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحَديد: ٤].

ونصوص المعية تنقسم إلىٰ قسمين: عامة وخاصة:

المعية العامة، كما في سورة الحديد في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وفي سورة المجادلة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

والمعية الخاصة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ونحو ذلك من الآيات، فتلك من نصوص المعية الخاصة.

ولفظ (مع) في لغة العرب يُفيد المصاحبة، ثم إنَّ المصاحبة تختلف بحسب السياق، وهي مِن الألفاظ المشتركة بمعنىٰ: أن السياق هو الذي يُحَدِّدها، فقد تكون المعية بمعنىٰ النصرة، وقد تكون بمعنىٰ مصاحبة الذات، وقد تكون غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أُطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة؛ من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنىٰ من المعاني دلت علىٰ المقارنة في ذلك المعنىٰ. فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي

لمجامعته لك؛ وإن كان فوق رأسك. فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة»[(١)].

وليس هنا تعارض بين نصوص المعية ونصوص العلو.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدىٰ والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته. ولا يحسب الحاسب أن شيئًا من ذلك يناقض بعضه بعضا البتة؛ مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلىٰ الصلاة فإنَّ الله قِبَل وجهه**»[(٢)]، ونحو ذلك فإن هذا غلط.

وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا»[(٣)].

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ دل ظاهر الخطاب علىٰ أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم، وهذا معنىٰ قول

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٠٣).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٠٦) ومسلم (٥٤٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٠٢، ١٠٣).

السلف: إنه معهم بعلمه. وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته، وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ﴾ [المجَادلة: ٧] الآية، ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: «**لا تحزن إن الله معنا**» كان هذا- أيضا- حقًّا علىٰ ظاهره، ودلت الحال علىٰ أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد[(١)].

فليس المراد مصاحبة اختلاط، إذ لفظ (المعية) قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل علىٰ قدر مشترك بين جميع مواردها - وإن امتاز كل موضع بخاصية - فعلىٰ التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق حتىٰ يقال: قد صرفت عن ظاهرها[(٢)].

قال الشيخ الأمين الشنقيطي: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النّحل: ١٢٨]، ذكر - جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه مع عباده المتقين المحسنين، وهذه المعية بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق. وكرر هذا المعنىٰ في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفَال: ١٢]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبَة: ٤٠]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٢]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم،

---

(١) انظر: «الفتوىٰ الحموية» (ص ٥٢١، ٥٢٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٠٤).

ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته - جل وعلا- فالكائنات في يده - جل وعلا - أصغر من حبة خردل، وهذه هي المذكورة- أيضًا - في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤] الآية، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ [يونس: ٦١] الآية، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

فهو - جل وعلا- مستو علىٰ عرشه كما قال، علىٰ الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين»[1].

وهنا مسألة ينبغي التنبه لها، وهي أن أهل السنة إذا تعاملوا مع النصوص التي أُضيفت لله تعالىٰ، فإنهم يتعاملون معها بموجب ما دل عليه السياق، فلا يُقال لأهل السنة هنا: قد وقعتم في التأويل؛ لأن الآية قد لا تكون متعلقة بهذه الصفة التي قد يفهمها البعض منها، وإنما تكون متعلقة بصفة أخرىٰ؛ فمثلًا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فالأيد هنا ليس جمع يد، وإنما جمع آد، والآد: هو القوة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧]، فهل كان لداود عليه السلام عدة أياد، أو المعنىٰ: أنه صاحب القُوىٰ.

(١) «أضواء البيان» باختصار يسير (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩).

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٦] فالسياق لا يدل علىٰ إثبات صفة الجنب لله ﷻ، وإنما المعنىٰ: التحسر علىٰ التفريط الذي وقع في حق الله ﷻ.

ومثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البَقَرَة: ١١٥]، فليس المراد هنا صفة الوجه، وإنما المراد: القِبلة، لأنَّ الوجه هنا بمعنىٰ: الجهة.

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة في النصوص، وليست هذه الآيات ونحوها من نصوص الصفات.

والسلف هنا لم يؤولوا هذه النصوص ولم يحملوا ما لا تحتمله، وإنما كان من منهجهم النظر إلىٰ سياقها وما دلَّت عليه، فقد يكون من باب الصفات وقد لا يكون من بابها، وليس في هذا تأويل، أي: تحريف للنص عن ظاهره أو معناه، ولكن بعض الناس قد يتوهم أمرًا والنص لا يدل عليه ولا يُرشد إليه، وهذا في باب الصفات وفي غيره، وهو ما يسمىٰ بالاشتباه النِّسبي.

فمثلًا أخبر الله ﷻ أن القرآن كله محكم في قوله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: ١]، وأخبر أن كله متشابه فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، وأخبر أن منه محكم ومنه متشابه؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عِمرَان: ٧].

فلا يُمكن أن يقال: هذا تناقض، والحق أنه ليس من التناقض في شيء، فقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ بمعنىٰ: أتقنت، فالقرآن كله محكم، بمعنىٰ: متقن، ليس فيه اختلاف ولا تضاد، كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، والمتشابه هنا بمعنىٰ المتماثل المتناسب الذي ليس فيه اختلاف ولا تضاد، وهذا يؤكد ما في الآية السابقة؛ لأن من إتقانه أنه لا تضاد فيه ولا اختلاف؟

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن هداه الله فرَّق بين الأمور وإن اشتركت من بعض الوجوه وعلم ما بينهما من الجمع والفرق والتشابه والاختلاف، وهؤلاء لا يضلون بالمتشابه من الكلام؛ لأنهم يجمعون بينه وبين المحكم الفارق الذي يبين ما بينهما من الفصل والافتراق.

وهذا كما أن لفظ (إنا) و(نحن) وغيرهما من صيغ الجمع يتكلم بها الواحد له شركاء في الفعل ويتكلم بها الواحد العظيم الذي له صفات تقوم كل صفة مقام واحد وله أعوان تابعون به لا شركاء له، فإذا تمسك النصراني بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ونحوه علىٰ تعدد الآلهة كان المحكم كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣] ونحو ذلك مما لا يحصل إلا معنىٰ واحدًا يُزيل ما هناك من الاشتباه، وكان ما ذكره من صيغة الجمع مبينًا لما يستحقه من العظمة والأسماء والصفات وطائفة المخلوقات من الملائكة وغيرهم»[(١)].

ففي قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وصيغة الجمع لها استعمال علىٰ أنها صيغة جمع، واستعمال علىٰ أنها للتعظيم.

والله أحق أن يُعَظَّم؛ فبالتالي جاء هذا الاستعمال للتعظيم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ

(١) «الرسالة التدمرية» (ص ٤٦).

وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] - كذب النصارىٰ علىٰ الله في أمر عيسىٰ، وذلك أنهم قالوا: عيسىٰ روح الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب.

وقلنا نحن: إنَّ عيسىٰ بالكلمة كان وليس هو الكلمة. قال: وقول الله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ يقول: مِن أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣] يقول: من أمره. وتفسير روح الله: أنها روح بكلمة الله خلقها الله، كما يقال: عبد الله وسماء الله، فقد ذكر الإمام أحمد أن زنادقة النصارىٰ هم الذين يقولون: إن روح عيسىٰ من ذات الله، وبَيَّن أن إضافة الرُّوح إليه إضافة مُلك وخَلق، كقولك: عبد الله وسماء الله؛ لا إضافة صفة إلىٰ موصوف؛ فكيف بأرواح سائر الآدميين؟!»[(١)].

فـ(من) في قوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾: تبعيضية.

و(من) لها ستة استعمالات؛ فترد تبعيضية واستفهامية وبيانية وغير ذلك.

فالشاهد: أن من الآيات ما يدل علىٰ معنىٰ واحد، ومنها ما قد يكون في السياق ما يُبين المراد والمقصود منها، وذلك بتخصيص معنىٰ من المعاني، أما في أصل اللغة فقد يكون للفظ عدة استعمالات، والسياق هو الذي يحدد المراد.



(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٢٠).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد دخلَ في ذَلِكَ: الإيمانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ، كَمَا جَمَعَ بينَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه - لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ».

الشرح:

ذكرَ المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الجمعَ بينَ الإيمانِ بعلوِّ اللهِ وقُرْبِهِ ومَعِيَّتِهِ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّ ذَلِكَ مثل صفاتِ المخلوقينَ، وأنَّهُ إذا قِيلَ: إِنَّهُ عليٌّ فوقَ خلقِهِ كيفَ يكونُ مَعَهُم قريبًا منهم؟

فأجابَ بما تضمنَّهُ هذا الأصلُ الثابتُ في الكتابِ والسنَّةِ وإجماعِ الأمَّةِ، وَهُو أَنَّ اللهَ - تَعَالَىٰ - ليسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ في جميعِ نُعُوتِهِ، وَمِن نُعُوتِهِ اللازمَةِ: العلوُّ المُطلَقُ والقُرْبُ العامُّ والخاصُّ، وأنَّ القُرْبَ والعلوَّ في حقِّه يجتمعانِ لِعَظَمَتِهِ وَكِبرِيَائِهِ وَإِحَاطَتِهِ مِن كُلِّ وجهٍ، فَهُوَ العليُّ فِي دُنُوِّه، القريبُ في عُلُوِّه[1].

وصفة العلو صفة لازمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تنفك عنه، ولا تعارض بين عُلوه وقُربه جل وعلا؛ فهو يقرب من خلقه كيف يشاء.

وَهَكَذَا القولُ فِي أَحَادِيثِ النُّزولِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا، فَإِنَّهُ مِن نوعِ

(١) «التنبيهات اللطيفة» (٦٦، ٦٧).

قُرْبِ الرَّبِّ مِن دَاعِيهِ وسائليهِ ومُستغفريهِ.

وقال مالك عن حديث النزول: «ولهذا أمضِ الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار، وبما جاء به الكتاب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النّحل: ٧٤]: ينزل كيف شاء بقدرته وعلمه وعظمته، أحاط بكل شيء.

وقال بشر بن السري لحماد بن زيد: ينزل ربنا إلىٰ السماء الدنيا؛ يتحول من مكان إلىٰ مكان؟ فسكت حمَّادٌ، ثم قال: هو مكانه يَقرب من خلقه كيف شاء[1].

فمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه - لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ، ولا ينبغي أن نسأل عن كيفية ذلك؛ لأن الله قد حجب ذلك عنا.

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ عُلُوَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَىٰ سَمَاوَاتِهِ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَلَا يَكُونُ قَطُّ إِلَّا عَالِيًا، وَلَا يَكُونُ فَوْقَهُ شَيْءٌ البَتَّة، كَمَا قَالَ أَعْلَمُ الخَلق: «**أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ، عَالٍ فِي قُرْبِهِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ قَال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ فَقَال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِه**».

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ، مُطَّلِعٌ عَلَىٰ خلقِهِ؛ يَرَىٰ أَعْمَالَهُمْ، وَيَعْلَمُ مَا فِي بُطُونِهِمْ، وَهَذَا حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ أَحَدُهُمَا الآخَر.

(١) انظر «مختصر الصواعق» لابن القيِّم (ص ٤٦٨).

وَالَّذِي يُسَهِّلُ عَلَيْكَ فَهْمَ هَذَا: مَعْرِفَةُ عَظَمَةِ الرَّبِّ، وَإِحَاطَتِهِ بِخَلقِهِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي يَدِهِ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ العَبْدِ، وَأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَقْبِضُ السَّمَاوَاتِ بِيَدِهِ وَالأَرْضَ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَهُزُّهُن.

فَكَيْفَ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ مَنْ هَذَا بَعْضُ عَظَمَتِهِ: أَنْ يَكُونَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَيَقْرُبُ مِنْ خَلقِهِ كَيْفَ شَاءَ وَهُوَ عَلَىٰ العَرْشِ»[(١)].

وقربُ الله من خلقه لا يعني البتة أنه مختلط بهم، فالله عال علىٰ خلقه مستو علىٰ عرشه، بائن من خلقه وخلقه بائنون منه، وقُرب الله ليس كمعيته، فالقرب لم يرد إلا خاصًّا.

قالَ ابنُ القيِّمِ: «قربُ الربِّ- تعالىٰ- إِنَّمَا وَرَدَ خاصًّا لَا عامًّا، وَهُوَ نوعانِ:

النوع الأول: قُرْبُهُ مِن دَاعِيه بالإجابةِ.

النوع الثاني: وَمِن مُطِيعِهِ بِالإثابةِ.

ولم يَجِئِ القربُ كَمَا جَاءَت المعيَّةُ خاصَّةٌ وَعامَّةٌ، فَلَيسَ فِي القرآنِ ولا في السُّنَّةِ أنَّ اللهَ قريبٌ مِن كُلِّ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ قريبٌ مِنَ الكافِرِ والفاجِرِ، وَإِنَّمَا جاءَ خاصًّا، كَقَولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، فَهَذَا قُربُهُ مِن دَاعِيهِ وسائلهِ بِهِ، وَقَالَ تَعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والأصلُ: أنَّ اللهَ قريبٌ مِنَ المُحسنينَ، وَرَحمتُهُ قريبةٌ منهم، فيكونُ أخبر عن قُرْب ذاتِه وقُرب ثوابِه من المُحسنين، واكتفىٰ بالخبر عن أحدهما عن الآخر»[(٢)].

---

(١) «مختصرِ الصَّواعق» (ص٤٦٠).

(٢) «مختصر الصَّواعق» (٤٥٨-٤٥٩).

وقد أُورد علىٰ شيخ الإسلام ابنِ تيمِيَّة وتلميذِه ابنِ القيِّم قولُه تـعـالـىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وأن المرادَ بالإنسانِ كلُّ إنسانٍ، وَلِهَذَا قَالَ في آخـرِ الآيــةِ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، إلـىٰ أن قـال: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، فهو شاملٌ.

وأُوردَ عليهما - أيضًا - قولُه تَعالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقِعَة: ٨٣-٨٥]، ثمَّ قَسَّمَ هؤلاءِ الذينَ بَلَغَت أرواحُهم الحلقومَ إِلَىٰ ثلاثةِ أقسام، وَمِنهُمُ الكافرُ[1]، وَأَنَّ هَذِهِ الآياتِ تدلُّ عَلَىٰ أَنَّ قُربَ اللهِ يكونُ عامًّا.

فأجابَ شيخُ الإسلام وتلميذُهُ ابنُ القيِّم بأنَّ القربَ هنا هوَ قربُ الملائكةِ، معَ إقرارِهِمَا أنَّ طائفةً مِنَ السَّلفِ والخلفِ قالوا: إنَّ المقصودَ بالقربِ قربُ اللهِ بعلمِهِ وإحاطتِهِ وقُدرتِهِ.

قال شيخُ الإسلام: «قـولـه تـعـالـىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] هُوَ قُربُ ذَواتِ المَلَائِكَةِ وَقُربُ عِلم اللَّهِ؛ فَذَاتُهُمْ أَقْرَبُ إِلَىٰ قلبِ العَبْدِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ؛ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ أَقْرَبَ إِلَىٰ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي تَمَامِ الآيَةِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨] وهـذا، كـقـولـه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فقوله: ﴿إِذْ﴾ ظرف، فأخبر أنَّهم: ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] حين يَتَلَقَّىٰ المُتلقيان ما يقول: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قَعيدٌ، ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ

(١) «شرح الواسطيَّة» لابن عُثيمين (ص٤٦٠- ٤٦١).

قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، ثُمَّ قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ أي: شاهدٌ لا يُغيب. فهذا كله خبر عن الملائكة»[١].

فسياق الآيتين يدلُّ علىٰ أنَّ المرادَ هنا: الملائكةُ، فإنَّهُ قالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨]

فقيدُ القربِ بِهَذَا الزَّمَانِ وَهُوَ زمان تَلَقِّي المُتَلَقِّيين؛ قعيد عنِ اليمينِ، وقعيد عنِ الشِّمالِ، وهما المَلَكَانِ الحافظانِ اللذانِ يكتبانِ، كَمَا قَالَ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومعلومٌ: أنَّهُ لو كانَ المرادُ قربَ ذاتِ الربِّ لم يختصَّ ذلكَ بهذِهِ الحالِ، ولم يكن لِذِكرِ القَعِيدينِ والرَّقيب والعَتيد معنىً مناسب.

وَكَذَلِكَ قوله فِي الآيةِ الأخرىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]

فلو أرادَ قربَ ذاتِه لم يخصَّ ذلكَ بهذِهِ الحالِ، ولا قالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، فإنَّ هذا إنَّما يقالُ إذا كانَ هناكَ مَن يجوزُ أَن يُبصرَ في بعضِ الأحوالِ، ولكن نحنُ لا نبصرُهُ، والربُّ- تعالىٰ- لا يراهُ في هذِهِ الحالِ ولا الملائكةِ ولا البَشر.

وأيضًا، فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ﴾ [ق: ١٦]، فأخبرَ عمَّن هُوَ أقربُ إلىٰ المُحتضرِ مِنَ النَّاسِ الذينَ عندَهُ في هذِهِ الحالِ[٢].



(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٣٦).

(٢) انظر «مختصر الصواعق» لابن القيِّم (ص٤٥٧- ٤٥٨).



قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«وَمِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَكُتبِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ؛ منهُ بَدَأَ، وَإِلَيهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذا القرآنَ الذي أَنزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّد ﷺ هُوَ كلامُ اللهِ حَقِيقَةً لا كَلام غيرِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطلَاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حكايةٌ عَن كلام اللهِ أَو عِبارةٌ، بَل إِذَا قَرأَهُ النَّاسُ أَو كَتَبُوهُ فِي المصاحفِ لَم يَخرج بِذَلِكَ عَلَىٰ أَن يكونَ كلامَ اللهِ - تعالىٰ - حَقيقةً، فَإِنَّ الكلامَ إِنَّما يُضافُ حقيقةً إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبْتَدِأً، لَا إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبلِّغًا مُؤَدِّيًا، وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُروفُهُ ومعانيه، لَيسَ كَلام اللهِ الحُرُوف دُونَ المَعَانِي، وَلَا المَعَاني دُونَ الحُرُوفِ».

الشرح:

صفة الكلام تأتي - من حيث الأهمية - بعد صفة العُلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لذلك اهتم بها أئمة السلف، وأكدوا علىٰ ثُبوتها لله تعالىٰ حقيقة، وأوردوا في ذلك أدلة كثيرة، ودفعوا شبهات المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومَن دَار في فَلَكهم القائلين بأنَّ الله خلق القرآن في غيره، وردوا كذلك علىٰ الكلَّابية الذين قالوا: القرآن حكاية عن كلام الله، وردوا - أيضًا - علىٰ الأشاعرة الذين قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله.

فالمُعطلة أرادوا بقولهم هذا: إسقاط قيمة الوحي؛ ليصبح لدىٰ الناس خلل في اتباع الوحي، ونحن نؤمن أن أول مصدر للتشريع هو وحي الله تعالىٰ إلىٰ رسوله ﷺ، أي: كلامه بحروفه ومعانيه، وأن الله تعالىٰ قاله بحرف وصوت.

ومن أركان الإيمان السِّتة: الإيمانُ بالكُتُبِ التي أنزلها اللهُ، كما دلَّ علىٰ ذلك قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٦]، وكذلك جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه: «**الإيمان، قال: «أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه**»[(١)].

ومن الإيمانِ بالكتب: الإيمانُ بأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ.

والقرآنُ في الأصل: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٧-١٨]، أي: قراءته، فهو مَصدر علىٰ وزن فُعلان - بالضم - كالغُفران والشُّكران[(٢)].

وفي الاصطلاح هو: «كلام الله المُنَزَّل علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف، المَنقول إلينا بالتواتر، المُتعبد بتلاوته، المَبدوء بسورة الفاتحة، المُختتم بسورة الناس»[(٣)].

والقرآنُ كلامُ اللهِ، وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال تَعَالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبَة: ٦]، وروي عن جَابِر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قَالَ: «كَانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ فِي المَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: «**أَلَا رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ؛**

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) من حديث حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «لسان العرب» (١/ ١٢٩)، و«مناهل العرفان» للزرقاني (١/ ٧).

(٣) انظر: «مناهل العرفان» (١/ ١٠- ١٣)، و«مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص ٢٠-٢١)، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[(١)].

وَالذِي عَلَيهِ إجماعُ السَّلفِ الصَّالح مِنَ الصَّحابةِ ﷺ وَالتَّابعِينَ لَهم بِإحسَانٍ: أَنَّ القرانَ كلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ حُرُوفه وَمَعَانِيه، مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ نَزَلَ بِهِ جِبريلُ عليه السلام إِلَىٰ نَبِيِّنَا ﷺ.

وقالَ شيخُ الإِسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَمَذهَبُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ القُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِن اللهِ عز وجل»[(٢)].

ثم قال: «الآثار مُتواترة عنهم - أي: عن الصحابة والتابعين - بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله، ولمَّا ظهر مَن قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك أنه مُفترىٰ، كما ظنه بعض الناس؛ فإن أحدًا من المسلمين لم يَقل: إنه مفترىٰ، بل هذا كفر ظاهر يَعلمه كل مسلم، وإنَّما قالوا: إنه مخلوق خلقه الله في غيره، فرَدَّ السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنفوا في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: «منه بدأ وإليه يعود».

وأوَّل مَن عُرف أنه قال: مخلوق - الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان.

وأول مَن عُرف أنه قال: هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول؛ فمنهم مَن قال: الكلام معنىٰ واحد قائم بذات الرَّبِّ، ومعنىٰ القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنىٰ الواحد الذي لا يَتعدد ولا يتبعض،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، والحاكم (٢/ ٦٦٩) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال في «المجمع» (٦/ ٣٥): «رجاله ثقات».

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٣٣).

والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره.

وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار؛ فإنَّه مِن المعلوم بصريح العقل أن معنىٰ (آية الكرسي) ليس معنىٰ (آية الدَّيْن)، ولا معنىٰ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] معنىٰ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: ١]؛ فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه؟!

ومنهم مَن قال: هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يَزل ولا يزال موصوفًا بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالىٰ لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين، ولم يقل أحدٌ من السلف: إنَّ هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق؛ بل كانوا يقولون بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يَقرءونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مَخلوق»[(١)].

وقالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي نونيتِهِ:

وَكَذٰلِكَ القرآنُ عَينُ كَلَامِهِ الـ	ـمَسمُوع مِنهُ حَقِيقَة بِبَيَانِ
هُوَ قَولُ رَبِّي كُلُّهُ لَا بَعضُهُ	لَفظًا وَمَعنًىٰ مَا هُمَا خَلْقَانِ
تَنزِيلُ ربِّ العَالَمِينَ وَقَولُهُ	الَّلفظُ وَالمَعنَىٰ بِلَا رَوَغَانِ

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

وأما المعتزلة والجهمية فقالوا: القرآن كلام الله مخلوق؛ فهم أضافوا الكلام إلىٰ الله من باب إضافة الوصف علىٰ حد قولهم: (ناقة الله).

ومن المتفلسفة مَن يزعم أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم علىٰ غيره من العلماء.

وقال شيخُ الإسلام: «وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ: أَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: «**مِنْهُ بَدَأَ**» لِأَنَّ الجَهْمِيَّة - مِن المُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ - كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَلَقَ الكَلَامَ فِي المَحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: «**مِنْهُ بَدَأَ**». أَيْ: هُوَ المُتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْض المَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزُّمَر: ١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السَّجدَة: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سَبَإ: ٦]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: ١٠٢].

وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ: «**إِلَيْهِ يَعُودُ**»: أَنَّهُ يُرْفَعُ مِن الصُّدُورِ وَالمَصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَىٰ فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثَارٍ»[(١)].

وأمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَأَنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَام غَيْرِه**» - فيريدُ به شيخُ الإسلام: أنَّ اللهَ تكلَّمَ بالقرآنِ حقيقةً، وَأَنَّهُ لَيسَ بِكَلَامِ جبريل، وَلَا كلامِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وفي قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ أَوْ عِبَارَةٌ**» - يُشير به إِلَىٰ الكُلَّابيَّة الذينَ قالوا: إِنَّهُ حكايةٌ، وَإِلَىٰ

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/٥٢٨، ٥٢٩).

الأشاعرةِ الذينَ قالوا: إنَّهُ عبارةٌ، فالكُلَّابيَّة والأشاعرةُ متفقونَ عَلَىٰ أنَّ هَذَا القرآنَ الذي بَينَ أيدينا ليسَ كلامَ اللهِ، بَل هُوَ إمَّا حِكَاية أَو عبارَة؛ فَالأشاعرةُ يقولونَ: إنَّ اللهَ عَبَّرَ عن كلامِهِ النفسِيِّ بحروفٍ وَأصواتٍ مخلوقةٍ.

والكُلَابيَّة يقولونَ: إنَّ القرآنَ معنىٰ قائم بذاتِ اللهِ، وأنَّهُ لا يُسْمَعُ عَلَىٰ الحقيقةِ، والحروفُ والأصواتُ حكايةٌ لَهُ ودالَّةٌ عَلَيهِ، كَمَا يَحْكِي الصَّدَىٰ كلامَ المتكلِّمِ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بَل إذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا**» - يريدُ به شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ القرآنَ - وإن حُفِظَ في الصُّدورِ، أو تُلِيَ بالألسنِ، أو كُتِبَ في المَصاحفِ، أو سُمِعَ بالآذانِ - فإنَّ ذلكَ لا يُخرجُهُ عن كونِهِ كلام اللهِ وإن بلغهُ الرسولُ المَلَكِي جبريلُ للرَّسولِ البشريِّ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغَهُ نبينا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمَّتِهِ، فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضَافُ حقيقةً إلىٰ مَن قالَهُ مُبتدئًا، لا إِلَىٰ مَن قالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**هو كلامُ الله؛ حُرُوفه ومَعانيه**» - هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجَمَاعَة. قالوا: إنَّ اللهَ - تَعالَىٰ - تَكَلَّمَ بالقرآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ.

وقوله: «**ليس كلامُ الله الحُرُوفُ دون المعاني**». وهذا مذهبُ المعتزلَةِ وَالجهميَّةِ؛ لِأَنَّهُم يقولونَ: إنَّ الكلامَ ليسَ معنًىٰ يقومُ بذاتِ اللهِ، بل هُوَ شيءٌ مِن مَخلوقَاتِهِ؛ كَالسماءِ والأرضِ والناقةِ والبيتِ، وما أشبهَ ذلكَ؛ فليسَ معنًىٰ قائمًا فِي نفسِهِ، فكلامُ اللهِ حروفٌ خَلَقَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَمَّاها كلامًا، كَمَا خَلَقَ الناقةَ، وسمَّاهَا ناقة اللهِ، وَكَمَا

خَلَق البيتَ، وَسَمَّاه بَيت اللهِ.

وَلِهَذَا كانَ الكلامُ عندَ الجهميَّةِ والمعتزِلَةِ هُوَ الحروفُ؛ لِأَنَّ كلامَ اللهِ عندَهُم عبارةٌ عَن حروفٍ وأصواتٍ خَلَقَهَا اللهُ ﷻ، وَنَسَبَهَا إِلَيهِ تَشريفًا وَتَعظِيمًا.

قوله: «**ولا المَعاني دون الحُرُوف**»:

وَهَذَا مَذهَبُ الكُلَابيَّةِ وَالأشعَرِيَّةِ؛ فَكَلامُ اللهِ عِندَهُم مَعنًىٰ فِي نَفسِهِ، ثُمَّ خَلَقَ أَصوَاتًا وَحُرُوفًا تَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ؛ إِمَّا عِبَارة أَو حِكَايَة.

واعلم أنَّ ابنَ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ ذكرَ أَنَّنَا إِذَا أَنكرنَا أَنَّ اللهَ يتكلَّمُ فَقَد أَبطَلنَا الشَّرعَ وَالقَدَر.

أَمَّا الشرعُ؛ فَلِأَنَّ الرِّسالاتِ إِنَّمَا جَاءَت بِالوَحي، وَالوَحي كَلامٌ مُبَلَّغٌ إِلَىٰ المُرْسَلِ إِلَيهِ، فَإِذَا نَفَينَا الكلامَ انتفَىٰ الوحيُ، وإذا انتفَىٰ الوَحيُ انتَفَىٰ الشرعُ.

أَمَّا القَدرُ؛ فَلِأَنَّ الخلقَ يَقَعُ بِأَمرِهِ بِقَولِهِ: «كن»؛ فيكون، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]»[1].

وكل الأقوال الباطلة المخالفة لمعتقد أهل السنة - ظهرت بعد عهد الصحابة الذي كان سليمًا من الشوائب والانحرافات المشؤومة، ولم يُحْدِث القول بخلق القرآن إلا الجهمية من المعتزلة، وهو مِن أعظم الفتن التي مَرَّت بها الأمة الإسلامية في تاريخها، وكان أول من أحدث القول بخلق القرآن هو (الجعد بن درهم) سنة أربع وعشرين ومائة هجرية، ولما هلك أخذ الراية من بعده (الجهم بن

(١) «شرح الواسطِيَّة» (ص٤٦٧- ٤٦٨).

صفوان) سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية.

ولمَّا بدأ القرن الثالث الهجري تولىٰ نشر هذه البدعة بِشر بن غياث المريسي سنة ثماني عشرة ومائتين هجرية، ثم تلقاها أحمد بن أبي دؤاد سنة أربعين ومائتين هجرية، وزَيَّنها للمأمون حتىٰ اعتنقها، وحمل الناس عليها وأكرههم علىٰ اعتقادها، وحذا حذوه مِن بعده أخوه المعتصم والواثق.

وفي زمن هؤلاء الثلاثة الخلفاء العباسيين نزلت المحنة والبلاء بعلماء أهل السنة والجماعة الذين ثبتوا في اعتقادهم علىٰ منهج السلف ورَدُّوا كيد المعتزلة في نحورهم ببيان الحق في كلام الله تعالىٰ، حتىٰ إن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضُرِب في هذه المحنة؛ كي يَحصلوا منه علىٰ أدنىٰ كلمة تُوافق مذهب الاعتزال - فلم يستطيعوا إلىٰ ذلك سبيلًا، فثبت رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ التمسك بعقيدة السلف الصالح حتىٰ كان سببًا في حفظ العقيدة السلفية الصحيحة التي حماها الله من التلوث ببراثن الجهمية والمعتزلة، وبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بموقفه ذلك بُطلان ما دَبَّره الجهمية والمعتزلة من الكيد للإسلام، فبلغ الأمة فساد قولهم بأن القرآن مخلوق، ولم ترتفع تلك الفتنة، وهي فتنة القول بخلق القرآن إلَّا في زمن المتوكل سنة أربع وثلاثين ومائتين، وبسبب تلك المحنة التي امتُحن فيها أئمةُ الإسلام، وثَبَت فيها إمامُ أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل تَنازع الناسُ في القرآن نزاعًا كبيرًا[1].



(١) انظر: «مباحث العقيدة في سورة الزمر»، لناصر الشيخ (ص ٥٣)، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.





قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

«وَقَد دَخَلَ - أيضًا - فِيما ذَكرنَاهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكتبِهِ وَبِملائكتِهِ وَرسلِهِ - الإيمانُ بِأَنَّ المؤمنينَ يَرونَهُ يومَ القيامةِ عِيَانًا بِأَبصَارِهِم، كَمَا يَرونَ الشَّمسَ صَحْوًا لَيسَ دُونَها سَحَابٌ، وَكَمَا يَرونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ.

يَرَونَهُ - سبحانه - وَهُم فِي عَرَصَاتِ القيامةِ، ثُمَّ يَرَوْنَه بَعدَ دخولِ الجنَّةِ كَمَا يَشاءُ اللهُ».

الشرح:

هذه المسألة يُلحقونها في باب الصِّفات، وهي تتعلق برؤية العبد لربه، ولكنهم يُلحقونها بباب الصفات، مع أن البحث في رؤية العبد لربه وليس العكس.

ومسألة رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ مُتشعبة؛ إذ تشتمل على ما يتعلق برؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا عيانًا، ورؤيته جل وعلا منامًا، ورؤية النبي ﷺ لربِّه ليلة المعراج، ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة، وكذلك رؤية المنافقين والكافرين له جل جلاله يوم القيامة.

أولًا: رؤية الله في الدنيا يقظة:

رؤية الله في الدنيا يقظة غير واقعة شرعًا، وغير مُمكنة، وقد اتفقت الأمةُ على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا بعينه، ولم ينازعوا في ذلك إلا ما شَذَّ من بعض غُلاة الصُّوفية؛ فقد زعموا أنه يجوز رؤية الله في الدنيا، وأنه يَزورهم ويَزورونه في الحضرة الإلهية

ويَرَوْنه[١]، وهؤلاء لا عبرة بخلافهم؛ إذ كله كذب ودجل.

ومَن ادَّعىٰ رؤية الله في الدنيا بعيني رأسه فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة، وهو ضالٌّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في ردِّه علىٰ مَن زعم رؤية الله في الدنيا يقظة: «مَن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرىٰ الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضالٌّ، مُخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل مِن موسىٰ، فإن هؤلاء يُستتابون، فإن تابوا وإلا قُتلوا»[٢].

وقد بَيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ علة عدم إمكان رؤية الله في الدنيا بالعين، حيث قال: «وإنَّما لم نَره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرَّائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قُوىٰ الآدميين حتىٰ أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلىٰ الله للجبل خَرَّ موسىٰ صعقًا، قال: سبحانك! تُبت إليك، وأنا أول المؤمنين بأنَّه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولهذا كان البشر يَعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلَّا مَن أيده الله، كما أيَّد نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

والأدلة التي استند عليها أهل السنة في إجماعهم علىٰ عدم وقوع رؤية الله في الدنيا يقظة - كثيرة؛ منها:

قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «صحيح مسلم»: «**تَعَلَّمُوا أنَّه لن يرىٰ**

---

(١) «المِلل والنِّحَل» للشَّهرستاني (١/ ١٠٥).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٠٤).

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٣٢).

أحدٌ مِنكم ربه عز وجل حتى يَموت»[١]، فهو صريح في عدم وقوع الرؤية البصرية لأحد من الناس لله جل وعلا في هذه الدار الدنيا حتى ولو كان نبيًّا؛ لأن الله - جل وعلا - قد مَنَع موسى عليه السلام مِن أن يَراه، وهو أحد أُولي العزم من الرسل، فكيف بمن دونه مِن سائر المؤمنين؟! فإن الله - جل وعلا - لما قال له موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فمنعه من أن يراه، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: لما تجلى الله للجبل تدكدك ولم يَثبت، فكيف يَثبت البشر الضعيف؟!

ثانيًا: رؤية الله عز وجل في المنام:

ذهب جمهور العلماء إلى جواز رؤية الله في المنام، وأنها قد تقع صحيحة، بل ذكر القاضي عياض رحمه الله اتفاق العلماء على هذه المسألة؛ فقال: «ولم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله في المنام»[٢].

وقال الإمام البَغوي رحمه الله: «رؤية الله في المنام جائزة؛ قال معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«إني نَعست فرأيت ربِّي»**، وتكون رؤيته - جَلَّت قُدرته - ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع، فإن رآه فوعد له جنة، أو مغفرة، أو نجاة من النار، فقوله حق، ووعده صدق، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته، وإن رآه معرضًا عنه فهو تحذير من الذنوب؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وإن أعطاه شيئًا من متاع الدنيا فأخذه، فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يَعظم بها أجرُه، لا يَزال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) «إكمال المُعْلِم بفوائد مُسلم» (٧/ ٢٢٠) ط. دار الوفاء.

يضطرب فيها حتىٰ يُؤديه إلىٰ الرحمة، وحسن العاقبة»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن رأىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ في المنام فإنَّه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرَّائي؛ إن كان صالحًا رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحسن صورة...»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «وقد يرىٰ المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة علىٰ قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأىٰ ما يُشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق...»[(٣)].

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ **عند تفسير قوله تعالىٰ:** ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]: «فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «...**فإذا أنا بربي** عَزَّ وَجَلَّ **في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ قلت: لا أدري يا رب**». أعادها ثلاثًا، «**فرأيته وضع كفه بين كتفي حتىٰ وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلىٰ لي كل شيء وعرفتُ...**»، فهو حديث المنام المَشهور، ومَن جعله يقظة فقد غَلط، وهو في السُّنن من طرق»[(٤)].

ثالثًا: رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ليلة المعراج:

بعد اتفاق أهل السنة والجماعة علىٰ أن الله تعالىٰ لا يراه أحد في الدنيا يقظة فقد اختلفوا في رؤية نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ليلة المعراج؛ قال الإمام ابن القيم: «حكىٰ عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب (الرؤية)

---

(١) «شرح السنة» (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٥١).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٩٠).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٨١).

له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وشيخنا - أي: ابن تيمية - يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه ﷺ رآه ﷻ، ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**حجابُه النُّورُ**»[(١)]، فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**رأيتُ نُورًا**»[(٢)][(٣)].

وهو ما رجَّحه - أيضًا - شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»، حيث قال رحمه الله: «ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنَّه لم يَره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دَلَّت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة وأئمة المسلمين، ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمدًا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إمَّا إطلاق الرؤية، وإمَّا تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: «**أتاني البارحةَ رَبِّي في أحسن صورة**»[(٤)] الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسرًا»[(٥)].

فحملوا الآثار المُطلقة الواردة في الرؤية؛ كأثر ابن عباس: «**رأى محمدٌ ربَّه**»- على الرؤية القلبية، وحملوا الآثار النافية للرؤية؛ كأثر

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» (١/ ٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٧)، وأحمد (٣٣٠٤) وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٩).

عائشة رضي الله عنها على الرؤية البصرية؛ لأنه - من خلال التَّتبع- لم يَرِد عن أحد منهم أنه قال: رآه بعينه، وعليه فلا تعارض بين هذه النصوص.

رابعًا: رؤية الله عز وجل في الآخرة:

وأما في الآخرة فهي جائزة عقلًا وواقعة شرعًا، ولا يَرِد على هذا قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فقد استدل به المعتزلة على نفي الرؤية مطلقًا، مع أن المراد بالآية ليس نفي الرؤية، وإنما المراد نفي الإدراك؛ لأنها سِيقت مساق المدح، ولو كان المراد نفي الرؤية لما كان في ذلك مدح؛ لأن المعدوم هو الذي لا يُرَى، والكمال في إثبات الرؤية هو نفي الإدراك؛ لأن النفي المحض لا يأتي في صفات الله، وإنما الذي يأتي هو النفي الذي يستلزم إثبات ضده من الكمال.

فالمعنى: أنه يُرى ولا يحاط به رؤيةً، فـ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لكمال عظمته، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا لكمال عظمته، و﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لكمال قوته واقتداره، وهكذا.

وقد ورد عن بعض السلف أن الآية تفيد نفي الرؤية في الدنيا، فروى ابن كثير عن إسماعيل بن علية في قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أنه قال: «هذا في الدنيا».

وقد ذهب الآخرون إلى أن هذا النفي العام لرؤية جميع الأبصار له سبحانه وتعالى مُخَصَّصٌ بما ثبت من رؤية المؤمنين له جل وعلا في الآخرة[1].

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله: «دلَّ الكتابُ والسنَّةُ المُتواتِرَةُ وَإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةُ أهلِ الإسلامِ والحديثِ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرى يومَ القيامَةِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٩).

بِالأبصارِ عِيَانًا، كَمَا يُرىٰ القَمَرُ ليلةَ البدرِ صَحْوًا، وَكَمَا تُرىٰ الشَّمسُ في الظَّهيرة، فَإِن كَانَ مَا أَخبَرَ به اللهُ وَرَسُوله عنه من ذلك حَقِيقَةً - وإنَّ له والله حقَّ الحقيقة - فَلَا يُمكِنُ أن يَروهُ إِلَّا مِن فَوقِهِم؛ لاستِحَالَةِ أَن يَروهُ أسفل منهم، أو مِن خلفهم، أو أمامهم، وَنَحو ذَلِكَ...، فلَا يَجتَمِعُ فِي قَلبِ العبد بعد الاطلاع عَلَىٰ هَذِهِ الأَحَادِيث وَفَهِمَ مَعنَاهَا إنكارُها والشهادةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ أَبَدًا»[(١)].

أ- رؤية المؤمنين لربِّهم جلَّ وعلا:

بَيَّن المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا أنه قَد دَخَلَ فِي الإيمانِ باللهِ وَكُتبِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسلِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ المُؤمِنِينَ يرونَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يومَ القيامةِ؛ فَمَنِ لَم يُؤمن بِأَنَّهُ - سبحانه - يُرَىٰ يومَ القيامةِ فَقد رَدَّ أَدِلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيهِ سَلفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتها، وَلَم يُؤمن بِاللهِ وَمَلائكتِهِ وكتبِهِ وَرسلِهِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيخص المؤمنين بمزيد من الإنعام يوم القيامة، وهو رؤيته جل وعلا، فقد روىٰ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله: «**هَل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟**». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**هل تُضارون في الشَّمس ليس دونها سحاب؟**». قالوا: لا. قال: «**فإنَّكم ترونه كذلك...**»، الحديث[(٢)].

وسيخصهم في الجنة بأعظم نعمة أنعم عليهم بها؛ ألا وهي تشريفهم وإكرامهم بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في جنة عدن، كما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

---

(١) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص ٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨٨) ومسلم (٢٦٧).

وقال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفّفين: ١٥].

قال الإمامُ الشافعيُّ: «فَدَلَّ هذا علىٰ أنَّ المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالىٰ».

وقال جل شأنه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥].

فالمزيد هنا هو: النَّظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ، كما فسَّره بذلك علي وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنىٰ: الجنة، والزيادة: هي النظر إلىٰ وجه الله الكريم، كما فَسَّرها بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ! فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ، **وهي الزيادة، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»[(١)].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالىٰ منهم بمنه وكرمه... آمين»[(٢)].

ب- رؤية الكفار والمنافقين لربِّهم جل وعلا:

أَمَّا الكفارُ والمُنَافِقونَ، فَقَد ذكر شيخُ الإسلام أنَّ الناسَ قد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦) من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٩).

تنازعوا في ذلك علىٰ ثَلَاثَةِ أَقوالٍ؛ فقال: «فَأَمَّا مَسْأَلَةُ رُؤْيَةِ الكُفَّارِ فَأَوَّلُ مَا انْتَشَرَ الكَلَامُ فِيهَا، وَتَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا- فِيمَا بَلَغَنَا- بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ مِن الهِجْرَةِ، وَأَمْسَكَ عَن الكَلَام فِي هَذَا قَوْمٌ مِن العُلَمَاءِ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا آخَرُونَ؛ فَاخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، مَعَ أَنِّي مَا عَلِمْت أَنَّ أُولَئِكَ المُخْتَلِفِينَ فِيهَا تَلَاعَنُوا وَلَا تَهَاجَرُوا فِيهَا؛ إذْ فِي الفِرَقِ الثَّلَاثَةِ قَوْمٌ فِيهِمْ فَضْلٌ، وَهُمْ أَصْحَابُ سُنَّةٍ».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَالأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ فِي (رُؤْيَة الكُفَّارِ)**:

أَحَدُهَا: أَنَّ الكُفَّارَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ بِحَالٍ؛ لَا المُظْهِرُ لِلْكُفْرِ، وَلَا المُسِرُّ لَهُ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ المُتَأَخِّرِينَ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ عُمُومُ كَلَامِ المُتَقَدِّمِينَ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَرَاهُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمُنَافِقِيهَا، وَغَبَرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَذَلِكَ فِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَن المُنَافِقِينَ، فَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرِ بْنِ خُزَيْمَة مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ القَاضِي أَبُو يَعْلَىٰ نَحْوَهُ فِي حَدِيثِ إتْيَانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ فِي المَوْقِفِ؛ الحَدِيث المَشْهُور.

الثَّالِثُ: أَنَّ الكُفَّارَ يَرَوْنَهُ رُؤْيَةَ تَعْرِيفٍ وَتَعْذِيبٍ؛ كَاللِّصِّ إذَا رَأَىٰ السُّلْطَانَ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ؛ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُمْ، وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَوْلِ غَيْرِهِمْ؛ وَهُمْ فِي الأُصُولِ مُنْتَسِبُونَ إلَىٰ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِلَىٰ سَهْل بْنِ عَبْدِاللَّهِ التُّسْتَرِي»[١].

وممَّن رَجَّحَ رؤيَةَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لله فِي عَرصاتِ القيامةِ العَلَّامةُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «حادي الأرواح» (ص٢٦٢).

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٤٨٦).



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَوم الآخرِ: الإيمان بِكُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ مِمَّا يكونُ بَعدَ المَوتِ؛ فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ، وَبِعَذابِ القبرِ وَنَعِيمِهِ.

فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ، وَبِعَذابِ القَبرِ وَنَعِيمِهِ؛ فَأَمَّا الفِتنَةُ فَإِنَّ النَّاسَ يُفتَنُونَ فِي قُبُورِهِم فَيُقَالِ للرَّجُلِ: مَن رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَبِيُّكَ؟ فَـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فَيقولُ المُؤمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإسلامُ، وَمُحَمَّد نَبِيِّي.

وَأَمَّا المُرتابُ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدرِي، سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فَقُلتُهُ! فَيُضرَبُ بِمرزبَّةٍ مِن حَدِيدٍ؛ فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ إِلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَهَا لَصُعِقَ».

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الإيمان بالدار الآخرة، وتبدأ بأول منازلها بخروج الروح من الجسد، ثم ما يكون في القبر من فتنة، وأحوال الناس فيها بين مُثَبَّت ومُضَل، وما يترتب علىٰ هذه الفتنة من نعيم أو عذاب.

فقال شَيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَوم الآخرِ: الإيمان بِكُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ النَّبيُّ مِمَّا يكونُ بَعدَ المَوتِ؛ فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ، وَبِعَذابِ القبرِ وَنَعِيمِهِ».

واليوم الآخر سُمِّي كذلك؛ لتأخُّرِهِ عَنِ الدُّنيا. وَقِيلَ: لأنَّهُ لا يومَ بَعدَهُ، فَهُوَ آخرُ المراحِلِ، وسينقسم الناس فيه إلىٰ فريقين؛ فريق

في الجنة وفريق في السعير.

وقد اتَّفقت جَمِيعُ الشَّرائع السَّماويَّةِ علىٰ الإيمان باليوم الآخر؛ قَالَ الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وهذا مما يؤيده العَقلُ السَّليمُ والفِطرَةُ السَّويةُ؛ إذ ما خلق الله هذا الخلق عبثًا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يتركهم هملًا بلا حساب علىٰ ما اقترفوه في هذا الحياة، بل من مقتضىٰ عدله جل وعلا أن يجمع الأَوَّلين والآخرين للحساب والعرض، والقصاص من الظالم للمظلوم؛ قال جل جلاله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد دلَّ علىٰ سؤال القبر وما يكون فيه من نَعيم أو عذاب - بعض الآيات والسُّنَّة المُتواترة وكذلك إجماع أهل السُّنَّة والجَماعَة.

أمَّا دلالة القرآن؛ فمنها: قوله تعالىٰ في قصة آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة علىٰ عذاب البرزخ في القبور»[١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٦).

وقال العلامة الفوزان: «هذا في البرزخ قبل الآخرة؛ يُعرضون على النَّار صباحًا ومساء إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ على عذاب القبر، والعياذ بالله، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] **هذه ثلاثة عقوبات:**

الأولى: أنَّ الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنَّهم يُعَذَّبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثَّالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله»[(١)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

قال ابنُ تيمِيَّة: «قَالَ غيرُ وَاحِدٍ مِن العُلَماءِ: المَرَّةُ الأُولَى فِي الدُّنْيا، وَالثَّانِيَةُ فِي البَرْزَخِ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ فِي الآخِرَةِ»[(٢)].

ومنها: وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطابٌ لهم عند الَموت، وقد أخبر الملائكة - وهم الصادقون - أنَّهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صَحَّ أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾؛ فدل على أنَّ المراد به عذاب القبر[(٣)].

---

(١) «شرح الأصول الثلاثة» (ص٥١)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» (ص ٢٧٥) صالح الفوزان، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

وأمَّا السُّنَّة: فإنها متواترةٌ في ذلك، كما قال الحافظُ ابنُ رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تَوَاتَرَت الأحاديثُ في عذاب القبر»(١).

وقال ابنُ أبي العِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثُبُوت عذاب القبر ونعيمه لِمَن كان أهلًا»(٢).

وأمَّا الإجماعُ، فقد قال ابن تيمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنَّ المَيِّتَ إذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ»(٣).

وقال أيضًا: «العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَىٰ النَّفْسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ»(٤).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا كَمَا أنه مُقْتَضىٰ السُّنَّة الصَّحِيحَة فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بين أهل السُّنَّة.

قَالَ المروزي: قَالَ أَبُو عبد الله: عَذَاب القَبْر حقٌّ، لَا يُنكره إِلَّا ضالٌّ أَو مُضِلٌّ»(٥).

والإنسانُ بمجرد موتِه يدخل فِي اليومِ الآخرِ بالنِّسبة له، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَن مَاتَ قَامَت قِيَامَتُه.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ هُنَا مَسأَلَتَينِ عَظيمَتَينِ:

الأولىٰ: فِتنَةُ القَبر.

والثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ تِلكَ الفِتنَةِ مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ.

(١) «أهوال القبور» (ص٤٣).

(٢) «شرح الطَّحاوية» (ص٣٩٩).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨٤).

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨٢).

(٥) «الروح» (ص ٥٧).

المَسألَةُ الأُولىٰ: فِتنَةُ القَبر:

قَالَ شَيخُ الإسلام ابن تيمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الفِتْنَةُ فِي القُبُورِ فَهِيَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِلمَيِّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ المَلَكَانِ»(١).

وقَد رَوَت أَسمَاءُ بِنت أَبِي بَكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلِ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(٢).

وعن عثمانَ بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذا فَرغَ مِن دَفنِ الميتِ وَقَفَ عليهِ، فَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»(٣).

وَعَن أَبِي هُريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدعُو: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(٤).

وعن البراءِ بنِ عَازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ العَبدَ المُؤمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ. **فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ به**».

إِلَىٰ أَن قَالَ فِي العَبدِ الكَافِرِ: «**فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ**

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤) ومسلم (٩٠٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٦) (١٣٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥١١).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).

مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاهْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي»(١).

وَغيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ التي بَلَغت مبلَغَ التَّوَاتُرِ.

قَالَ شَيخُ الإسلام ابنُ تيمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ تَوَاتَرَت الأَحَادِيثُ عَن النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ البَراءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ»(٢).

وَقوله: «مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟» - هَذِهِ الأسئلة الثلاثة الِتي تُوَجَّهُ للمَيِّتِ فِي قَبرِهِ؛ قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللهُ: «يَعنِي: مَن رَبُّكَ الذِي خَلَقَكَ وَتعبدُهُ وَتَخصُّهُ بِالعِبَادَةِ؟ لِأَجلِ أن تَنتَظِمَ هَذِهِ الكَلمةُ توحيد الربوبيَّةِ، وَتوحيد الألوهيَّةِ.

و«المُرتاب»: الشَّاكُّ والمُنافقُ وشبههمَا، «فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»، يعني: لم يَلجِ الإيمانُ قلبَهُ، وإنَّمَا كانَ يقولُ كما يقولُ النَّاسُ مِن غيرِ أن يَصِلَ الإيمانُ إلىٰ قلبِهِ.

وَتَأَمَّل قولَهُ: «هاه هاه» كأنَّ شيئًا غَابَ عنهُ يريدُ أن يَتذكرَه، وَهَذا أشدُّ في التَّحَسُّرِ أن يتخيَّلَ أنَّهُ يَعْرِفُ الجوابَ، ولكن يُحالُ بينهُ وبينهُ، ويقولُ: «هاه هاه»، ثمَّ يقولُ: «سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ»، وَلَا يقولُ: رَبِّيَ الله، وَلَا ديني الإسلام، وَلَا نَبيِّ محمَّد؛ لأَنَّهُ فِي الدُّنيا مُرتابٌ شاكٌّ.

هذا إِذَا سُئِلَ فِي قَبرِهِ وَصَارَ أحوج مَا يكونُ إِلَىٰ الجَوَابِ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٦٣٠).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٥٧).

الصَّوَابِ يَعجزُ، وَيَقولُ: «لَا أدري سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا فقلتُه».

إِذًا؛ إيمانُه قولٌ فَقَط»[١].

وقولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَيُضرِبُ بِمرزَبَّةٍ مِن حديدٍ؛ فيصيحَ صحيةً يسمعهَا كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَها لصعقَ»- يُشير إلىٰ حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**وأمَّا المُنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديد ضربةً؛ فَيَصِيحُ صَيحةً يَسْمَعُهَا مَن يَلِيهِ غيرَ الثَّقَلينِ**»[٢]، والثَّقلان: هُم الإنسُ والجنُّ.

قالَ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيُضرب»: يَعني الذِي لم يُجِب، سواء كانَ الكافرَ أو المنافقَ، والضارب لَهُ المَلَكَانِ اللذانِ يَسألانِهِ.

والمرزبَّةُ: هِيَ مِطرقةٌ مِن حَدِيدٍ، وَقَد وَرَدَ فِي بعضِ الرواياتِ: أَنَّهُ لَوِ اجتَمَعَ عَلَيهَا أَهلُ مِنىٰ مَا أَقَلُّوها، فَإِذَا ضُرِب يَصيح صيحةً يَسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان، أي: صِياحًا مَسموعًا يَسمعه كلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يسمع صوته، وليس كلُّ شيء في أقطار الدُّنيا يَسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه كما مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِأَقْبُر للمُشركين علىٰ بَغْلَتِه، فَحَادت به حتىٰ كادت تُلقيه؛ لأنَّها سَمِعت أصواتَهم يُعذَّبون.

قوله: «إلا الإنسان»، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثَّقلين. يعني: أنه لا يَسمع هذا الصِّياح، وذلك لحكمٍ عظيمة منها:

أولًا: ما أشار إليه النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْر**»[٣].

---

(١) انظر: «شرح الواسطيَّة» (ص٤٨٠- ٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثانيًا: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهلَه إذا سَمعوا مَيِّتَهم يُعَذَّب ويَصيح لم يَسْتَقِرَّ لهم قَرارٌ.

رابعًا: عدم تَخْجِيل أهله؛ لأنَّ النَّاس يقولون: هذا ولدُكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نَهْلِك؛ لأنَّها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد تُوجب أن تسقط القلوب من مَعاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشىٰ عليه.

سادسًا: لو سَمِع النَّاسُ صُرَاخ هؤلاء المُعَذَّبين لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاس سوف يُؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب»[1].



(١) «شرح الواسِطيَّة» (ص٤٨٢، ٤٨٣).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ثُمَّ بَعدَ هَذِهِ الفتنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عذَابٌ إلىٰ أن تقومَ السَّاعةُ الكُبرىٰ فتُعاد الأرواحُ إلىٰ الأجساد، وتقوم القيامةُ التي أَخْبَرَ اللهُ بها في كتابه، وعلىٰ لِسانِ رسولِه، وأَجْمَع عليها المُسلمون؛ فيقوم النَّاسُ من قُبُورهم لِرَبِّ العالمين حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا وتدنو الشَّمسُ منهم فيُلْجِمُهم العَرَقُ».

الشرح:

هناك دور ثلاثة: (دنيا - برزخ - آخرة).

والعلاقة بين الروح والبدن في الدار الدنيا: أن البدن هو الأصل، والروح تبع له؛ فإذا عُذِّب أو نُعِّم البدن أحس الروح بذلك تبعًا للبدن.

وفي البرزخ، فالروح هو الأصل في النعيم والعذاب والبدن تبع له.

وأمَّا في الدار الآخرة فيكتمل الاثنان (الروح والبدن)؛ فيكون النعيم والعذاب مشتركًا بين هذا وذاك.

فلا بد من فهم العلاقة بين الروح والجسد في هذه الدور الثلاثة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الدُّور ثَلَاثًا: دَار الدُّنْيَا، وَدَار البرزخ، وَدَار القَرار، وَجعل لكلِّ دَارٍ أحكامًا تَخْتَص بهَا، وَرَكَّب هَذَا الإنسان من بَدَنٍ وَنَفس، وَجعل أَحْكَامَ دَار الدُّنْيَا علىٰ الأَبدَان والأرواح تبعًا لَهَا، وَلِهَذَا جَعَلَ أَحْكَامه الشَّرْعِيَّة مُرتبَة علىٰ

مَا يَظْهر من حركات اللِّسَان والجوارح، وإن أَضْمَرت النُّفُوسُ خِلَافه، وَجعل أَحْكَامَ البَرزخ علىٰ الأَرْوَاح والأبدان تبعًا لَهَا.

فكَمَا تبعت الأَرْوَاحُ الأَبدَانَ فِي أَحْكَام الدُّنْيَا؛ فتَأَلَّمت بِأَلمِها، والْتَذَّت بِرَاحتها، وَكَانَت هي الَّتِي باشَرَت أَسبَابَ النَّعيم وَالعَذَاب تَبِعت الأَبدَانُ الأَرْوَاحَ فِي نعيمِها وعذابها، والأرواح حِينَئِذٍ هي الَّتِي تُباشر العَذَابَ وَالنَّعِيمَ، فالأبدانُ هُنَا ظَاهِرَة والأرواح خَفِيَّة والأبدان كالقبور لَهَا، والأرواح هُنَاكَ ظَاهِرَة والأبدان خَفِيَّة فِي قُبُورها تَجري أَحْكَامُ البرزخ علىٰ الأَرْوَاح، فَتَسْرِي إِلَىٰ أبدانِها نعيمًا أَو عذابًا، كَمَا تَجري أَحكَامُ الدُّنْيَا علىٰ الأَبدَان فتَسْري إِلَىٰ أرواحِها نَعيمًا أَو عذَابًا، فَأَحِط بِهَذَا المَوضع عِلْمًا، واعرفه كَمَا يَنبغي يُزِل عَنْك كلَّ إشكالٍ يُورد عَلَيْك من دَاخل وخارج.

وَقد أرانا اللهُ - سُبْحَانَهُ - بِلُطْفِهِ وَرَحمته وهِدايته من ذَلِك أُنموذجًا فِي الدُّنْيَا من حَال النَّائِم، فَإِنَّ مَا يُنَعَّم بِهِ أَو يُعَذَّب فِي نومه يَجري علىٰ رُوحه أصلًا، وَالبدن تَبعُ لَهُ، وَقد يَقوىٰ حَتَّىٰ يُؤَثِّر فِي البدن تأثيرًا مُشاهدًا، فَيَرَىٰ النَّائِمُ فِي نومه أَنَّه ضُرِب فَيُصْبِح وَأَثَر الضَّرْب فِي جِسْمه، وَيرىٰ أنه قد أكل أَو شَرِب فيستيقظ وَهُوَ يَجد أَثَرَ الطَّعَام وَالشَّرَاب فِي فِيهِ، وَيذْهب عَنهُ الجُوعُ والظَّمأ.

وأعجب من ذَلِك أَنَّك ترىٰ النَّائِم يقوم فِي نَومه وَيَضْرب وَيَبطش ويُدَافع كَأَنَّهُ يقظان، وَهُوَ نَائِم لَا شُعُور لَهُ بشيء من ذَلِك، وَذَلِكَ أَنَّ الحكم لما جَرَىٰ علىٰ الرُّوح استعانت بِالبدنِ من خَارجه، وَلَو دخلت فِيهِ لاستيقظ وأَحسَّ، فَإِذا كَانَت الرُّوح تتألم وتتنعم وَيَصل ذَلِك إِلَىٰ بدنهَا بطرِيق الاستتباع، فَهَكَذَا فِي البرزخ بل أعظم، فَإِن تَجَرُّد الرُّوح هُنَالك أكمل وَأقوىٰ، وهيَ مُتَعَلقَةٌ ببدنِها لم تَنْقَطع

عَنهُ كلَّ الِانْقِطَاع، فَإِذا كَانَ يَوْم حشر الأجساد وَقيام النَّاس من قُبُورهم - صَار الحكمُ وَالنَّعِيم وَالعَذَاب علىٰ الأَرْوَاح والأجساد ظَاهرًا باديًا أصلًا.

وَمَتىٰ أَعْطَيْتَ هَذَا المَوضع حَقَّه - تبيَّن لَك أَنَّ مَا أَخْبَر بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِن عَذَاب القَبْر ونَعيمه وضِيقه وسَعَته وضَمه وَكَونه حُفْرَة من حفر النَّار أَو رَوْضَة من رياض الجنَّة - مُطَابق لِلعَقْلِ، وَأَنه حَقٌّ لَا مِرية فِيهِ، وَأَنَّ مَن أشكل عَلَيْهِ ذَلِك فَمِن سُوء فَهمه وَقِلَّة عِلمه أُتِي، كَمَا قيل:

وَكَم مِن عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وآفتُه من الفَهم السَّقيم

وأَعْجَب مِن ذلك: أن تَجِد النَّائمين في فِرَاشٍ واحدٍ، وهذا رُوحُه في النَّعيم، ويَستيقظُ وأَثَرُ النَّعيم علىٰ بَدنه، وهذا رُوحه في العَذَاب ويَستيقظ وأَثَرُ العَذَاب علىٰ بَدَنِه، ولَيْسَ عند أحدِهما خَبَرٌ بما عند الآخَر، فَأَمْرُ البَرْزَخِ أعجبُ مِن ذَلك.

والله - سبحانه - جَعَلَ أَمْرَ الآخرة، وما كان مُتَّصِلًا بها غَيْبًا، وحَجَبها عن إدراك المُكَلَّفين في هذه الدَّار، وذلك من كمال حكمته، ولِيتميز المؤمنون بالغيب عن غيرهم»(١).

المَسأَلَةُ الثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ فِتنَةِ القبر مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ:

وهي ما أشار إليها شيخ الإسلامِ بقوله: «ثُمَّ بَعْدَ هذِهِ الفِتْنَةِ إمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ».

ويبدأ العبد يعاين مصيره من ساعة الاحتضار، كما في حديث البَراءِ بن عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «كُنَّا فِي جنازة فِي بَقِيع الغَرْقَد، فَأَتَانا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَعَدَ وقَعَدْنا حوله، كَأَنَّ علىٰ رُءوسنا الطَّير، وَهُوَ يُلحَدُ

(١) «الروح» (ص٦٣، ٦٤) بتصرف يسير.

لَهُ، فَقَالَ: «أعوذُ بِالله من عَذَاب القَبْر»؛ ثَلَاث مَرَّات، ثمَّ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ المُؤمن إِذا كَانَ فِي إقبالٍ من الآخِرَة وَانْقِطَاع من الدُّنْيَا نزلت إِلَيْهِ مَلَائِكَة كَأَنَّ وُجُوهَهم الشَّمْسُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَر، ثمَّ يَجِيء مَلَكُ المَوْت حَتَّىٰ يجلس عِنْد رَأسه، فَيَقُول: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَة، اخرجي إِلَىٰ مَغْفرَة من الله ورضوان، قَالَ: فتخرج تَسِيلُ كَمَا تسيلُ القَطرة من فِيِّ السِّقاء، فيأخذها، فَإِذا أَخذهَا لم يَدَعُوها فِي يَدِه طَرْفَة عينٍ حَتَّىٰ يأخذوها، فيَجعلوها فِي ذَلِك الكَفَنِ وَذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخرج مِنهَا كأطيب نَفْحَة مِسْكٍ وُجِدت علىٰ وَجهِ الأَرْض، قَالَ: فَيَصْعَدُون بهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بهَا - يعْني: علىٰ مَلأٍ من المَلَائِكَة - إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوح الطَّيِّب؟ فَيَقُولُونَ: فلَان ابْن فلَان، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونه فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهوا بهَا إِلَىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا، فيستفتحون لَهُ؛ فيفتح لَهُ، فَيُشَيِّعه من كلِّ سَمَاء مُقَرَّبوها إِلَىٰ السَّمَاء الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهِي بهَا إِلَىٰ السَّمَاء الَّتِي فِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ، فَيَقُول اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَاب عَبْدِي فِي عِلِّيين، وأَعِيدُوه إِلَىٰ الأَرْض؛ فَإِنِي مِنْهَا خَلَقْتُهمْ، وفيهَا أُعِيدُهم، وَمنها أُخْرِجُهم تَارَة أُخْرَىٰ. قَالَ: فَتُعاد رُوحُه فِي جسده، فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّك؟ فَيَقُول: رَبِّي الله. فَيَقُولُونَ لَهُ: مَا دينُك؟ فَيَقُول: ديني الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرجلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُم؟ فَيَقُول: هُوَ رَسُولُ الله ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُك بِهَذَا؟ فَيَقُول: قَرَأْتُ كِتَابَ الله؛ فآمنتُ بِهِ وصَدَّقْتُ. فيُنادي مُنَاد من السَّمَاء: أَن صَدَقَ عَبْدي. فَأَفْرِشُوه من الجنَّة، وافتحوا لَهُ بَابًا من الجنَّة. قَالَ: فَيَأْتِيه من رِيحِهَا وطِيبِها، ويُفْسَح لَهُ فِي قَبره مَدَّ بَصَره. قَالَ: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوَجْه، حَسَنُ الثِّيَاب، طَيِّبُ الرِّيح؛ فَيَقُول: أَبْشِر بِالَّذِي يَسُرُّك؛ هَذَا يَوْمُك الَّذِي كنت تُوعد. فَيَقُول لَهُ: مَن أَنتَ؟ فَوَجْهُك الوَجْهُ الَّذِي

يَجِيء بِالخَير! فَيقُول: أَنا عَملكُ الصَّالح. فَيقُول: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَة حَتَّىٰ أَرْجع إِلَىٰ أَهلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِر إِذا كَانَ فِي انْقِطَاع من الدُّنْيَا وإقبال من الآخِرَة، نَزَل إِلَيْهِ من السَّمَاء مَلَائِكَة سُود الوُجُوه مَعَهم المُسُوح؛ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَر، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْت حَتَّىٰ يَجلس عِنْد رَأسه، فَيَقُول: أَيَّتُها النَّفس الخبيثة اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ من الله وَغَضبٍ، قَالَ: فتتفرق فِي جَسده، فينتزعها كَمَا يُنتَزعُ السَّفُّود من الصُّوفِ المَبلول، فيأخذها، فَإِذا أَخذهَا لم يَدَعُوها فِي يَدِه طَرْفَةَ عَين حَتَّىٰ يَجعلوها فِي تِلكَ المُسُوح، وَيخرج مِنْهَا كأنتنِ رِيح جِيفة وُجدت علىٰ وَجهِ الأرض، فيَصعدون بهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بهَا علىٰ مَلأٍ من المَلَائِكَة إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرِّيحُ الخَبيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فلَان ابْن فلَان، بأقبح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بها فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَنْتَهِي بِهِ إِلَىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا؛ فيُستفتح لَهُ فَلَا يُفتح، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ فيقُول الله ﷻ: اكْتُبوا كِتَابَه فِي سِجِّين فِي الأَرْض السُّفْلىٰ. فَتُطرح رُوحه طَرْحًا، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعاد رُوحه فِي جَسَدِه، ويأتيه مَلَكان، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَن رَبُّك؟ فَيَقُول: هاه هاه، لَا أدري! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجلُ الذي بُعِثَ فِيكُم؟ فَيَقُول: هاه هاه، لَا أدري! فيُنادي مُنَاد من السَّمَاء: أَن كَذَبَ عَبدِي؛ فَأَفْرِشُوه من النَّار، وافتحوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّار؛ فيأتيه من حَرِّهَا وسَمُومها، ويُضيَّق عَلَيْهِ قَبرُه حَتَّىٰ تَختَلف فِيهِ أضلاعُه، ويأتيه رجلٌ قَبيحُ الوَجه، قَبيحُ الثِّياب، مُنْتن الرِّيح، فَيَقُول: أَبْشر بِالَّذِي يسوؤك! هَذا يَوْمُك الَّذِي كنت تُوعد. فَيَقُول: من أَنْتَ؟ فَوَجْهُك الوَجْهُ الَّذِي

يَجِيءِ بِالشَّرِّ. فَيَقُول: أَنا عَمَلُك الخَبيثُ. فَيَقُول: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

ولمَّا فَرَغَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من الكلام عَلىٰ ما يكون في البرزخ بعد الموت من فِتنةٍ ونعيم أو عذابٍ، أشار إلىٰ ما يكون في الدَّار الآخرة التي تَبدأ بالقيامة الكُبرىٰ؛ فقال: **«إلىٰ أن تقومَ السَّاعةُ الكُبرىٰ فتُعاد الأرواحُ إلىٰ الأجساد، وتقوم القيامةُ التي أَخْبَر اللهُ بها في كتابه، وعلىٰ لِسانِ رسولِه، وأَجْمَع عليها المُسلمون»**.

والقيامة في العَربية مَصدر قام يقوم، ودخلها التأنيثُ للمُبالغة علىٰ عادة العَرب.

واختُلف في تَسميتها بذلك علىٰ أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها، أي: الأهوال والأمور التي تَحْدُث فيها.

الثاني: لقيام الخَلْق مِن قُبورهم إليها؛ قال تَعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعَارج: ٤٣].

الثالث: لقيام النَّاس لِرَبِّ العالمين؛ فعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفّفين: ٦]، قال: **«يقومُ أحدُهُم في رَشْحِه إلىٰ نِصف أُذُنَيْه»**(٢).

الرَّابع: لِقيام الرُّوح والملائكة صفًّا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النَّبإ: ٣٨]»(٣).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) انظر: «التذكرة» للقرطبي (ص١٨٧).

وتعبيرُ المصنف بـ«الكبرىٰ» هنا إشارةٌ إلىٰ القيامة الصُّغرىٰ؛ **فإنَّ القيامةَ قيامتان**: قيامةٌ صُغرىٰ، وهي الموتُ. وقيامةٌ كبرىٰ، وهي التي يقومُ فيها النَّاسُ مِن قُبُورهم لربِّ العالمين.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا: واعلم أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ مات فقد قامت قيامتُه، ولكنها قيامةٌ صُغرىٰ وكُبرىٰ.

فالصُّغرىٰ: هي ما يقومُ علىٰ كل إنسانٍ في خَاصَّتِه من خروج رُوحه، وفِراق أهله، وانقطاع سَعْيه، وحُصوله علىٰ عمله؛ إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فَشَرٌّ.

والقيامة الكبرىٰ: هي التي تَعُمُّ النَّاسَ، وتأخذهم أخذةً واحدةً.

والدَّليلُ علىٰ أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ يموتُ فقد قامت قيامتُه: قول النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومٍ من الأعرابِ وقد سألوه: مَتىٰ القِيامةُ؟ فنظر إلىٰ أحدث إنسانٍ منهم، فقال: «**إنْ يَعِشْ هذا لَم يُدركه الهَرَمُ قَامَت عليكم سَاعَتُكم**»[1]»[2].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَتُعادُ الأرواحُ إلىٰ الأجسادِ**»، وذلك بعد النفخة الثانية بالصُّور، وهذه الإعادةُ غيرُ الإعادة التي كانت في البرزخ.

قال ابنُ أبي العِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمانُ بالمَعاد مِمَّا دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّة والعَقل والفِطرة السَّليمة.

فأخبرَ اللهُ - سبحانه - في كتابه العزيز، وأَقامَ الدَّليل عليه، ورَدَّ علىٰ مُنكريه في غالب سُور القرآن، وذلك أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم مُتَّفِقون علىٰ الإيمانِ بالله، فإنَّ الإقرارَ بالربِّ عامٌّ في بني آدم، وهو فِطري، وكُلُّهم يُقِرُّ بالربِّ إلا مَن عانَدَ؛ كفِرعون، بخلاف الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) «التذكرة» (ص١٨٧، ١٨٨).

باليوم الآخر فإنَّ مُنكريه كثيرون، ومحمَّد ﷺ لَمَّا كان خاتم الأنبياء، وكان قد بُعِثَ هو والسَّاعة كهاتين، وكان هو الحاشر والمُقفِّي بَيَّن تفصيل الآخرة بيانًا لا يُوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظَنَّ طائفةٌ مِن المُتفلسفة ونحوهم أنَّه لم يُفصح بمعاد الأبدان إلا مُحمَّد ﷺ، وجَعلوا هذه حُجَّة لهم في أنَّه من باب التخييل والخِطاب الجُمهوري.

والقرآنُ بَيَّن مَعاد النَّفس عند الموت، ومَعادَ البدن عند القيامة الكبرىٰ في غير مَوضع، وهؤلاء يُنكرون القيامة الكبرىٰ، ويُنكرون معاد الأبدان، ويقول مَن يقول منهم: إنَّه لم يُخبر به إلا محمَّدٌ ﷺ عن طريق التخييل.

وهذا كذبٌ؛ فإنَّ القِيامة الكبرىٰ هي معروفةٌ عند الأنبياء من آدم إلىٰ نُوح إلىٰ إبراهيم ومُوسىٰ وعِيسىٰ وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر اللهُ بها من حين أهبط آدم؛ فقال تَعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥]، ولـمَّا قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

وأمَّا نوحٌ عليه السلام فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧-١٨]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَراء: ٨٢]، إلىٰ آخر القصة وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وأمَّا موسىٰ عليه السلام فقال الله لَـمَّا ناجاه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦].

بل مُؤمنُ آلِ فِرعون كان يَعلم المَعاد، وإنَّما آمَنَ بموسىٰ؛ قال تَعالىٰ: حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، إلىٰ قوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقال موسىٰ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر في قِصَّة البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٣].

وقد أخبرَ اللهُ أنَّه أرسلَ الرُّسل مُبَشِّرين ومُنذرين في آياتٍ مِن القُرآن، وأَخْبَر عن أهلِ النَّار أنَّهم إذا قال لهم خزنَتُها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧١].

وهذا اعترافٌ من أصناف الكفار الدَّاخلين جهَنَّم: أنَّ الرسلَ أَنْذَرَتْهم لِقاء يومهم هذا.

فجميعُ الرُّسلِ أنذروا بما أَنْذَر به خاتَمُهم من عقوبات المُذنبين في الدُّنيا والآخرة، فَعامَّةُ سُور القرآن التي فيها ذِكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدُّنيا والآخرة، وأَمَرَ نَبيَّه أن يُقسم به علىٰ المعاد فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ﴾ [سَبَإ: ٣]، الآيات، وقال تَعالىٰ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يُونس: ٥٣]، وقال تَعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التّغابُن: ٧]، وأخبر عن اقترابها فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القَمَر: ١]،

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ [المعارج: ١-٢]، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦-٧].

وقد ذمَّ اللهُ المُكذِّبين بالمَعاد فقال: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾ [الشورىٰ: ١٨]، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ [النحل: ٣٨]، إلىٰ أن قال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، إلخ»[(١)].

وقد دلَّ - أيضًا - علىٰ قيام السَّاعة وحَشر الناس في اليوم الآخر أدلةٌ مُستفيضة مِن السُّنَّة، منها: ما جاء في حديث جبريل عليه السَّلام؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، **فقال: «أن تُؤمن بالله، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه»**[(٢)]، وفي رواية: **«والبَعْث بعدَ المَوْت»**[(٣)].

(١) «شرح الطَّحاوية» (ص٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجها ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٣٨٩) (١٦٨) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٧٢) (٣٠٤٤٥)، وصححها الألباني في «التعليقات الحسان» (١٦٨).

وكذلك ما روي عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أيُّها النَّاس، إنَّكم مَحْشُورُونَ إلى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤]، **ثُمَّ إنَّ أوَّلَ مَن يُكسىٰ يوم القيامة إبراهيمُ**»[(١)].

وقد أجمعَ علىٰ ذلك المُسلمون إجماعًا قطعيًّا، بل حتىٰ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ.

وكذلك العَقلُ يقضي بأن هناك يومًا آخر للجَزَاء والحِساب، وإلا لكان إيجاد الخلائق عَبَثًا، واللهُ مُنَزَّه عن ذلك، وهذا- أيضًا- من تمام إقامة العدل بين الخلق؛ **قال ابنُ القيِّم**: «ولهذا كان الصَّوَابُ أنَّ المَعاد معلومٌ بالعقل مع الشَّرع، وأنَّ كمالَ الرَّبِّ تَعالىٰ، وكمالَ أسمائه وصفاته تَقتضيه وتُوجبه، وأنَّه مُنزَّه عَمَّا يقولُه مُنكروه، كما يُنزَّه كمالُه عن سائر العُيوب والنَّقائص»[(٢)].

ثم قال المُصنِّف رحمه الله: «**فيقوم النَّاسُ مِن قُبُورهم لربِّ العَالمين حُفاة عُراة غُرْلًا**».

والحُفاة: جَمع حَاف، وهو الذي لا يلبس نِعالًا ولا خُفًّا.

والعراة: جمع عار، وهو الذي ليس علىٰ جسده لباس، ولا شيء يستره.

والغُرْل: جمع أغرل، وهو الذي لم يُختن؛ إذ ترجع إليه الجلدة التي قطعت عند الختان.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تُحْشَرُون حُفاة عُرَاة غُرْلًا**». قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، الرِّجال والنِّساء

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٠) ومسلم (٢٨٦٠).

(٢) «الفوائد» (ص٢٩).

يَنظر بعضهم إلىٰ بعض! فقال: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِن أن يَهُمَّهم ذلك**»(١).

ثم ذكر المُصَنِّفُ بعض أهوال هذا اليوم، فقال: «وتدنو الشَّمسُ منهم فَيُلْجِمُهم العَرَقُ».

وقد صحَّ عن المِقداد بن الأسود أنَّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُدنىٰ الشَّمْسُ يوم القيامة من الخَلْقِ حَتَّىٰ تكون مِنهم كَمِقْدار مِيلٍ، فَيَكُون النَّاسُ علىٰ قَدْر أعمالِهم في العَرَقِ؛ فَمِنهم مَن يكون إلىٰ كَعْبَيه، ومِنهم مَن يكون إلىٰ رُكبتيه، ومنهم مَن يكون إلىٰ حِقْوَيْه، ومِنهم مَن يُلجمه العَرَقُ إلجامًا**»(٢).

إلا أن هناك أناسًا يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله، كما أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ في الحديث، وهم: «**إمامٌ عادلٌ. وشَابٌّ نَشَأ في طاعة الله. ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّق بالمَساجد. ورَجُلان تَحابَّا في الله اجتمعا عليه وتَفرَّقا عليه. ورَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصب وجَمال فقال: إني أخافُ اللهَ. ورجل تَصَدَّق بصدقةٍ فَأَخْفاها حتىٰ لا تَعلم شِمَالُه ما تُنفق يمينُه. ورجلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا فَفَاضَتْ عَيْناه**»(٣).

وقد جاء في روايات أخرىٰ تبين أنَّ الله يُظِلُّ في ظِلِّه في هذا اليوم العظيم الرهيب أصنافًا أخرىٰ؛ منها:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول يوم القيامة: «**أين المُتَحابُّون بِجَلالي، اليوم أُظِلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٠٦) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

وعن كعب بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن أَنْظَرَ مُعسرًا، أو وَضَع له - أَظَلَّهُ الله يوم القيامة تحت ظِلِّ عَرشه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه**»[(١)].

نسأل الله أن نكون من هؤلاء، وأن يسترنا في هذا اليوم الطويل الشديد الرَّهيب، وأن يُدخلنا الجنة من غير حساب ولا سابقة عذاب.



---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٦) من حديث كعب بن عمرو رضي الله عنه.




قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَتُنْصَبُ المَوَازِينُ فَتُوزن بِها أعمالُ العِباد؛ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّراءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَات لَهُم، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَون بها».

الشرح:

بعد أن يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ببعث الناس من قبورهم- تعود الأرواح إلىٰ أجسادها، وترجع الأجساد كما كانت قبل أن تبلىٰ، فتنبت كما ينبت الحِبَّة[1] في حميل السَّيل[2].

فترجع كلُّ رُوح إلىٰ جسدها الذي كانت فيه في الدنيا، كما جاء في «مسند أحمد» مرفوعًا: «**حَتَّىٰ إذا كانوا يوم القيامة دَخَلَتْ**

(١) **الحبة**: بذور النبات.

(٢) **حميل السيل**: ما يحمله السَّيْل من طين أو غُثَاء وغيره.

كلُّ نفسٍ في جَسدها»[١]، أي: دخلت كلُّ رُوح في جسدها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**كلُّ ابن آدم تأكله الأرض، إلا عَجْبَ الذَّنَب**[٢] **منه يَنبت، ويرسل الله ماء الحياة، فينبتون فيه نبات الخَضِر، حتىٰ إذا أخرجت الأجساد أرسلَ اللهُ الأرواح، وكان كلُّ روح أسرع إلىٰ صاحبه من الطَّرف، ثم يُنفخ في الصور فإذا هم قيام يَنظرون**»[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «تَنبت أجسادهم في القبور، فإذا نفخ في الصُّور رَجعت كلُّ روح إلىٰ جسدها فدخلت فيه، فانشقَّت الأرض عنه فقام مِن قبره، وفي حديث الصُّور أنَّ إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعًا؛ أرواح المسلمين نورًا، والأخرىٰ مظلمة؛ فيجمعها جميعًا، فيعلقها في الصور، ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله: «وعِزَّتي ليَرجعن كلُّ رُوح إلىٰ جسده، فتخرج الأرواح من الصور مثل النَّحل قد ملأت ما بين السَّماء والأرض فيأتي كلُّ رُوح إلىٰ جسده فيدخل، ويأمر الله الأرض فتَنشق عنهم فيخرجون سراعًا إلىٰ ربهم يَنسلون، مُهطعين إلىٰ الدَّاعي، يسمعون المنادي من مكان قريب، فإذا هم قيام ينظرون، وهذا معلوم بالضرورة أنَّ الرسول أخبر به، وأنَّ الله سبحانه لا يُنشئ لهم أرواحًا غير أرواحهم التي كانت في الدنيا، بل هي الأرواح التي اكتسبت الخير والشر، أنشأ أبدانها

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٢٤) (٢٧٤٢٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٩).

(٢) هو العظم اللطيف الذي في أسفل الصُّلب، وهو رأس العُصعص، ويقال له: (عَجْمُ) بالميم، وهو أولُ ما يُخلق من الآدمي، وهو الذي يَبقىٰ منه؛ ليُعاد تركيب الخلق عليه. «شرح النووي علىٰ مسلم» (٩/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٣٢) (٨٩١)، وقال الألباني في «ظلال الجنة» (٨٩١): «إسناده جيد».

نشأة أخرىٰ، ثُمَّ رَدَّها إليها»[١].

وقال أيضًا: «إن الروح والجسد يختصمان بين يدي الرب ﷻ يوم القيامة، قال عليُّ بن عبد العزيز: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبىٰ سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما تَزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتىٰ يُخاصم الرُّوحُ الجسدَ، فيقول الروح: يا رب إنَّما كنت روحًا منك جعلتني في هذا الجسد، فلا ذنبَ لي! ويقول الجسد: يا رب كنت جسدًا خَلقتني ودخل فيَّ هذا الرُّوح مثل النار؛ فَبِه كنتُ أقوم، وبه كنت أقعد، وبه أذهب، وبه أجيء؛ لا ذنب لي! قال: فيقال: أنا أقضي بينكما؛ أخبراني عن أعمىٰ ومقعد دخلَا حائطًا فقال المقعد للأعمىٰ: إني أرىٰ ثمرًا فلو كانت لي رِجْلان لتناولتُ! فقال الأعمىٰ: أنا أحملُك علىٰ رقبتي. فحمله فتناول من الثمر فأَكَلَا جميعًا، فعلىٰ مَن الذَّنب؟ قالا: عليهما جميعًا. فقال: قضيتُما علىٰ أنفسكما»[٢].

ثم بعد إعادة الأرواح إلىٰ أجسادها يساق الناس إلىٰ أرض المحشر، حُفاة عُراة غُرلًا، وتدنو الشمس من الخلائق، فيكون الناس في عرقهم علىٰ قدر أعمالهم، حتىٰ يبلغ بهم الأمر مبلغه، فيأتوا من نبي إلىٰ نبي، حتىٰ يأتوا النبي ﷺ؛ فيشفع في أهل الموقف أن يُقضىٰ بينهم. وهي أول شفاعاته ﷺ.

ثم بعد ذلك يبدأ القضاء بالفصل بين الناس، وتُنصب الموازين، وبعد ذلك تكون أحوال الناس بين مَن ثقلت موازينه وبين

---

(١) «الروح» (ص ١٨٥، ١٨٦)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) «الروح» (ص ١٨٦).

مَن خَفَّت موازينه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]، وغير ذلك.

ومن السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**كَلِمَتان خَفِيفتان علىٰ اللِّسان، ثَقِيلتان في المِيزان، حَبِيبتان إلىٰ الرَّحمن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّه لَيُؤتىٰ بالرَّجل العَظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزن عند الله جناح بَعُوضة، وقال: اقْرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]**»[2].

وعن عبد الله بن عُمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي علىٰ رُءوس الخَلائق يوم القيامة، فَيَنْشُر عليه تِسعة وتِسعين سِجلًّا، كُلُّ سِجلٍّ مَدَّ البَصر، ثُمَّ يقول له: أَتُنْكِر مِن هذا شيئًا؟ أَظَلَمَتك كَتَبَتي الحَافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنة؟ فيهيب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلىٰ، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك؛ فَتُخرج له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إلٰه إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسولُ الله. فيقول: أَحْضِروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيُقال: إنَّك لا تُظلم. قال: فَتُوضع**

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).

السِّجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، قال: فَطاشت السِّجلات، وثَقُلت البِطاقة، ولا يَثْقُل شيءٌ بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم»[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّه كان يَجني سِوَاكًا من الأَرَاك، وكان دقيقَ السَّاقين، فَجَعَلت الرِّيح تَكفؤه، فَضَحِك القومُ مِنه، فقال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مِمَّ تَضْحَكُون؟**». قالوا: يا نَبِيَّ الله مِن دِقَّة سَاقيه. فقال: «**والَّذي نَفْسِي بيدِه لَهُما أثقلُ في المِيزان مِن أُحُدٍ**»[2].

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزانَ**»[3].

وقال السَّفارينيُّ: «قال علماؤنا كغيرهم: نُؤمن بأن الميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات حقٌّ، قالوا: وله لسان وكفتان تُوزن به صحائف الأعمال؛ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: تُوزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.

قال العلامة الشيخ مرعي في «بهجته»: الصحيح: أنَّ المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل، خلافًا لبعضهم.

وقال القرطبي في «تذكرته»: «قال العلماء: إذا انقضىٰ الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها».

إلىٰ أن قال: «قد بلغت أحاديثه - أي: الميزان - مبلغ التواتر،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١١٤) (٩٢٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٦٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه»[١].

وقال في موضع آخر: «أَجْمَع أكابرُ مُحَقِّقي هذه الأمة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقٌّ واجبٌ وفَرْضٌ لازبٌ لِثُبوته، وعدم استحالة ذلك عقلًا»[٢].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا رحمهم الله: الناس في الآخرة ثلاث طبقات: متقون لا كبائر لهم. ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر. والثالث: الكفار.

فأمَّا المتقون: فإن حسناتهم تُوضع في الكفة النيرة، وصغائرهم - إن كانت لهم الكفة الأخرىٰ - فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتىٰ لا تَبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأمَّا المخلطون فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل و لو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف علىٰ ما يأتي، هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات؛ فيُحمل عليه مِن أوزار مَن ظلمه، ثم يُعَذَّب علىٰ الجميع. هذا ما تقتضيه الأخبارُ»[٣].

ثم تنشر صحائف الأعمال؛ فإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وإمَّا آخِذٌ

(١) «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ١٨٤، ١٨٥).
(٢) «لوائح الأنوار السنية» (٢/ ١٧٩).
(٣) «التذكرة» للقرطبي (ص٣٦٠).

كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ؛ فالناس على هذين الحالين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحَاقَّة: ١٩]، فيجد في نفسه من السعادة والفرح بهذه الحال؛ لأنه قد آمن وصدق وعمل لهذا اليوم، فوجد ثمرة ذلك وثوابه عند الله سبحانه وتعالى، وأمَّا حال الآخر فقد قال الله عز وجل عنه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحَاقَّة: ٢٥-٢٩]، ثم يكون الجزاء: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحَاقَّة: ٣٠-٣٢].

فالله يجازي الناس بأعمالهم؛ فإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّراءِ ظَهْرِهِ، ثم يبدأ بعد ذلك الحساب.

فالمؤمن حسابه عرضٌ وتقرير وليس حساب نقاش؛ لأنَّ من نوقش الحساب عُذِّب؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن حُوسب يوم القيامة عُذِّب**»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: «**ليس ذاك الحساب، إنَّما ذاك العَرْضُ؛ مَن نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب**»[1].

فيُقرر اللهُ العبدَ المؤمنَ بما فعل في الدنيا، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويَستره، فيقول: أتعرف ذنبَ كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته، وأمَّا الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٦) ومسلم (٢٨٧٦).

لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ [هُود: ١٨]»(١).

وأمَّا الكفار فلا تُوزن أعمالهم؛ إذ لا حسنات لهم، وما قدَّموه مِن عمل نافع في الدنيا فإنَّهم يجازون به في الدنيا كذلك؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٥-١٦]، فيُوفون جزاء أعمالهم النافعة في الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم فيها نصيب من الحسنات والأجر، وإنما يجازون بكفرهم.



(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي عَرَصات القيامة: الحَوْضُ المَورود للنَّبي ﷺ؛ ماؤه أشَدُّ بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العَسَل، وآنيتُه عددُ نجوم السماء، طولُه شَهْرٌ، وعَرْضُه شَهْرٌ، مَن يشربُ منه شربةً لا يَظمأُ بعدها أبدًا».

الشرح:

هذا الحوضُ المورود الذي أَعطاه الله لنبيه محمد، كما قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

قال الإمامُ القرطبيُّ: «والصَّحيح: أنَّ للنبي ﷺ حَوْضَيْن:

أحدهما في المَوقف قبل الصِّراط.

والثَّاني في الجَنَّة، وكلاهما يُسَمَّىٰ كوثرًا»(١).

وقد جاءت أحاديث كثيرة في وصفه؛ منها: عن أبي عُبيدة أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، فقالت: «نهرٌ أُعطيه نَبِيُّكم ﷺ؛ شاطئاه عليه دُرٌّ مُجوَّف، آنيته كعَدد النُّجوم»(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ أنا بنهرٍ حافتاه قِباب الدُّرِّ المُجوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك رَبُّك، فإذا طِينُه** - أو طِيبُه -

---

(١) «التذكرة» (ص٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

مِسك أذفر»[١].

وقال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَصَّ الله نَبيَّه ﷺ أنَّه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الَّذي آتاه اللهُ في الدُّنيا والآخرة؛ فمما أعطاه في الدُّنيا الهُدىٰ والنَّصر والتأييد وقُرَّة العَين والنَّفس وشرح الصدر، ونَعَّم قلبَه بذكرِه وحُبِّه بحيث لا يُشبه نعيمُه نعيمَ الدُّنيا البتة، وأعطاه في الآخِرَة الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ، وجعلَه أَوَّلَ مَن يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخِرَة لواءَ الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة، إلىٰ غير ذلك»[٢].

وقد حكم جمعٌ من أهل العلم بتواتر السُّنَّة في ذلك، قال ابن أبي العِزِّ: «الأحاديث الواردة في ذِكر الحوض تَبلغُ حَدَّ التواتر؛ رَوَاها من الصَّحابة بضعٌ وثلاثون صحابياً، ولقد استقصىٰ طرقَها شيخُنا عمادُ الدِّين ابنُ كثير - تَغَمَّدَه اللهُ برحمتِه في آخر «تاريخه الكبير»[٣].

والله عَزَّ وَجَلَّ قد خَصَّ هذه الأمة بفضائل كثيرة، ومنها مُضاعفة الأجر؛ فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إنَّما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلىٰ مغرب الشمس، وإنَّما مَثَلُكم ومَثَل اليهود والنصارىٰ، كرجل استعمل عُمَّالًا، فقال: مَن يعمل لي إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراط قيراط، فعملت اليهود إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر علىٰ قيراط قيراط، فعملت النَّصارىٰ من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر علىٰ قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل**

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨١).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٥٢٧- ٥٢٨)، بتصرف يسير.

(٣) «شرح الطحاوية» (ص٢٢٧).

لي من صلاة العصر إلىٰ مغرب الشمس علىٰ قيراطين قيراطين، ألا، فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلىٰ مغرب الشمس، علىٰ قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين، فغَضِبَت اليهودُ والنصارىٰ، فقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء! قال الله: هل ظلمتُكم مِن حَقِّكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه فَضلي أُعطيه مَن شِئْتُ»[1].

فَمن نعمة الله علينا أن جعلنا من أمة محمد، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**نَحن الآخِرون السَّابقون يوم القيامة، بَيْدَ كلِّ أُمَّةٍ أُوتوا الكتاب مِن قبلنا، وأُوتينا مِن بعدهم، فهذا اليوم**[2] **الذي اختلفوا فيه، فغدًا لليهود، وبعدَ غدٍ للنَّصارىٰ»**[3].

وأمة محمد ﷺ هم أكثر أهل الجنة، فعن بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهلُ الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون منها مِن هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»**[4].

وذلك لأن النبي ﷺ أكثر الأنبياء أتباعًا؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: «**عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فرجوت أن تكون أُمَّتي، فقيل: هذا موسىٰ وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أُمَّتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا**

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٩) ومسلم ( ).

(٢) أي: يوم الجمعة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٦٢).

يدخلون الجنة بغير حساب»[١].

وهذا الفضل الذي أعطاه الله لنبيه الكريم ﷺ في الدنيا والآخرة - هو خير عظيم وعميم علىٰ هذه الأمة المرحومة؛ فصارت مَهْدِيَّة في الدنيا، مَرحومة وأكثر أهل الجنة في الآخرة، وذلك فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء.



(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠).




قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ علىٰ مَتْن جَهَنَّم، وهو الجِسر الذي بين الجَنَّة والنَّار يَمُرُّ النَّاسُ عليه علىٰ قَدْرِ أعمالِهم؛ فَمنهم مَن يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصر، ومنهم من يَمُرُّ كالبَرق، ومنهم من يَمُرُّ كالرِّيح، ومِنهم من يَمُرُّ كالفَرس الجَواد، ومِنهم مَن يَمر كَرَاكِبِ الإبل، ومنهم مَن يَعْدُو عَدْوًا، ومنهم من يمشي مَشْيًا، ومنهم مَن يَزحف زحفًا، ومنهم مَن يُخطف ويُلقىٰ في جهنم، فإنَّ الجسر عليه كلاليبُ تَخْطِفُ النَّاس بأعمالِهم».

الشرح:

الصِّراط: جِسر منصوب علىٰ مَتن جهنم بين الجَنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاسُ عليه علىٰ قَدْرِ أعمالِهم.

قال السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصراط شرعًا: جِسر ممدود علىٰ مَتن جهنم يَرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلِق مِن حين خُلِقت جهنم»[(١)].

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢]، قال الشيخ السعدي: «هذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرِّهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم: أنَّه ما منهم مِن أحدٍ إلا سيرد النار حكمًا حَتمه الله علىٰ نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد مِن نفوذه، ولا محيد عن

(١) «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢ / ١٨٩).

وقوعه»[١].

فالناس سيردون جهنم؛ لأنَّ الصراط مَنصوب علىٰ مَتْنِها.

وتختلف أحوال الناس في المرور عليه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**يَرِدُ الناس النَّارَ، ثم يَصدرون عنها بأعمالهم؛ فأولهم كلمح البَرق، ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفرس**[٢]، **ثم كالرَّاكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرَّجل ثم كمَشيه**»[٣].

وقد جاء في وصفه أنه: صراطٌ دقيق جدًّا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «بَلغني أنَّ الجسر أدق من الشعرة، وأحَدُّ من السيف»[٤].

والصِّراط مِن عرصات وأهوال يوم القيامة، وأول مَن يجوز عليه: النبيُّ ﷺ وأمته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «...**ويُضرَبُ الصِّراط بين ظَهْري جَهَنَّم فأكونُ أنا وأُمَّتي أَوَّل مَن يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرُّسل، ودَعوىٰ الرُّسل يَومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مِثل شَوْك السَّعدان؛ هل رأيتم السَّعدان؟**»، قالوا: نَعم يا رسول الله. قال: «**فإنَّها مِثل شَوك السَّعدان غَير أنَّه لا يَعلم قَدْرَ عِظَمِها إلَّا الله عز وجل، تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فَمَنهم المُوبق بعملِه، والمُوثق بعمله، ومنهم المُخَرْدَل والمُجَازَىٰ**»[٥].

قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله: «فَتَفَكَّر الآن فيما يَحِلُّ بك من الفَزع

---

(١) «تفسير السعدي» (٥٨٠).

(٢) أي: جريه، وهو العَدْوُ الشَّديد.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (٢٨٥٢)، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

بفؤادك إذا رأيتَ الصِّراط ودِقَّتَه، ثُمَّ وَقَعَ بصرُك علىٰ سَوَادِ جَهنم من تحته، ثم قَرَعَ سَمْعَك شَهِيقُ النارِ وتَغَيُّظُها، وقد كُلِّفْت أن تَمشي علىٰ الصِّراط مع ضَعف حالك، واضطراب قلبِك، وتَزَلزُلِ قَدَمِك، وثِقَلِ ظَهْرِك بالأوزار المانعة لك مِن المَشي علىٰ بساط الأرض فضلًا عن حِدَّة الصِّراط، فكيف بك إذا وَضَعْتَ عليه إحدىٰ رِجليك فَأَحْسَسْتَ بِحِدَّتِه، واضطررت إلىٰ أن تَرفع القَدَم الثاني، والخلائق بين يديك يَزِلُّون ويَعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فَتَسْفُل إلىٰ جهة النار رُءوسهم، وتَعْلُو أَرْجُلُهم؛ فَيَا له مِن مَنظر ما أَفْظَعَه! ومُرْتَقًىٰ ما أَصْعَبَه! ومَجاز ما أَضْيَقَه!»(١).

ومع كل هذا فالمؤمن يمر عليه مرورًا سريعًا جدًّا.

ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أنه إذا أراد اجتياز الصراط إلىٰ الجنة: أنه مطالب بمجاهدة نفسه في هذه الحياة؛ للثبات علىٰ منهج الله، وعليه النظر فيما هو مُقدم عليه من هذه الأهوال؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]؛ وإذا كان الإنسان يحتاط جدًّا في سفر الدنيا وخاصة إذا سَمِع أن فيه مشقة، وأنه قد يُصيبه العنت فيه - فماذا قَدَّم ليوم القيامة وما فيه من كربات وأهوال؟

وليحاسب نفسه هنا: لماذا هذه الغشاوة التي علىٰ عينيه، ولماذا هذه الغفلة التي في قلبه عن هذا المصير المحتوم؟! ولماذا الركون إلىٰ الدنيا وعدم استثمار الأنفاس فيما ينفع وينجي في هذا اليوم؟!

---

(١) «التذكرة» (ص٢٨٩).

فكيف يوقن العبد بهذه الحقائق ومع ذلك يفرط في جنب الله؟!

ولماذا لا يجتهد في تحصيل مرضاة الله؟!

وليعلم كل امرئ أن نفسه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل، وأن الله قد أعطاك قوة كامنة في نفسه؛ إمَّا أن يُوجهها للخير، وإما أن يوجهها للشر، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما قَدَّمه من أعمال صالحة في هذه الحياة صار قلبه بها سليمًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٧-٨٩].

فعلىٰ حسب حال المؤمن هنا من التنافس في فعل الخيرات، والمسارعة إلىٰ مغفرة الله - سيكون حاله في الآخرة علىٰ الصراط؛ فمن استقام علىٰ صراط الله (منهجه) في الدنيا - ثَبَّته الله علىٰ الصراط المنصوب علىٰ ظهر جهنم؛ فاللهم ثَبِّتنا وسَلِّمنا دنيا وآخرة.





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ :

«فإذا عَبَرُوا عليه وُقفوا علىٰ قَنْطَرة بين الجَنَّة والنَّار؛ فيُقتص لبعضِهم مِن بَعْضٍ؛ فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخول الجَنَّة.

وأَوَّلُ مَن يَستفتحُ بابَ الجَنَّة مُحَمَّدٌ ﷺ ، وأَوَّلُ مَن يدخلُها من الأمم أُمَّتُه».

الشرح:

إذا مَضَىٰ المؤمنون علىٰ الصِّراط، ونَجَوْا من السُّقوط في النار - وُقفوا علىٰ قَنْطَرة بين الجَنَّة والنَّار؛ للقصاص.

قال الإمام القرطبيُّ: «ولا يَخلص منه - أي: الصراط - إلا المؤمنون الذين عَلِم اللهُ منهم أنَّ القِصاص لا يَستنفد حسناتهم حُبِسوا علىٰ صِراط آخر لهم، ولا يَرجع إلىٰ النار من هؤلاء أحدٌ إن شاء الله؛ لأنَّهم قد عَبروا الصِّراط الأول المَضروب علىٰ مَتْنِ جهنم الذي يَسقط فيها مَن أَوْبَقَه ذَنْبُه، وأَرْبَىٰ علىٰ الحَسَنات بالقِصاص جُرْمُه»[(١)].

وقد دلَّ علىٰ القصاص بعد المرور علىٰ الصراط: حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا خَلص المؤمنون من النار حُبِسوا بقنطرةٍ بين الجنة النار؛ فيَتَقَاصُّون مَظالم كانت بينهم في الدُّنيا حتىٰ إذا نُقُّوا وهُذِّبُوا أُذن لهم بدخول الجَنَّة، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه لَأَحَدُهم بِمَسْكَنِه في الجنة أَدَلُّ بمنزلِه كان في الدُّنيا**»[(٢)].

---

(١) «التذكرة» (ص٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٠).

ومعنىٰ قوله: «فيُقتص لبعضِهم من بعض»- كما قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **أن** «هذا القِصاص غير القِصاص الأَوَّل الذي في عرصات القيامة؛ لأنَّ هذا قصاصٌ أَخَصُّ لأجل أن يذهب الغِلُّ والحِقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأنَّ ما في القلوب لا يَزول بمجرد القِصاص، فهذه القَنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تَنقية ما في القلوب حتىٰ يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غِلٌّ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحِجر: ٤٧]»[(١)].

ومعنىٰ قوله: «هُذِّبُوا ونُقُّوا»، أي: خُلِّصُوا من الآثام بِمُقَاصَصَة بعضِها ببعضٍ.

وقوله: «أُذن لهم في دخول الجنة» يعني أنَّهم سيَجدون أبواب الجنة مُغلقة، ولن يجرؤ أحد أن يستفتح باب الجنة، إلىٰ أن يَشفع النبي ﷺ في دخولها، ويدخل الجنة أمامهم؛ فيكون أول مَن يطلب أن تُفتح الجنة، وهذا من شفاعته الخاصَّة التي لا يُشاركه فيها مشاركٌ؛ فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبي ﷺ قال: **«أنا أَوَّلُ النَّاس يَشفع في الجَنَّة، وأنا أكثرُ الأنبياء تَبَعًا»**[(٢)]، وعنه - أيضًا - أنَّ النبي ﷺ قال: **«آتِي بابَ الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازنُ: مَن أنتَ؟ فأقول: مُحَمَّدٌ. فيقول: بِكَ أُمِرْتُ لا أفتحُ لأحدٍ قَبْلَكَ»**[(٣)].

فيكون النبي ﷺ أَوَّلُ مَن يدخلُ الجنة، وتكون أُمَّته أول مَن يدخلُها من الأمم؛ كما تقدم في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ

---

(١) «شرح الواسِطيَّة» (ص٥٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧).

رسول الله ﷺ قال: «**نَحن الآخِرُون الأَوَّلون يوم القيامة، ونحن أَوَّلُ مَن يدخل الجنة**»(١).



(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥).



قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وله في القيامة ثلاثُ شَفاعات:

أمَّا الشفاعة الأولىٰ فَيَشفع في أهلِ المَوقف حتىٰ يُقضىٰ بينهم بعد أن يَتراجع الأنبياء (آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعِيسىٰ ابن مريم) عن الشَّفاعة حتىٰ تَنتهي إليه.

وأمَّا الشفاعةُ الثانية: فيَشفع في أهلِ الجَنَّة أن يَدخلوا الجَنَّة، وهاتان الشَّفاعتان خَاصَّتان له.

وأمَّا الشَّفاعة الثالثة: فيَشفع فيمن استحقَّ النار، وهذه الشفاعةُ له ولسائر النَّبيين والصِّدِّيقين وغيرهم، فيَشفع فِيمن استحقَّ النَّار أن لا يَدخلها، ويَشفع فيمن دَخَلَها أن يخرج منها.

ويُخرجُ اللهُ مِن النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضلِه ورحمتِه، ويَبقىٰ في الجنة فَضْلٌ عَمَّن دخلَها من أهل الدُّنيا؛ فيُنشئ اللهُ أقوامًا فيُدخلهم الجَنَّة.

وأصنافُ ما تضمنته الدَّارُ الآخرة من الحساب والثَّواب والعِقاب والجَنَّة والنار وتفاصيل ذلك مَذكورةٌ في الكتب المُنَزَّلة من السَّماء، والآثار من العِلم المَأثور عن الأنبياء، وفي العِلم المَوروث عن محمَّدٍ مِن ذلك ما يَشفي ويكفي؛ فَمَن ابتغاه وَجَدَه».

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أنواع الشفاعات للنبي ﷺ التي تكون في يوم القيامة، فقال: «وله في القيامة ﷺ ثلاثُ شَفاعات:

أمَّا الشفاعة الأولىٰ فتكون بعد أن يأتي أهل الموقف لآدم

فيعتذر عن الشفاعة لهم، ثم يأتون لنوح، ثم لإبراهيم، ثم لموسىٰ، ثم لعِيسىٰ ابن مريم، وكل واحد منهم يعتذر، ويدلهم عيسىٰ عليه السَّلام علىٰ نبينا محمد ﷺ، فيأتونه؛ فيَشفع لهم حتىٰ يُقضىٰ بينهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**يَجمع اللهُ النَّاسَ الأولين والآخرين في صَعيد واحدٍ يُسمعهم الدَّاعي وينفذهم البصر، وتَدنو منهم الشمسُ؛ فيَبلغ النَّاس من الغَمِّ والكرب ما لا يُطيقون ولا يَحتملون؛ فيقول النَّاس: أَلَا تَرَوْن ما قد بَلَغكم؟ ألا تَنظرون مَن يشفعُ لكم إلىٰ ربِّكم؟ فيقول بعضُهم لبعض: عليكم بآدم! فيَأتونه، فيقولون له: أنت أبو البَشر، خَلَقَك اللهُ بيدِه، ونفخ فيكَ مِن رُوحه، وأَمَر المَلائكة فَسجدوا لك، أَلَا تَرىٰ ما نحن فيه؟ فيقول: إنَّ رَبِّي قد غَضِب اليوم غضبًا لم يَغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشجرة فَعَصَيْتُه، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلىٰ نُوح. فيَأتون نوحًا فيقولون: يا نوحُ، إنَّك أَوَّلُ رسولٍ إلىٰ أهل الأرض، فقد سَمَّاك اللهُ عبدًا شكورا؛ اشفع لنا إلىٰ ربِّك، أَلَا تَرىٰ ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غَضَب الله، وإنَّه قد كانت لي دعوة دعوتُها علىٰ قومي؛ اذهبوا إلىٰ إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيُّ الله وخليلُه من أهل الأرض؛ اشفع لنا إلىٰ ربك، أَلَا ترىٰ ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد كَذبت ثلاث كذبات؛ اذهبوا إلىٰ موسىٰ. فيأتون موسىٰ فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسولُ الله، فَضَّلَك الله برسالتِه وبكلامِه علىٰ النَّاس؛ اشفع لنا إلىٰ ربك، أَلَا ترىٰ ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد قتلتُ نَفْسًا لم أُومر بقتلِها؛ اذهبوا إلىٰ عيسىٰ. فيأتون عيسىٰ فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسولُ الله وكلمتُه إلىٰ مريم ورُوح منه، وكَلَّمت النَّاس في المَهد صبيًّا؛ اشفع لنا إلىٰ**

ربِّك، أَلَا ترىٰ ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، ولم يذكر ذنبًا، وكلهم يقولون كما قال آدم: نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلىٰ محمَّد. فيأتون محمَّدًا ﷺ، فيقولون: يا محمَّد، أنتَ رسولُ الله وخاتم الأنبياء، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؛ اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ فأنطلقُ، فآتِي تحتَ العَرش، فأقعُ ساجدًا لربِّي ﷻ، ثُمَّ يَفتح اللهُ عليَّ مِن مَحامده وحُسن الثناء عليه شيئًا لم يَفتحه علىٰ أحدٍ قَبلي، ثم يقال: يا محمَّد، ارْفَع رأسَك، سَلْ تُعْطَه، واشفع تُشَفَّع...»، الحديث[(١)].

وأمَّا الشفاعة الثانية؛ فيَشفع في أهل الجَنَّة أن يدخلوا الجنة.

وقد تقدم قريبًا الكلامُ علىٰ هذا النَّوع من شفاعته ﷺ.

وهاتان الشَّفاعتان خَاصَّتان له.

وله ﷺ كذلك من الشَّفاعات الخاصَّة به: شفاعته في تخفيف العذاب عن عَمِّه أبي طالب، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّه سَمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: «**لعَلَّه تَنفعه شَفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضَحضاح من النَّار يَبلغ كعبيه، يَغلي منه دماغه**»[(٢)].

وأمَّا الشَّفاعة الثالثة فغير مُختصة به ﷺ؛ بل له ولسائر النَّبيين والصِّدِّيقين وغيرهم؛ فيَشفع فِيمن استحقَّ النَّار أن لا يَدخلها، ويَشفع فيمن دَخلَها أن يخرج منها؛ فعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائر مِن أُمَّتي**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٥) ومسلم (٢١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٥٩٨).

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أحاديثَ الشَّفاعة في أهل الكبائر ثابتةٌ مُتواترةٌ عن النَّبي ﷺ، وقد اتَّفق عليها السَّلفُ من الصَّحابة وتَابعيهم بإحسانٍ وأئمة المسلمين، وإنَّما نازع في ذلك أهلُ البِدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم»[(١)].

وأما في حَقِّ غيره ﷺ فقد روي عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «...**فيقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: **شَفَعَتِ المَلائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّون، وشَفَعَ المُؤمنون، ولم يَبق إلَّا أرحم الرَّاحمين...**» الحديث[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ثَبَتَ بالسُّنَّة المُستفيضة، بل المتواترة، واتِّفاق الأمة أنَّ نبينا ﷺ الشَّافع المُشَفَّع، وأنَّه يَشفع في الخلائق يوم القيامة، وأنَّ النَّاس يَستشفعون به يطلبون منه أن يَشفع لهم إلىٰ ربِّهم، وأنَّه يَشفع لهم.

ثم اتَّفق أهلُ السُّنَّة والجَمَاعَة: أنَّه يَشفع في أهل الكبائر، وأنَّه لا يُخَلَّد في النار من أهل التَّوحيد أحدٌ.

وأمَّا الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعتَه لأهل الكبائر، ولم يُنكروا شفاعته للمؤمنين، وهؤلاء مُبتدعة ضُلَّال، وفي تكفيرهم نِزَاعٌ وتَفصيلٌ»[(٣)].



(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٠٨).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ويُخرجُ اللهُ مِن النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضلِه ورحمتِه، ويَبقىٰ في الجنة فَضْلٌ عَمَّن دخلَها من أهل الدُّنيا؛ فيُنشئ اللهُ أقوامًا فيُدخلهم الجَنَّة.

وأصنافُ ما تضمنته الدَّارُ الآخرة من الحساب والثَّواب والعِقاب والجَنَّة والنار وتفاصيل ذلك مَذكورةٌ في الكتب المُنَزَّلة من السَّماء، والآثار من العِلم المَأثور عن الأنبياء، وفي العِلم المَوروث عن محمَّدٍ ﷺ مِن ذلك ما يَشفي ويكفي؛ فَمَن ابتغاه وَجَدَه».

الشرح:

مِن عظيم فضل الله علىٰ عباده ورحمتِه بهم: أنه لا يُخلَّد في النَّار مُوَحِّد؛ قال الله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨]، وجاء في حديثِ أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «... **فيقول اللهُ: شَفَعَت الملائكةُ، وشَفَع النَّبِيُّون، وشَفَع المُؤمنون، ولم يَبْقَ إلَّا أرحمُ الرَّاحمين؛ فيَقبض، فيُخرج منها قومًا لم يَعملوا خيرًا قط**»(١).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **«ويَبقىٰ في الجَنَّة فَضْلٌ عَمَّن دَخلَها مِن أهل الدُّنيا فيُنشئ اللهُ أقوامًا فيُدخلهم الجَنَّة».**

وهذا - أيضًا - مما يدلُّ علىٰ عظيم سعة رحمة الله، وعظيم فضله وإحسانه، وأنَّ رحمتَه سَبَقت غضبَه؛ إذ يُنشئ أقوامًا لِيُسكنهم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

فضلَ الجَنَّة، ولا يُنشئ آخرين للنار التي تقول: هل من مزيد؟ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تَزال جهنم يُلقىٰ فيها وتقول: هل مِن مزيد؟ حتىٰ يَضع ربُّ العِزَّة فيها قَدَمَه؛ فيَنزوي بعضها إلىٰ بعض وتقول: قط قط، بعِزَّتك وكرمك. ولا يَزال في الجنَّة فَضْلٌ حتىٰ يُنشئ الله لها خلقًا؛ فيُسكنهم فضلَ الجَنَّة»**[1].

ثم قال: **«وأصنافُ ما تضمنته الدَّارُ الآخرة من الحساب والثَّواب والعِقاب والجَنَّة والنار، وتفاصيل ذلك مَذكورةٌ في الكتب المُنَزَّلة من السَّماء»**.

فلا شكَّ أنَّ النصوص في تفاصيل ذلك كثيرة جدًّا، بل غالبًا ما يأتي الإيمانُ بالله إلا مقرونًا بالإيمان باليوم الآخر؛ لأن الدار الآخرة هي دار القرار، ودار الخلود، وينقسم العباد فيها إما إلىٰ جنة أبدًا، وإمَّا إلىٰ نار أبدًا، بعد أن يُخرج من النار مَن شاء الله بشفاعة النبي ﷺ، وبشفاعة الشافعين، ثم بشفاعته سبحانه وهو أرحم الراحمين؛ فيُخرج منها قومًا لم يَعملوا خيرًا قط، كما سبق في الحديث، ويُخرج منها مَن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«يَدخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ»، ثم يقول الله تعالىٰ: أخرجوا مِن النار مَن كان في قلبه مِثقال حَبَّة مِن خردل من إيمان؛ فيُخرجون منها قد اسوَدُّوا، فيُلقون في نهر الحياة؛ فينبتون كما تَنبت الحِبَّة في جانب السَّيل، ألم تر أنَّها تَخرج صفراء ملتوية»**[2].

وتفاصيل أهوال اليوم الآخر مَذكورةٌ في الكتب المُنَزَّلة من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢).

السَّماء، والقرآن العظيم آخر الكتب المنزلة من أوله إلىٰ آخره يدعو إلىٰ الإيمان باليوم الآخر، ويُقيم الأدلة الكثيرة والمتنوعة علىٰ حدوثه، ويُفَصِّل فيما سيكون فيه من أهوال جِسام.

وكذلك في الآثار من العِلم المَأثور عن الأنبياء، وفي العِلم المَوروث عن محمَّدٍ ﷺ **مِن ذلك ما يَشفي ويكفي**؛ مما يجعلك ترىٰ الجنة والنار كأنها رأي عين، فتعرف عرصات ومواقف ذلك اليوم، ثم منازل أهل الجنة ومنازل أهل النار، وما يكون فيهما.

ولكن شيخ الإسلام يذكر هنا عقيدة مختصرة لجملة ما سيكون في اليوم الآخر، وإلا فالتفاصيل كثيرة، وتتسع لها المجلدات.






قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وتُؤمن الفِرقةُ النَّاجيةُ (أهل السُّنَّة والجَماعَة) بالقَدَر؛ خَيره وشَرِّه.

والإيمانُ بالقَدَر علىٰ دَرجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:

فالدَّرجة الأولىٰ: الإيمانُ بأنَّ اللهَ - تعالىٰ عليمٌ بما الخلقُ عاملون بعلمِه القديم الذي هو مَوصوفٌ به أزلًا وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ثم كَتَبَ في اللوح المَحفوظ مقاديرَ الخَلْقِ، فَأَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القلمَ قال له: اكتب. قال: ما أكتبُ؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة؛ فما أصاب الإنسانَ لم يكن لِيُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ جَفَّت الأقلامُ، وطُويت الصُّحف، كما قال تَعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تَعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا التقديرُ التَّابع لِعلمه - سبحانه - يكون في مَوَاضِعَ جُملة وتفصيلًا. فقد كَتَبَ في اللَّوح المَحفوظ ما شاء، وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنين قبل نَفخ الرُّوح فيه بَعَثَ إليه مَلَكًا؛ فيُؤمر بأربعِ كلماتٍ، فيقال له: اكْتُب رِزْقَه وأجلَه وعَمَلَه وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، ونحو ذلك.

فهذا التَّقديرُ قد كان يُنكره غُلاة القدريَّة قديمًا، ومُنكروه اليوم قليلٌ».

الشرح:

هذا ما يتعلق بالإيمان بالقدر خيره وشره، وهو أصلٌ مِن أُصُول اعتقادِ أهل السُّنَّة والجَماعَة، وركنٌ مِن أركان الإيمان.

قال العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أهمَّ ما يَجب معرفتُه على المُكلَّف النَّبيل فضلًا عن الفاضل الجليل ما وَرَدَ في القضاء والقَدَر والحِكمة والتَّعليل، فهو مِن أَسْنَىٰ المقاصد، والإيمانُ به قُطْب رَحَىٰ التَّوحيد ونِظامه، ومبدأُ الدِّين المُبين وخِتامه، فهو أحدُ أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يَرجع إليها ويَدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدلُ قِوَام المُلك، والحِكمة مَظهر الحمد، والتَّوحيد مُتضمن لنهاية الحِكمة وكمال النِّعمة، ولا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له، له المُلك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير؛ فبالقدرة والحكمة ظَهر خَلْقُه وشَرعه المُبين؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]»[(١)].

والقَدَر في اللغة: مَصدر قَدَرْتُ الشَّيء إذا أَحطتُ بمقداره.

وهو عند أهل السُّنَّة والجَمَاعَة: قُدرة الله وعِلمه ومَشيئته وخَلقه وكتابته، فلا تتحرك ذَرَّةٌ فما فوقها إلا بمشيئته وعِلمه وقُدرته[(٢)].

ومن أدلة القَدَر:

قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: ٤٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١-٢].

وحديثُ جِبريل لمَّا سأل رسولَ الله ﷺ عن الإيمان، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أن تُؤمن باللهِ ومَلائكته وكُتُبه ورُسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقَدَر؛ خَيره وشَرِّه**»[(٣)].

(١) مُقدِّمة كتابه «شِفاء العَليل» (ص٣).

(٢) انظر: «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص١١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) من حديث عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الإيمانُ بالقَدَر علىٰ درجتين، كل درجة تتضمن شيئين**»- بَيَّن فيه مَراتب القَدَر الأربع التي هي: (العِلم والكتابة والمَشيئة والخَلْق).

فذكر هنا مراتب القَدَر، وجمع هنا بين مرتبتين؛ مرتبة العلم ومرتبة الكتابة؛ باعتبار أنهما متلازمتان، كما أنَّه بالدرحة الثانية جمع بين الخلق والمشيئة، فالقسمة إما ثنائية وإمَّا رباعية، فإذا قلت: رباعية، فتقول: (العلم، الكتابة، الخلق، المشيئة).

وإذا قلت ثنائية، فتقول: (العلم، الكتابة)، أي: عَلِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك وكَتَبَه، ثم خَلَقَه وشاءه.

فقال: «**الإيمانُ بالقَدَر علىٰ دَرجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:**

فالدَّرجة الأولىٰ: الإيمانُ بالعلم والكتابة»؛ فالله- تَعالىٰ علم الأشياء قبل كونها، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما أخبر - مثلًا - عن شأن أهل النار فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فلو رُدُّوا إلىٰ الدنيا فسيكون منهم عودة إلىٰ ما نَهاهم الله عنه، وهذا لا يكون ولكنه لو كان فسيكون بهذه الحال، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم الأشياء قبل كونها، وهو عليم بها أثناء كونها، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف يكون، فسبحان مَن وَسِع علمُه كل شيء!

فهو عليمٌ بما الخلقُ عاملون بعلمِه القديم الذي هو مَوصوفٌ به أزلًا وأبدًا؛ ونحن نؤمن أن الله متصف بجميع الصفات أزلًا وأبدًا.

وغُلاة القدرية - كما أشار المصنف - يقولون - والعياذ بالله - : إن الله لا يعلم أنَّ العبد سيَعمل هذا العمل إلَّا عند وقوعه. تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالمٌ بكل شيء أزلًا، قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُني، إنَّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتىٰ تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «**إنَّ أول ما خَلق اللهُ القلم، فقال له: اكتب. قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء حتىٰ تقوم الساعة**»، يا بُني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن مات علىٰ غير هذا فليس مِنِّي**»[(١)].

قال المصنف: «**وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال**».

فمقادير كلِّ شيء حتىٰ قيام السَّاعة قد كُتبت في اللوح المحفوظ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كنتُ خلفَ رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يَضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصحف**»[(٢)].

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فهذا سابق في القدر، سابق في علم الله، والنصوص في العلم والكتابة - بحمد الله تعالىٰ - كثيرة وواضحة في الدلالة علىٰ هاتين المرتبتين: العلم والكتابة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٠٢).

أنواع التقدير:

ذكر ابنُ القيِّم أقسامَ التَّقدير الخمسة، وأَوْضَحَها بأدلَّتِها، وهي باختصار:

التقدير الأول: تقدير المَقادير قبل خَلق السَّماوات والأرض، وهو التقدير العام الشَّامل لكل شيءٍ في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذِكر بعض الأدلة عليه.

التقدير الثاني: تقدير الرَّبِّ - تبارك وتعالىٰ - شقاوة العِباد وسَعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خَلْقِهم، وهو تقديرٌ ثَان بعد التقدير الأَوَّل، فعن عِمران بن حُصين قال: «قيل: يا رسول الله، عُلِمَ أهلُ الجَنَّة من أهل النَّار؟ فقال: «**نَعَمْ**». قيل: فَفِيم يعملُ العاملون؟ قال: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له**»[(١)].

التقدير الثالث: المُتَعَلِّق بالجنين وهو في بطن أُمِّه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصَّادقُ المَصدوقُ: «**إنَّ أحدَكم ليُجمع خَلْقُه في بَطن أُمِّه أربعين يومًا، ثُمَّ يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثُمَّ يكون في ذلك مُضغةً مثل ذلك، ثُمَّ يُرسل اللهُ إليه المَلك؛ فيَنفخ فيه الرُّوح، ويُؤمر بأربع كلماتٍ؛ بكتبِ رزقِه وأجلِه وعملِه وشقي أو سعيد، فوالذي لا إلهَ غيرُه، إنَّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتَّىٰ ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيَسبق عليه الكتابُ فيَعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدَكم لَيعمل بعمل أهلِ النَّار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلَّا ذِراع فيَسبق عليه الكتابُ فيَعمل بعمل أهلِ الجَنَّة فيَدخلها**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

التقدير الرابع: التقدير في ليلة القَدْر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدّخان: ١-٥].

قال أبو عبد الرَّحمن السُّلَمِيُّ: «يُقَدِّر أمرَ السَّنَة كلها في ليلة القَدْر»، وهذا هو الصَّحيح: أنَّ القَدْر مَصدر قَدَرَ الشيء يَقْدُرُهُ قَدْرًا، فهي ليلة الحُكم والتقدير.

التقدير الخامس: التقدير اليَومي؛ قال تَعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩].

قال مجاهدٌ والكلبيُّ وعُبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: «مِن شأنِه: أن يُحيي ويُميت، ويَرزق ويَمنع، ويَنصر، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويَفك عانيًا، ويَشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويَتوب علىٰ قوم، ويكشف كربًا، ويَغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويَرفع آخرين. دخل كلامٌ بعضهم في بعض...».

إلىٰ أن قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا تقديرٌ يوميٌّ، والذي قبله تقديرٌ حَوْلِيٌّ، والذي قبلَه تقديرٌ عُمري عند تَعلُّق النَّفس به، والذي قبله كذلك عند أَوَّل تخليقه، وكونه مضغة، والذي قبله تقديرٌ سَابق علىٰ وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقديرٌ سابقٌ علىٰ خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل علىٰ عِلم الرَّبِّ وقُدرته وحكمته، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسِه وأسمائه»(١).

(١) «شفاء العليل» (ص٣١- ٤٩).

وقولُ شيخِ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ **هنا**: «فهذا التقديرُ - أي: تقدير العِلم والكتابة- قد كان يُنكره غُلَاة القدرية قديمًا، ويقولون: إنَّ الأمرَ أُنف؛ أي: أنَّ اللهَ لا يَعلم أفعالَ العباد إلا بعد وجودها.

قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنَّ مَذهبَ أهلِ الحَقِّ إثباتُ القَدَر، ومعناه: أنَّ الله - تبارك وتعالىٰ - قَدَّر الأشياء في القِدَم، وعَلِمَ - سبحانه - أنَّها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلىٰ صفاتٍ مخصوصة؛ فهي تقع علىٰ حسب ما قَدَّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُقَدِّرها، ولم يتقدم علمُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وأنَّها مُستأنفة العلم، أي: إنَّما يَعلمها - سبحانه - بعد وقوعِها، وكذبوا علىٰ الله سُبحانه وتَعالىٰ وجَلَّ عن أقوالهم الباطلة علوًّا كبيرًا.

وسُمِّيت هذه الفرقةُ قدريَّة؛ لإنكارهم القَدَر؛ قال أصحابُ المَقالات من المُتَكَلِّمين: وقد انقرضت القدريةُ القائلون بهذا القول الشَّنيع الباطل، ولم يَبق أحدٌ من أهل القِبلة عليه، وصارت القدريةُ في الأزمان المتأخرة تَعتقد إثبات القَدَر، لكن يقولون: الخير من الله، والشَّرُّ مِن غيره»[1].



(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١/ ١٥٤).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأمَّا الدرجة الثانية فهي مَشيئته النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأنَّه ما في السموات وما في الأرض مِن حركة ولا سُكون إلَّا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في مُلكه إلا ما يُريد، وأنه - سبحانه - علىٰ كلِّ شيء قدير مِن المَوجودات والمعدومات؛ فمَا مِن مخلوقٍ في الأرض ولا في السَّماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالقَ غيرُه، ولا رَبَّ سِواه.

ومع ذلك فقد أَمَرَ العِباد بطاعته وطاعة رسوله، ونَهاهم عن مَعصيته، وهو- سبحانه- يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحسنين والمُقسطين، ويَرضىٰ عن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، ولا يُحِبُّ الكافرين، ولا يَرضىٰ عن القوم الفاسقين، ولا يَأمر بالفحشاء، ولا يَرضىٰ لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

والعِبادُ فاعلون حقيقة، واللهُ خالقُ أفعالِهم، والعبدُ هو المُؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، والمُصَلِّي والصَّائم، وللعباد قُدرة علىٰ أعمالِهم، ولهم إرادة، واللهُ خالقُهم وخَالق قُدرتهم وإرادتهم، كما قال تَعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وهذه الدرجةُ من القَدر يُكَذِّب بها عامَّةُ القَدرية الَّذين سَمَّاهم النَّبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأُمَّة، ويَغلو فيها قومٌ من أهل الإثبات حتىٰ سَلَبُوا العبدَ قُدرتَه واختيارَه، ويُخرجون عن أفعالِ الله وأحكامِه

حِكَمِها ومَصَالِحِها».

الشرح:

هذه الدرجة الثانية وهي كذلك **قد تَضَمَّنت مَرتبتين من مراتب القَدَر، وهما**: (المشيئة والخَلْق).

أمَّا المَشيئة، فقد قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة المَشيئة**:

وهذه المرتبةُ قد دلَّ عليها إجماعُ الرُّسل مِن أَوَّلهم إلىٰ آخرهم، وجميع الكُتُب المُنزلة من عند اللهِ، والفِطرة التي فَطَرَ اللهُ عليها خلقه، وأدلة العقول والبيان، وليس في الوجود مُوجب ومُقتض إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عمومُ التوحيد الذي لا يقوم إلا به.

والمسلمون مِن أَوَّلِهم إلىٰ آخرهم مُجمعون علىٰ أنَّه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع في مُلكه إلا ما يريد حتىٰ وإن كان مخالفًا لأمره الشرعي، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد أن يَمتحن عباده، فجعل لهم إرادة وقدرة؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا؛ فمن آمن واستقام فاز، ومن كفر وعاند فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ فتُجزىٰ كل نفس بما عملت، فالعِبادُ فاعلون حقيقة، واللهُ خالقُ أفعالِهم، وللعباد قُدرة علىٰ أعمالِهم، ولهم إرادة، واللهُ خالقُهم وخَالق قُدرتهم وإرادتهم، كما قال تَعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التّكوير: ٢٨-٢٩]، وقد يريد العبدُ الشَّرَّ، ولكن الله لا يُمكنه منه؛ فكلُّ شيء داخل تحت إرادته ومَشيئته، ولا يَخرجُ العباد أبدًا في كل أمورهم عن تلك الإرادة والمشيئة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عِمـرَان: ٤٠]، وقـال جـل وعـلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعَام: ١١٢]»[١].

وجاء في حديث حذيفة بن أسيد في شأن الجَنِين: «**فَيَقضي ربُّك ما يشاءُ، ويَكتبُ المَلَكُ**»[٢].

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْفَعُوا تُؤجروا، ويَقضي الله علىٰ لسان نَبِيِّه ما يشاء**»[٣].

أنواع الإرادة:

لله - جل وعلا - إرادتان: كونية قدرية، ودينية شرعية.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهاهنا أمرٌ يَجب التَّنبيه عليه، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تَعرض لمن لم يُحِط به عِلْمًا، وهو أن الله - سبحانه - له الخلقُ والأمرُ، **وأمرُه - سبحانه - نوعان**: أمر كَوني قَدَرِي، وأمر دِيني شَرعي.

فمشيئته - سبحانه - مُتعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يُبغضه، وخَلَقَ الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يُبغضها، فمشيئته - سبحانه - شاملة لذلك كله.

وأمَّا محبته ورضاه فمُتعلقة بأمره الدِّيني وشَرعه الذي شَرَعَه

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص٩٣) بتصرف واختصار.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٣٢).

علىٰ أَلْسِنة رُسلِه، فما وُجد منه تَعَلَّقَت به المحبةُ والمشيئةُ جميعًا فهو محبوبٌ للرَّبِّ، واقعٌ بمشيئته؛ كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يُوجد منه تَعَلَّقت به محبته وأمرُه الدِّيني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وُجد من الكفر والفسوق والمعاصي تَعلَّقت به مشيئتُه، ولم تتعلق به محَبَّتُه، ولا رِضاه ولا أمره الدِّيني، و ما لم يُوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كونيٌّ، ولفظ المَحَبَّة دينيٌّ شرعيٌّ، ولفظ الإرادة ينقسم إلىٰ إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة.

وإذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] لا يناقض نصوص القدر والمَشيئة العامة الدَّالة علىٰ وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإنَّ المَحَبَّةَ غيرُ المَشيئة، والأمرَ غيرُ الخلقِ، ونظير هذا: الأمر؛ فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يُعصىٰ ويُخالف بخلاف الأول».

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسبحانه أن يكون في مَملكته ما لا يشاءُ أو أن يشاء شيئًا فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يُحِبُّه ولا يَرضاه، وإن كان يحبُّ الشيءَ فلا يكون لِعَدم مشيئته له، ولو شاءه لَوُجِد»(١).

فالعبودية لله نوعان:

الأوَّل: عبوديَّة عامَّة، وهي عبودية القهر والملك لجميع الخلق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مَريَم: ٩٣].

الثاني: عبودية خاصَّة، وهي عبودية الشرع من الإيمان

---

(١) «شفاء العليل» (ص١٠٥، ١٠٦).

والطاعة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وتَختلف الإرادتان في مُوجبهما، وفي مُتَعلقهما:

ففي المُتعلق: الإرادة الكونية تتعلق فيما وَقعَ سواء أَحَبَّه أم كَرِهَه.

والإرادةُ الشرعيَّةُ تتعلق فيما أَحَبَّه سواء وَقَعَ أم لم يقع.

وفي موجبهما: الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المُراد، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها وقوع المراد، وعلىٰ هذا يكون قول المؤلف: «**ولا يكون في مُلْكِه ما لا يُريد**»: يعني به: الإرادة الكونية.

ثم قال: «وأنه - سبحانه - علىٰ كلِّ شيء قدير مِن المَوجودات والمعدومات؛ فمَا مِن مخلوقٍ في الأرض ولا في السَّماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالقَ غيرُه، ولا رَبَّ سِواه».

فهنا يردُّ شيخ الإسلام علىٰ القدرية القائلين: إنَّ العبدَ مُستقلٌّ بعمله، وأنَّ اللهَ ليس بقادرٍ علىٰ فعله.

أي: أنَّه ما من شيءٍ موجود أو معدوم إلا واللهُ قادرٌ عليه، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فَاطِر: ٤٤].

وكلمة «**مخلوق**» نكرةٌ في سياق النفي تُفيد العموم؛ فما مِن شيء صغر أم كبر إلا والله - سبحانه - وحده المُنفرد بخلقه، قال جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القَمَر: ٤٩]، ومِن ذلك أنه خَلَقَ العِباد وصفاتهم

وأعمالهم؛ قال تَعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات: ٩٦].

ثم قال: «**ومع ذلك فقد أَمَرَ العِباد بطاعته وطاعة رسوله، ونَهاهم عن مَعصيته، وهو - سبحانه - يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحسنين والمُقسطين**».

فلا تعارضَ بين ما أراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونًا وقدرًا وبين ما أراده دينًا وشرعًا.

فما أراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونًا وقدرًا قد يحبه ويرضاه وقد لا يحبه ولا يرضاه، وما أراده دينًا وشرعًا فهذا متعلق بمحبته؛ لأنه- سبحانه- أَمَرَ عبادَه بطاعته، ونَهاهم عن معصيته.

وعليه، فلا تَعارض بين تقديرِه للمعاصي وبُغضِه لها.

وليس لأحدٍ أن يَحْتَجَّ بالقدر علىٰ ارتكاب المنهيات وترك الأوامر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس لأحدٍ أن يَحتج بالقَدَر علىٰ الذَّنب باتِّفاق المُسلمين وسائر أهل المِلل وسائر العُقلاء، فإنَّ هذا لو كان مقبولًا لأمكن كلُّ أحدٍ أن يفعل ما يَخطر له مِن قَتْل النُّفوس، وأَخْذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويَحتج بالقدر، ونَفْس المُحتج بالقَدَر إذا اعتُدي عليه، واحْتَجَّ بالقدر المُعتدي لم يَقبل منه، بل يَتناقض، وتناقض القول يَدُلُّ علىٰ فسادِه، فالاحتجاجُ بالقدر معلومُ الفَساد في بداءة العقول»[1].

وقال: «وأما القدر، فإنه لا يَحتج به أحدٌ إلا عند اتِّباع هَوَاه، فإذا فَعَلَ فِعْلًا مُحَرَّمًا بمجرد هواه وذوقه وَوَجْدِه من غير أن يكون له

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ١٧٩).

علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلىٰ القَدَر، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

فبين أنَّهم ليس عندهم علمٌ بما كانوا عليه من الدِّين، وإنما يتبعون الظنَّ».

إلىٰ أن قال: «والعبدُ مَأمور أن يَصبر علىٰ المَقدور ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما قال تَعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال طائفة من السَّلف: هو الرَّجل تُصيبه المُصيبة فيَعلم أنها من الله فيَرْضَىٰ ويُسَلِّم.

فَمَن احتجَّ بالقَدَر علىٰ ترك المأمور وجَزِع مِن حُصول ما يكرهه من المَقدور - فقد عَكَس الإيمان والدِّينَ، وصار من حِزب المُلحدين المنافقين، وهذا حالُ المُحتجين بالقَدَر»[1].

ثم قال المصنف: «وهذه الدرجةُ من القَدَر يُكَذِّب بها عامَّةُ القَدرية الَّذين سَمَّاهم النَّبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأُمَّة».

أي: هذه الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَر (درجةُ المَشيئةِ والخَلْق) - يُكَذِّبُ بها عَامَّةُ القَدَرِيَّة النُّفَاة الذين يقولون: إن العبد يخلق فِعْلَ نَفْسِه بدون مشيئةِ الله وإرادتِه.

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣٢٤- ٣٢٦).

وقد سَمَّاهُم النَّبي ﷺ مَجُوسَ هذه الأُمَّة؛ لمشابهتهم للمجوس الذين يُثْبِتُون خالقَين، هما: النُّور، والظُّلمة، فالنور عندهم خَلَقَ الخَيْرَ، والظلمة خلقتِ الشَّـرَّ، فصاروا بذلك ثَنَوِيَّةً، وهؤلاء القدرية جعلوا خالقًا مع الله، فزعموا أن العبادَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالهم بدون إرادةِ الله ومشيئته.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويَغْلُو فيها قومٌ مِن أهلِ الإِثْبَاتِ، حتىٰ سَلَبُوا العبدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيَارَهُ**»، والمراد بهم: الجبريَّةُ الذين جاوزوا الحدَّ في الإثباتِ، حتىٰ جعلوا الفاعلَ حَقِيقَةً لفعل العبد خيرِه وشرِّه هو اللهُ، وزعموا أنَّ الفِعْلَ إنما نُسِبَ إلىٰ العبد مَجازًا، وهو في الحقيقة مجبورٌ عليه؛ وليس له اختيار، كالرِّيشة في مهبِّ الرِّيح تحركها كيفما شاءت.

وهؤلاء هم الجهمية؛ أتباع جَهم بن صفوان، والمصنف لم يُسَمِّ الجهمية وحدهم؛ لأن الأشعرية كذلك معهم؛ لأن قول الأشعرية بالكسب في حقيقة الأمر هو نفس القول بالجَبْر.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويُخْرِجُونَ عن أفعالِ اللهِ وأحكامِه حِكَمَهَا ومَصَالِحَها**»؛ فعندما يُسلب العبد من قدرته وإرادته فهذا يعني أنه خُلق بلا حكمة ولا مصلحة، وهو كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذه ليست حجة؛ لأن الله جل وعلا قد جعل لهم إرادة وقدرة، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر علىٰ المعاصي والقاعدة عند أهل السنة في ذلك: (الاحتجاج بالقدر علىٰ المصائب لا علىٰ المعائب)، أي: يُحتجُّ بالقدر علىٰ المصائب التي تُصيب الإنسان؛ لأنه مأمور أن يقول عند نزول القضاء: قدر الله وما شاء فعل؛ قال ﷺ: «**وإن أصابَك شيءٌ**

فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قُل: قَدر الله وما شاء فعلَ؛ فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ويُذكر أنَّ رجلًا سرق فقال لعمر : سَرقتُ بقضاءِ الله وقَدَرِه! فقال له: وأنا أقطعُ يدَكَ بقضاء الله وقَدَره»(٢).



(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٣٤).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن أصولِ أَهْلِ السُّنَّة والجَمَاعَة: أنَّ الدين والإيمانَ قولٌ وعملٌ؛ قولُ القلبِ واللسانِ، وعملُ القَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وأن الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعةِ، وينقصُ بِالمَعْصِيَةِ.

وهُمْ مَعَ ذلك لا يُكَفِّرُونَ أهل القِبْلَةِ بمطلق المعاصي والكَبَائِر، كما يفعله الخَوَارِج.

بل الأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ ثابتةٌ مع المعاصي، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: في آية القِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

ولا يَسْلِبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإِسْلَامَ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُخَلِّدُونَهُ في النَّارِ كما تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ.

بل الفاسقُ يَدخل في اسم الإيمانِ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخل في اسم الإيمانِ المُطْلَق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يسرقُ السَّارِقُ حين يَسْرِقُ وهو مؤمنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حين يَشْرَبُها وهو

مؤمنٌ، ولا يَنْتَهِب نُهْبَةً ذات شَرَفٍ يرفع النَّاسُ إليه فيها أبصارَهم حين يَنْتَهِبُهَا وهو مؤمنٌ».

ونقول: هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مؤمنٌ بإيمانِه، فاسقٌ بكبيرتِه، فلا يُعطىٰ الاسمَ المطلقَ، ولا يُسلَب مطلقَ الاسْم».

الشرح:

بعد أن بَيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ما يتعلق بأركان الإيمان - شرع هنا في بيان ما يتعلق بما يُسَمِّيه العلماءُ بابَ (الأسماء والأحكام).

تنبيه:

قد رتَّب العلماءُ مسائل الاعتقاد علىٰ حسب أولويتها عند أهل السنة؛ لذا ينبغي مراعاة هذا الترتيب؛ فمثلًا جعل شيخ الإسلام في هذه العقيدة بابَ (الأسماء والأحكام) متأخرًا عما يتعلق ببيان أركان الإيمان، وهذا ما جرىٰ عليه العلماءُ.

ولكنَّ بعض أهل الباطل يريدون أن يخالفوا هذا الترتيب؛ فيقدموا ما يتعلق بباب (الأسماء والأحكام) علىٰ ما يتعلق ببيان أركان الإيمان، بما في ذلك الإيمان بالله؛ وهذا يُؤدي إلىٰ أن يسارع المبتدئون إلىٰ الخوض في مسائل (الأسماء والأحكام) دون أن يدرسوا ابتداء مسائل الاعتقاد الأساسية، وهذا من تلاعب أصحاب المناهج المخالفة المُتَّبعين لأهوائهم، وقد أدىٰ بهم هذا إلىٰ الانحراف في الفهم، وسوء التصور للمسائل، وإطلاق التكفير بدون ضوابط.

معنىٰ الأسماء والأحكام:

الأسماء أي: ما يتعلق باسم الإيمان أو اسم الكفر، أو اسم الشرك أو اسم النفاق، ونحو ذلك.

وأمَّا الأحكام فهي المُترتبة علىٰ دخول العبد في هذه الأسماء، وما يترتب علىٰ خروجه منها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **«ومن أصولِ أَهْلِ السُّنَّة والجَمَاعَة: أنَّ الدين والإيمانَ قولٌ وعملٌ؛ قولُ القلبِ واللسانِ، وعملُ القَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وأن الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعةِ، وينقصُ بِالمَعْصِيَةِ»**.

مِن المعلوم: أنَّ أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل؛ قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل اللسان، وعمل الجوارح، ويريدون بقول القلب: التصديق الذي هو العلم.

والعقيدة يُراد بها الباطن، والباطن في أصله هو مجموع الأمرين؛ أي: مجموع الفِكر والنَّظر الذي يكون في العقل، ومجموع الإرادة والعمل الذي يكون في الصَّدر، فلا بد للقلب من واجبين هما: (جانب العلم، وجانب العمل)، ففي باب الإيمان لا بد من العلم بالله، وهذا قول القلب. ولا بد من عمل القلب الذي هو (الإقرار والانقياد)، ومن ذلك: الحُب والرَّجاء والخوف والتقوىٰ والإنابة...

وكالإيمان بكتاب الله؛ فهو إمَّا أخبار وإما أوامر، فالأخبار حقُّها التصديق، والأوامر حقُّها العمل.

وعليه لكي نكون مؤمنين بالله: أن نكون مُصَدِّقين أوَّلًا بما أخبر، ثم مُتَّبعين لما أَمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونجمع بين قول القلب الذي هو العِلم، وقول اللسان الذي هو النُّطق بالشهادتين.

وقد تعارف العلماء علىٰ أن المقصود بقول اللسان: هو النطق بالشَّهادتين، كما قال رسولنا ﷺ: **«أُمِرْتُ أن أُقاتل الناسَ حتىٰ يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فمَن قال: لا إلٰه إلا الله، فقد عَصم مِنِّي**

نفسَه ومالَه إلا بحقِّه، وحسابُه علىٰ الله»(١).

وعمل القلب: هو الأعمال القلبية التي مجموعها (الإقرار والانقياد)، ومن ذلك الحب والخوف والرجاء والإنابة والتقوىٰ...

وعمل اللسان: الطاعات اللسانية من ذِكر الله وقراءة القرآن والدعوة إلىٰ الله ونحو ذلك.

وعمل الجوارح: هو المعلوم من أركان الإسلام من صلاة وصيام وحج وسائر الطاعات التي تكون متعلقة بالبدن.

ثم أهل السنة يَرون أن الإيمانَ يَزيد وينقص؛ فقد قال ﷺ: **«الإيمانُ بِضْعٌ وسَبعون - أو بِضع وستون - شُعبة، فأفضلها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان»**(٢).

فعلىٰ هذا فإن كلَّ الطاعات تُسَمَّىٰ إيمانًا؛ فالصلاة تسمىٰ إيمانًا؛ فعن البراء رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ صَلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يُعجبه أن تكون قِبلته قِبَلَ البيت، وأنَّه صَلَّىٰ، أو صلاها، صلاة العصر وصلىٰ معه قوم، فخرج رجلٌ ممن كان صلىٰ معه فمَرَّ علىٰ أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله، لقد صَلَّيْتُ مع النبي ﷺ قِبَلَ مَكَّة؛ فَدَاروا كما هُم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات علىٰ القبلة قبل أن تُحَوَّل قِبَلَ البيت رجالٌ قُتِلوا، لَم نَدْرِ ما نقول فيهم؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٦).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل الذنوب مُؤمنون مُذنبون وقد سَمَّىٰ الله تعالىٰ العمل إيمانًا، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ يريد صلاتكم إلىٰ بيت المقدس»(١).

والوضوء يسمىٰ إيمانًا؛ ففي الحديث: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان**»(٢)، أي: نصف الإيمان؛ لأنه نصف الصلاة.

وهكذا، فكل الطاعات تسمىٰ إيمانًا.

والإيمانُ شُعَبٌ، كما سبق في الحديث، ومِن شُعب الإيمان ما لو زالت لزال الإيمان؛ فمثلًا (لا إلٰه إلا الله) لو زالت لزال إيمان العبد.

وهناك شُعبة لو زالت لما زال الإيمان؛ كإماطة الأذىٰ، فإن لم يفعل العبد ذلك ما زال إيمانُه، ولكن قد يكون هذا نقصًا في الإيمان، فعلىٰ هذا قال ﷺ: «**أدناها**»، و«**أعلاها**»، فهي شُعَبٌ متفاوتة، وبقدر التزام العبد بتلك الطاعات يكون ذلك سببًا في زيادة إيمانه، والعكس بالعكس.

وفي المُقابل فالكفر شُعَبٌ، وكل المعاصي تسمىٰ كفرًا، وإن كان هناك كفر دون كفر، إلا أن كل معصية فهي شُعبة من شعب الكفر.

فأهل السنة يَفترقون عن غيرهم بمسائل مهمة؛ ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ومن الأدلة علىٰ زيادة الإيمان: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

---

(١) «موطأ مالك» (١/ ٢٥٥- الأعظمي).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

ومن الأدلة علىٰ نُقصان الإيمان: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ، فمر علىٰ النساء، فقال: «**يا معشر النساء تَصَدَّقن؛ فإني أُريتكن أكثر أهل النار**». فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «**تُكثرن اللعن، وتَكفرن العَشير، ما رأيتُ مِن ناقصات عقل ودين أذهبَ لِلُبِّ الرجل الحازم مِن إحداكن**»، قلن: وما نُقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «**أليس شهادة المرأة مِثل نِصف شهادة الرجل**». قلن: بلىٰ، قال: «**فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟**». قلن: بلىٰ، قال: «**فذلك مِن نقصان دينها**»[(١)].

فبَيَّن النبيُّ ﷺ أن النقصان يقع في الدين (الإيمان)، كما يقع في العقل.

ثم أهلُ السنة يستثنون في الإيمان؛ لأن الإيمان هو فِعل كل الواجبات ولا يَدَّعي إنسان أنه قد فعل كلَّ الواجبات، فلا يُزَكِّي نفسه، فيصح إذًا الاستثناء في الإيمان لا علىٰ سبيل الشك، وإنما علىٰ سبيل عدم تزكية النفس، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

وكذلك يَرىٰ أهلُ السنة أن العبد قد يجتمع فيه إيمان وكفر، وقد يجتمع فيه إيمان ونفاق، وإن كان هناك كفر دون كفر ونفاق دون نفاق.

فتجد الرجل يصلي ويصوم وقد يكذب ويسرق، فهذا إن دلَّ فإنما يدل علىٰ أنه قد يجتمع فيه الإيمان وشُعبة من شُعَب الكفر؛ لذا تراه علىٰ جملة من الطاعات وكذلك يكون متلبسًا بجملة من المعاصي، فيجتمع فيه الإيمان والكفر غير المخرج من الملة (أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) واللفظ له، وأخرجه مسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كفر دون كفر).

ولذلك كان الصَّحابة يخشون علىٰ أنفسهم النفاق؛ فعمر رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه - وهو أمين سِرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنْشُدُكَ اللهَ، هل سَمَّانِي لك رَسُولُ اللهِ. يعني في المنافقين! فيقول: لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا»(١).

فالنفاق علىٰ نوعين: أكبر وأصغر.

فالأكبر: هو الكفر التام الذي يُبطنه صاحبه.

والأصغر بأن يكون في قلب صاحبه مادة إيمان ومادة كفر؛ وعلىٰ حسب قُربه من أحدهما يُختم له به؛ نسأل الله العافية من الكفر والنفاق، ونسأله الوفاة علىٰ الإيمان!

ومسائل الأسماء والأحكام من أعظم المسائل وأخطرها علىٰ الإطلاق، لأنَّ أول فُرقة وفِتنة وقعت في هذه الأمة كانت بسبب سوء الفهم لهذه المسألة، فكفَّر الخوارجُ عليًّا ومعاوية رضي الله عنهما، ثم حَكموا بكفر الحَكَمَين بعد التحكيم في دُومة الجندل، حتىٰ وصل الأمر بهم إلىٰ تكفير جُلِّ الصحابة، ثم سار الروافض علىٰ هذا النهج؛ فكَفَّروا كلَّ الصحابة إلا نَزرًا يسيرًا، لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وقالوا بِرِدَّة الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم لم يقولوا بوصية عليٍّ، أي: أحقيته في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا جاء القدرية والمعتزلة فسَلَبوا عن أصحاب الكبائر مُسَمَّىٰ الإيمان، وقالوا: إنهم في منزلة بين المنزلتين، وحَكموا عليهم في الآخرة - كما حكم الخوارج - بالخلود في النار.

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٨١)، والخَلَّال في «السُّنَّة» (١٣١٤).

ولم تَزل هذه الأفكار تنتقل مِن قائل إلىٰ قائل حتىٰ وصلت إلىٰ عصرنا الحاضر، وإن كانت تَحمل أسماء متعددة لكن تبقىٰ هي بعينها؛ فترىٰ وتسمع من يكفر المجتمعات المسلمة، ويقول: إنها مجتمعات جاهلية وكافرة، ويُرَتِّب علىٰ ذلك تكفير الحاكم والحكومات، بل وتكفير مَن يتبع الدولة مِن موظفين عَسكريين ومَدنيين، بل وكَفَّروا العلماء، حتىٰ وصل الأمر بهم إلىٰ تكفير عامَّة الناس، واستحلوا دماءهم وأعراضهم.

فأطلقوا تكفيرهم في المجتمعات المسلمة، واستعملوا ضدهم السلاح.

وهذا ليس من قول أهل السنة في شيء، وإنما هو ميراث أولئك الروافض والخوارج والمعتزلة.

وأمَّا أهل السنة فإن شيخ الإسلام - مثلًا- قال في هذه العقيدة:

«وهُمْ مَعَ ذلك لا يُكَفِّرُونَ أهل القِبْلَةِ بمطلق المعاصي والكَبَائِر».

وقوله: «**أهل القبلة**» يَشمل الأمة بمجموعها، وإن كان فيها مَن هو علىٰ فكر مُخالف؛ لذلك لما سئل علي رضي الله عنه عن الخوارج: «أمشركون هم؟ قال: مِن الشرك فَرُّوا. فقالوا: أفمنافقون؟ قال: إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا - أي: هؤلاء يذكرون الله كثيرًا - قيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بَغَوْا علينا؛ فقاتلناهم ببغيهم علينا!»[(١)].

وذكر الحسن أنه قال عنهم: «قوم أصابتهم فتنة؛ فعَموا فيها وصَمُّوا»[(٢)].

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ١٥٠) برقم (١٨٦٥٦).

ولقد وضع أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه منهجًا قويمًا في التعامل مع هذه الطائفة، تَمثل هذا المنهج في قوله رضي الله عنه للخوارج: «... إلَّا أنَّ لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا: لن نَمنعكم مساجد الله، ولا نمنعكم فيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نُقاتلكم حتىٰ تُقاتلوا»(١).

وقد التزم لهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلىٰ أن قتلوا عبد الله بن خَبَّاب بن الأَرَت، وبقروا بطن جاريته؛ فطالبهم رضي الله عنه بِقَتَلَته فَأَبَوْا، وقالوا: كلنا قَتَله، وكُلُّنا مُستحل دماءكم ودماءهم، فسَلَّ عليهم رضي الله عنه سيفَ الحق حتىٰ أبادهم في وقعة النهروان(٢).

ومن منهجه رضي الله عنه في التعامل مع الخوارج حال بقائهم في جماعة المسلمين: مُحاورتهم لإزالة الشبهات التي لديهم؛ فقد أرسل إليهم عبد الله بن عباس فحاورهم، وحاورهم هو بنفسه فرجع منهم جَمٌّ غفير.

وبعد قتال أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه للخوارج - حرص علىٰ تحذير الناس من مسلكهم، حتىٰ إنه لما انتهىٰ من النهروان جعل يَمشي بين القتلىٰ ويقول: «بُؤسًا لكم! لقد ضَرَّكم مَن غَرَّكم! فقال أصحابه: يا أمير المؤمنين ومَن غَرَّهم؟ قال: الشيطانُ وأنفسٌ بالسُّوء أَمَّارة غَرَّتهم بالأماني، وزَيَّنت لهم المعاصي، ونَبَّأتهم أنهم ظاهرون»(٣).

وأمر إنزال الأحكام علىٰ الأنام مِن أخطر ما يكون؛ إذ هو حق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، **يقول شيخ الإسلام** رحمه الله: «فإنَّ الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلىٰ الله ورسوله؛ ليس لأحد

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٦٢) برقم (٥٦٢).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٠/ ٥٨٤).

(٣) انظر: «البداية والنهاية» (٧/ ٢٨٨).

في هذا حكم، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه اللهُ ورسولُه؛ وتحريم ما حَرَّمه الله ورسوله، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله»(١).

وفي عصرنا الحاضر غَرَّ هؤلاء - أيضًا - مَن غَرَّهم بهذا الفكر المنحرف الفاسد الذي ما قاله أهل السنة، وهم يريدون أن يصوروه للناس على أنه منهج السلف، وأنهم سلفية، وأهل السنة والسلفية من ذلك براء.

وكتب أهل السنة موجودة بحمد الله، وفيها أنهم لا يُكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما تفعله الخوارج.

وفاعل الكبيرة وإن وقع فيما يسمى كفرًا إلا أنه كفر دون كفر، وهو كفر عملي أصغر لا يُخرج من الملة.

فقتال المسلم وإن وصفه النبي ﷺ بالكفر في قوله: «**سِباب المُسلم فُسوق، وقِتاله كفرٌ**»(٢)، إلا أن المراد به: الكفر الأصغر الذي لا يُخرج من الملة؛ لأن الله ﷻ قد أثبت أُخوَّة الإيمان للمؤمنين حال اقتتالهم ونزاعهم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحُجرات: ٩-١٠]، وكذلك أثبت أخوة الإيمان لمن قتل أخاه المسلم فقال جل وعلا: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ثم قال ﷺ: «**ولا يَسْلِبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإِسْلَامَ بالكُلِّيَّةِ، ولا**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٤، ٥٥٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يُخَلِّدُونَهُ في النَّارِ كما تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ».

فأهل السنة لا يَسلبون الإيمان من الفاسق من أهل ملة الإسلام، ولا يقولون بخلوده في النار، وإنما يُبقون عليه اسم الإيمان، وإن كان ليس كامل الإيمان، بل هو مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته.

هذا؛ لأن الدِّين ثلاث دوائر: (الإسلام والإيمان والإحسان).

فأوسع الدوائر الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فليس كل مسلم مُحسن، ولكن كل مُحسن مسلم.

ولا نستطيع أن نُخرج الإنسان من الإسلام بعد أن نطق بالشهادتين إلا بموجب ذلك يقينًا، وهو ما يُسَمَّىٰ بأحكام الرِّدة والمرتد، ولها ضوابط معلومة عند أهل العلم.

ولبيان خطورة التكفير بتسرُّع ودون بينة - قال ﷺ: «**أيُّما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدُهما، إن كان كما قال، وإلا رجعَت عليه**»[(١)]، وقال ﷺ: «**... ولعن المؤمن كقتلِه، ومَن رمىٰ مؤمنًا بكفر فهو كقتله**»[(٢)].

ولذلك قال أبو بكرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه**»[(٣)]؛ فعاقبه علىٰ نِيَّته.

فما بالنا بمَن يُكَفِّرون المجتمع بأسره، ويقتلون الصغير

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠) واللفظ له، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٧) ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٧٥) ومسلم (٢٨٨٨).

والكبير، ولا يُراعون حرمة لطفل ولا لامرأة، وقد يُحدثون التفجير في بيوت الله.

وهذا من أوضح الأمور علىٰ بُعدهم عن الحق.

وذلك أنهم اتَّبعوا أهواءهم، وتركوا التَّعلُّم، واتخذوا رءوسًا جهالًا لهم؛ فسألوهم؛ فأفتوهم بغير علم؛ فضلوا وأضلوا.

وقد عَمل هؤلاء علىٰ إسقاط كل العلماء، وهذا كفعل أسلافهم قديمًا، وتأمل قصة مناظرة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج حيث جاءهم في أحسن ما يكون من حُلَل اليمن، فعابوا عليه لبسه هذه الحُلَّة، فقال لهم: ما تَعِيبون عليَّ؟! لقد رأيت علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنَ ما يكون من الحُلَل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال لهم: أتيتُكم من عند أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ المهاجرين والأنصار، ومِن عند ابن عمِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأوِيله منكم، وليس فيكم منهم أحدٌ؛ لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون.

فناظرهم، فرجع منهم عشرون ألفًا، وبقي منهم أربعة آلاف؛ فقُتِلُوا علىٰ ضلالتهم؛ قتَلَهم المهاجرون والأنصار[(١)].

فالطعن في العلماء معروف عند هؤلاء قديمًا أيضًا، كما قال عبد الله بن سلمة الحضرمي: «سمعتُ عمرو بن عبيد يقول: لو شهد عندي عليٌّ، وطلحة، والزبير، وعثمان، علىٰ شِراك نَعل، ما أجزتُ

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (٨٥٢٢) بنحوه، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٦٤)، وقال: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافَقه الذهبي، وصحَّحه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٣٩- ٢٤١).

شهادتهم»[١].

وانظر إلىٰ هذه الجرأة والوقاحة؛ قال معاذ العنبري: سمعت عمرو بنَ عبيد يقول- وذكر حديث الصادق المصدوق-: «لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبْتُه، ولو سمعت زيدَ بن وهب يقول هذا ما أجبتُه، ولو سمعتُ عبد الله بنَ مسعود يقول هذا ما قَبِلْتُه، ولو سمعت رسولَ الله ﷺ يقول هذا لرددتُه، ولو سمعتُ الله تعالىٰ يقول هذا لقلتُ له: ليس علىٰ هذا أخذت ميثاقَنا»[٢].

علىٰ أنه ليس مقصود هؤلاء في هذا العصر الحاضر إسقاط شخص العالِم؛ لأنهم ما تركوا عالمًا، وإنما المقصود إبعاد الشباب عن العلماء؛ حتىٰ يستطيعوا أن يُسمموا أفكار الشباب، وإلا فما الذي نقموه علىٰ العلماء الذين هم بين الناس في المساجد والطرقات والأسواق؟

وما الذي نقموه علىٰ كبار العلماء مثل الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين؟!

فعلىٰ الشباب أن يلزموا غرز العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وقد أمر الله الأمة بالرجوع إليهم في النوازل فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، وأمر بسؤالهم عند الجهل فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣].

فالعالِم قد أفنىٰ زهرة عمره في الطلب والتحصيل، وهو حريص علىٰ تبليغ العلم وهداية الخلق، وفي يده مفاتيح العلوم ولن يُحرم

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبي (٣/ ٢٧٥).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٧٠) للخطيب البغدادي، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٨) للذهبي.

الطالب من الفوائد إذا جلس بين يديه.

وهذه مكانته التي بَوَّأه الله إيَّاها، ودرجته التي رفعه الله إليها؛ قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجَادلة: ١١].






قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن أُصولِ أهل السُّنَّة والجَمَاعَة: سلامةُ قُلوبِهِم وألسنتِهم لأصحابِ رسول الله ، كما وصفهم اللهُ بِهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وطاعةً لِرَسُولِ الله في قوله: «لا تَسُبُّوا أصحابِي، فوالَّذي نفسي بيَدِه لو أنَّ أَحَدَكُم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَهُ».

ويَقْبَلُونَ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ من فضائِلِهِم ومَرَاتِبِهِم.

ويُفَضِّلُونَ مَن أَنْفَقَ مِن قبلِ الفَتْحِ (وهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ) وقاتلَ عَلَىٰ مَن أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَل، ويُفَضِّلُونَ المُهاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ.

ويُؤْمِنُونَ بأَنَّ الله - سبحانه - قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وكانوا ثلاثمائة وبضعةَ عشَرَ: «اعْمَلُوا ما شِئْتُم؛ فقد غَفَرْتُ لَكُم».

وبأنه «لا يَدخلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»؛ كما أخبر به النَّبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثرَ مِن أَلْفٍ وأَرْبَعِمائَةٍ.

ويَشْهَدُونَ بالجنَّةِ لمن شَهِدَ له رسولُ الله ﷺ، كالعشرَةِ، وثابتِ بنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وغيرهم من الصَّحابة.

ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ،

ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ ﵃، كما دلَّت عليه الآثار.

وكما أجمع الصَّحابةُ ﵃ علىٰ تقديم عُثْمَانَ في البيعة، مع أنَّ بعضَ أهلِ السُّنَّة كانوا قد اختلفوا في عثمانَ وعليٍّ ﵄ بعد اتِّفاقهم علىٰ تقديم أبي بكر وعُمر أيهما أفضل، فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة علىٰ تقديم عُثْمان ثم عليٍّ.

وإنْ كانتْ هذه المَسْأَلَةُ (مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمارِ أَهْلِهِ».

الشرح:

ذكر المصنف ﵀ هنا أنَّ من أصول أهل السُّنَّة والجماعة: سلامةَ قلوبهم تجاه أصحاب النبي ﷺ، وذلك لأنهم حَمَلة ميراث النبوة، فهم علماء هذه الأمة وخيرها وأبرُّها، كما قال عنهم ابن مسعود ﵁: «مَن كان منكم مستنًّا، فليستنَّ بمَن قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا يُؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد، أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه، وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكوا بهديهم؛ فإنَّهم كانوا علىٰ الهُدىٰ المستقيم»[(١)].

وقد عَلَّق شيخُ الإسلام ابن تيمية ﵀ علىٰ هذا الأثر؛ فقال:

---

(١) أخرجه ابن عبد البرَّ في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٤)، مع اختلاف يسير في الألفاظ.



«وقول عبد الله بن مسعود: «كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا»: كلامٌ جامع، بيَّن فيه حُسن قَصدهم، ونيَّاتهم ببر القلوب، وبيَّن فيه كمال المعرفة، ودقتها بعمق العلم، وبيَّن فيه تيسير ذلك عليهم، وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف... وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس، الذين هداهم الله لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فليسوا مِن المغضوب عليهم الذين يتبعون أهواءهم، ولا من الضالين الجاهلين... بل لهم كمال العلم، وكمال القصد؛ إذ لو لم يكن كذلك للزم أن لا تكون هذه الأمةُ خيرَ الأمم، وأن لا يكونوا خيرَ الأمة، وكلاهما خلاف الكتاب والسُّنَّة.

وأيضًا فالاعتبار العقليُّ يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ مَن تأمَّل أمة محمد ﷺ، وتأمل أحوال اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين - تبيَّن له مِن فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم في العلم النافع والعمل الصالح ما يضيق هذا الموضع عن بسطه.

والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، ولهذا لا تجد أحدًا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه وعلى أمثاله، وتَجد مَن ينازع في ذلك كالرافضة من أجهل الناس. ولهذا لا يُوجد في أئمة الفقه الذين يُرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيدة المنصورة جيش رافضي، ولا في المُلوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهدوا عدوَّه مَن هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سِيرة محمودة مَن هو رافضي...»[1].

(١) «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٧٩- ٨١).

فالله جل وعلا قد اختار هؤلاء الصفوة لصحبة نبيه ﷺ، واختارهم لإقامة دينه؛ فحفظوا لنا القرآن وحفظوا سنة النبي عليه الصلاة والسَّلام، وما انحسروا في المدينة، وإنما جاهدوا في سبيل نشر هذا الدِّين في ربوع الأرض، وانطلقوا يُبلِّغون دين الله، وقد بلغ الإسلام في عهدهم مبلغًا عظيمًا، حتىٰ إن بعضهم تُوفي عند أسوار القسطنطينية؛ كأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، مع أنها لم تفتح إلا في زمن العثمانيين.

فالصحابة فازوا بخيرية الصحبة، فكان لهم السبق في الإيمان والفضل وجلالة القَدْر، وحمل ميراث النبوة وتبليغه، والجهاد في سبيله؛ فكانوا فرسانًا بالنهار رهبانًا بالليل.

ولذلك أهل السنة - والحمد لله - قلوبهم سليمة دائمًا من الغل أو الحقد والحسد تِجاه الصَّحب والآل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد زكَّىٰ المهاجرين والأنصار ومَن جاءوا بعدهم مُستغفرين لهم؛ فقال جل وعلا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وكذلك قلوب أهل السنة نقية تجاه حَمَلة ميراث النبوة من العلماء الصَّادقين والدُّعاة المخلصين والمقتفين لآثار النبي الأمين ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورثوا دينارًا**

ولا درهمًا، وَرَّثوا العلم؛ فمَن أَخذَه أَخذَ بحظٍّ وافرٍ»[(١)].

وأمَّا أهل الباطل فديدنهم بُغض أصحاب النبي ﷺ وبُغض حملة شريعته؛ لأنهم مخالفون لهم، وهم مُبغضون ناقمون على مخالفيهم حتى ولو كانوا في ذات فِرقتهم؛ فقد يحكمون بكفرهم وتبديعهم وتفسيقهم؛ إذا خالفوا نهجهم ولو يسيرًا.

أمَّا أهل السنة فقلوبهم تلهج- دائمًا- بالثناء والترضي على أصحاب النبي ﷺ، «ويَقْبَلُونَ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ من فضائلِهِم ومَرَاتِبِهِم».

ومن ذلك ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله جل وعلا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فقد أخبر الله - تعالىٰ - في هذه الآية أنه رضي عن هؤلاء رضًا مطلقًا، ورَضي عمن بعدهم رضًا مقيدًا، وهو شرط اتباعهم بإحسان؛ قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل مَن أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض - أو سَبَّ - بَعضهم، ولا

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢١٢).

سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخَيرهم وأفضلهم - أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم - أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم؛ عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل علىٰ أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون مَن رضي الله عنهم؟!

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عمَّن رضي الله عنه، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المُفلحون وعباده المؤمنون»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: ١١٥].

والمراد بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآية: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم في أعلىٰ درجات الإيمان والفضل والمنزلة، فقال: «**لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفَه**»[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٤٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهم في الفضل متفاوتون؛ فمن أنفق قبل الفتح (صُلح الحديبية) لا يستوي مع مَن أنفق بعده، وكذلك المهاجرون مُقَدَّمون علىٰ الأنصار، ويأتون في الفضل علىٰ مراتب؛ فأهل بدر، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم من جاء بعدُ.

وقد جاء في فضل أهل بدر؛ قوله ﷺ: «**لعلَّ الله اطَّلع إلىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة- أو- فقد غفرتُ لكم**»(١)، وقال الله - جل وعلا - عن أهل بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ونشهد بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ منهم؛ فقد شهد ﷺ للعشرة؛ فقال: «**أبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**»(٢).

وشهد ﷺ لثابت بن قيس بالجنة؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلىٰ آخر الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا مِن أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٧٥) والترمذي (٣٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٤٦).

سعد بن معاذ، فقال: «**يا أبا عمرو، ما شأنُ ثابت؟ اشتكىٰ؟**». قال سعد: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوىٰ، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أني مِن أرفعكم صوتًا علىٰ رسول الله ﷺ، فأنا مِن أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو مِن أهلِ الجَنَّة**»(١).

وشهد ﷺ لعُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه أنه من السَّبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ(٢).

وشهد ﷺ لبلالٍ بالجنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «**يا بلال، حَدِّثني بأرجىٰ عمل عملته في الإسلام؛ فإني سمعتُ دَفَّ نَعليك(٣) بين يدي في الجَنَّة!**». قال: ما عملت عملًا أرجىٰ عندي: أني لم أتطهر طهورًا - في ساعة ليل أو نهار - إلَّا صَلَّيت بذلك الطهور ما كُتِب لي أن أُصَلِّي»(٤).

وبشَّر ﷺ خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة مِن قَصب؛ لا صخب، فيه ولا نصب(٥).

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**أَنتِ زوجتي في الدنيا والآخرة**»(٦).

وشهد ﷺ لغيرهم من الصحابة.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أي: حركة نعليه وصوتهما في الأرض.

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨١٩) ومسلم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٧٠٥٣).

فكلُّ مَن ثبت أنَّ النبي ﷺ قد شهد لهم بالجنة- فإننا نشهد لهم كذلك.

ثم قال المصنف رحمه الله: **«ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم، كما دلَّت عليه الآثارُ».**

وقد أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وإن كان بعض السلف قد اختلفوا في التفضيل بين عثمان وعلي - فإنهم لم يختلفوا في الترتيب في البيعة للخلافة، وكل مَن خالف الترتيب في الخلافة فإنه من أهل البدع.

وترتيب أهل السنة: (أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم).

وإن كان ثَمَّ خلاف في التفضيل بين عثمان وعليٍّ، ولكنه لا يترتب عليه أي أثر في الانتساب لأهل السنة؛ «فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة على تقديم عُثْمَان ثم عليٍّ.

وإنْ كانتْ هذه المَسْأَلَةُ (مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِهِ».

فلهم مِن الفضل ومِن المكانة ما هو مُجمع عليه بين أهل السُّنَّة.

❀ ❀ ❀




قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ويُحِبُّونَ أهلَ بَيْتِ رسولِ الله ﷺ ويَتَوَلَّوْنَهُم.

وَيَحْفَظُونَ فيهم وَصِيَّةَ رَسُولِ الله ﷺ، حيث قال يوم غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

وقال - أيضًا - للعبَّاس عَمِّهِ - وقد اشتكى إليه - أنَّ بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُون حَتَّىٰ يُحِبُّوكُم؛ للهِ، ولِقَرَابَتِي». وقال: «إن اللهَ اصْطَفَىٰ بني إسماعيلَ، واصطفىٰ مِن بني إسماعيلَ كِنَانَةَ، واصطفىٰ مِن كِنَانَةَ قُرَيْشًا، واصطفىٰ مِن قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصطفاني مِن بَنِي هَاشِمٍ».

ويَتَوَلَّوْنَ أزواجَ النَّبي ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، ويؤمنون بأنهنَّ أَزْوَاجُهُ في الآخِرَة، خصوصًا خديجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أمُّ أكثر أولاده، وأول من آمن بِهِ وعَاضَدَهُ علىٰ أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي قال فيها النَّبي ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ».

ويَتَبَرَّءُونَ مِن طريقة الرَّوَافِضِ الذين يُبْغِضُونَ الصَّحابة، ويَسُبُّونَهُم، ومن طريقة النَّواصب الذين يؤذون أهلَ البيت بقولٍ أو عملٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ

عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الجُمْلَةِ، وَلَهُم مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ - إِنْ صَدَرَ -، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ القَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ القَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ .

وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ».

الشرح:

من عقيدة أهل السنة: حُبُّ آل بيت النبي ﷺ، فنحن مأمورون بحبِّهم؛ لأنَّ حُبَّهم من حب النبي ﷺ، وقد جاءت الآثار ببيان

فضلهم والحث علىٰ محبتهم.

لذا يجب علينا أن نتولاهم وأن نترضىٰ عنهم، وألا نبغض أحدًا منهم، وهذا ما امتاز به منهج أهل السنة، وهو سلامة قلوبهم تجاه جميع الأصحاب بما فيهم آل بيته ﷺ.

فمن حبِّ النبي ﷺ حبُّ آل بيته، فلا يكون الإنسان محبًّا للنبي ﷺ علىٰ الوجه الأكمل حتىٰ يكون محبًّا لآله ﷺ، كما أوصىٰ ﷺ بذلك فقال: «**وأهل بيتي، أُذكركم اللهَ في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»(١)،

«**وقال - أيضًا - للعبَّاس عَمِّهِ - وقد اشتكىٰ إليه - أنَّ بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُم؛ للهِ، ولِقَرَابَتِي**»»(٢).

فمحبتهم من الإيمان؛ لأن حبهم من حبه ﷺ، فالله قد اختار نبيه ﷺ، واختار لنبيه ﷺ آله وأصحابه، كم قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ بني إسماعيلَ، واصطفىٰ مِن بني إسماعيلَ كِنَانَةَ، واصطفىٰ مِن كِنَانَةَ قُرَيْشًا، واصطفىٰ مِن قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصطفاني مِن بَنِي هَاشِمٍ**»(٣).

فلأن النبي ﷺ من بني هاشم صار لهم من الفضل ومن المنزلة ما يجب أن يُحفظ في نفوس أهل السنة، كما يحفظ حقُّ سائر الأصحاب.

وهكذا الشأن في أزواجه ﷺ؛ فهن أمهات المؤمنين، فيجب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد بنحوه (١/ ٢٠٧) برقم (١٧٧٧) من حديث عبد المطلب بن ربيعة رضي الله عنه، وقال أحمد شاكر في تحقيقه «للمسند»: (٣/ ٢١٠): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

أن يعلم ما لهن من الفضل والمكانة؛ فهناك مكانة لخديجة رضي الله عنها، ومكانة لعائشة رضي الله عنها، وكذلك باقي زوجاته رضي الله عنهن جمعاوات.

فمحبتهن والترضي عنهن هو من محبة النبي ﷺ، وفضائلهن مذكورة مثبوتة في كتب أهل السنة، فقَلَّما نجد كتابًا من كتب أهل الحديث إلا وفيه مِن ذِكر فضائلهن؛ فمثلًا كتب السنة كـ«صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» والكتب الستة وغيرها مليئة ومرصعة ومزينة بتلك المناقب التي تدل على سلامة قلوب أهل السنة تجاه هؤلاء النسوة اللائي اختارهن الله لأن يكن زوجات لنبيه ﷺ.

ولذلك نتبرأ من الروافض الذين أبغضوا وسَبُّوا أصحاب النبي ﷺ، وطعنوا في بعض أزواجه بمطاعن يَستحي الإنسان من التلفظ بها وذِكرها، فضلًا عن أن تكون مُستقرة في قلب أيِّ مُسلم.

فأولئك ما حَفظوا عِرضَ النبي ﷺ في عائشة رضي الله عنها، وما حفظوا حقَّ أصحاب النبي ﷺ وما لهم من المنزلة والمكانة، وكما قال الشَّعبي لمالك بن معاوية - عند ذكر الرافضة -: «يا مالك، لو أردتُ أن يُعطوني رقابَهم عبيدًا وأن يملأوا بيتي ذهبًا على أن أكذبهم على عليٍّ كذبة واحدة لفعلوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبدًا. يا مالك، إني درستُ الأهواء كلها، فلم أَرَ قومًا أحمق من الرافضة..».

«ثم قال: أُحَذِّرُك الأهواء المضلَّة، شرُّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يُبغضون الإسلام كما يُبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم...».

إلى أن قال: «ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرَّافضة في خصلتين: سئل اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب

موسىٰ. وسئلت النصارىٰ، فقالوا: أصحاب عيسىٰ. وسئلت الرافضة: مَن شَرُّ أهل مِلتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد. أَمَرَهم بالاستغفار لهم فشَتَموهم»(١).

نعوذ بالله من حال أولئك الضُّلَّال.

والطعن في أصحاب النبي ﷺ هو تجاسر علىٰ الله؛ لأن الله يُزكيهم وهم يطعنون فيهم، وكذلك هو اعتداء علىٰ حقِّ النبي ﷺ، بل هو اتهام منهم له ﷺ بأنه ما أحسن تربية أصحابه! وكذلك شككوا فيما قاله النبي ﷺ من بيان فضلهم ومكانتهم.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ».**

إذ حاول الرَّوافض دسَّ شيءٍ كثير من المَرويات المغلوطة التي كذبوا فيها علىٰ أصحاب النبي ﷺ، وشحنوا بها كتب التاريخ، ومن يَكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ فليس بغريب أن يكذب علىٰ أصحاب النبي ﷺ.

وقال المصنف: «وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ».

فإن صح شيء من الأحداث المروية عنهم فهم معذورون فيها، فهم بين مجتهد مصيب، فله أجران، أو مجتهد مخطئ فله أجرٌ واحدٌ.

وأهل السنة مع ذلك لا يعتقدون أنَّ كل واحد من الصحابة

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤هـ.

معصوم، فالعصمة لرسول الله ﷺ في تبليغ ما بَلَّغه عن ربه، أمَّا أصحابه فشأنهم كشأن سائر الأمة ليسوا بمعصومين، بل إن الذنوب قد تقع منهم كبائرها وصغائرها، ولكن لهم من السوابق ومن الفضائل ما يوجب مغفرة ما قد يَصدر عنهم - إن صدر - حتىٰ إنَّه يُغفر لهم من السيئات ما لا يُغفر لِمَن بعدهم؛ لأن الله مَنَّ عليهم بفضل من الحسنات عظيم، فهؤلاء أهل بدر قال ﷺ عنهم: «**لعلَّ الله اطَّلع إلىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة** - أو - **فقد غفرتُ لكم**»[(١)]، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهم كذلك خير القرون، كما قال ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(٢)].

فهذه (الخيرية) التي شهد النبي ﷺ بها لهذه القرون الثلاثة- تدلُّ علىٰ تفضيلهم وسبقهم وجَلَالة قدرهم وسَعَة علمهم بشرع الله، وشدة تمسكهم بسنة رسوله ﷺ.

وكذلك تقدم في الحديث قوله ﷺ: «**لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفَه**»[(٣)]، قال الحافظُ ابن حجر: «قال البيضاوي: معنىٰ الحديث: لا ينال أحدُكم بإنفاق مثل أُحُدٍ ذهبًا من الفضل والأجر ما يَنال أحدُهم بإنفاق مُدِّ طعام أو نصيفه. وسبب التفاوت: ما يقارن الأفضل مِن مَزيد الإخلاص وصدق النية. قلت -: أي - ابن حجر -: وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٤٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عِظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلىٰ الأفضلية بسبب القتال، كما وقع في الآية: ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، فإنَّ فيها إشارة إلىٰ موقع السبب الذي ذكرتُه، وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا؛ لشدة الحاجة إليه وقِلَّة المُعتني به، بخلاف ما وقع بعد ذلك؛ لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فإنه لا يقع ذلك المَوقع المتقدم»[١].

ثم إن كان قد صدر من أحدهم ذنبٌ؛ فإمَّا أن يكون قد تاب منه، أو أنَّ له من الحسنات ما يمحو هذا الذنب، أو يَغفر الله له بفضل سابقته، أو بشفاعة النبي ﷺ؛ لأنهم أحق الناس بشفاعته، أو يُبتلىٰ ببلاء في الدنيا يُكَفر به عنه ذلك الذَّنب.

وهذا يُقال في موتىٰ المسلمين من غير أصحاب النبي ﷺ، فمن مات علىٰ الإسلام نرجو له النجاة من النار والفوز بالجنة وإن كان عنده سيئات؛ فلعل له حسنة تمحو جميع سيئاته، وربما قد عمل عملًا خفية يغفر الله له به؛ ألم يغفر الله لبغي؛ لأنها سقت كلبًا[٢]، فما بالنا بأصحاب الفضل الذين قال الله فيهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عن أهل بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٤، ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتلُه العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقها فَسَقته؛ فغفر لها به**». **والركية**: البئر. **والمُوق**: ما يلبس فوق الخُفِّ.

فأخبر الله بأنه رضي عنهم، وهؤلاء الروافض يقولون بردَّتِهم! وما هذا إلا أضل الضلال.

وهكذا طريقة النَّواصب الذين آذوا آلَ البيت بقولٍ أو فِعل؛ فكل مَن آذىٰ آلَ البيت بقول أو فعل فنحن نتبرأ منهم ومن معتقدهم وقولهم وفِعلهم.

وما شجر بين أصحاب النبي ﷺ فنحن نُمسك عن الخوض فيه، ونعلم أن ما صَحَّ وثبت منه فهو لا يُعد شيئًا في بحار حسناتهم، فحسناتهم وفضائلهم جليلة قد توافرت النصوص علىٰ إثباتها، وأنَّ ما وقع من القتال بينهم ما أرادوه.

إذ هم أصحاب المواقف الناصعة التي نصروا بها النبي ﷺ، ودافعوا عن الدين بأنفسهم وأموالهم وأهليهم، وأبلوا بلاءً حسنًا في نشره.

ثم ذكر المصنف أنَّ لهم من السيرة مَن نَظَرَ فِيها بِعِلم وبصيرة، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِن الفضائِل؛ علم يقينًا أنهم خَيْرُ الخلق بعد الأَنْبِيَاءِ؛ وأنه لا كان وَلا يكون مثلُهم، لما قَدَّموه للإسلام، فما جاء ولن يجيء بعدهم مثلهم، ولن يستطيع أحد أن يفعل فعلهم، فهم صفوَةُ الصَّفوة مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ.

فإذا كانت الأمة خير الأمم والصحابة خير هذه الأمة، فكيف يكون قَدْرُهم؟! وكيف تكون منزلتهم؟! رضي الله عنهم أجمعين.

وقد بَيَّن شيخُ الإسلام رحمه الله **الفارق بين أهل السنة وبين أهل الأهواء فقال:** «الخوارج تُكفِّر أهل الجماعة، وكذلك أكثر المعتزلة يُكفِّرون مَن خالفهم، وكذلك أكثر الرافضة، ومَن لم يُكفِّر فَسَّق. وكذلك أكثر أهل الأهواء يَبتدعون رأيًا، ويُكَفِّرون مَن خالفهم فيه،

وأهل السنة يَتَّبعون الحقَّ مِن ربهم الذي جاء به الرسول، ولا يُكَفِّرون مَن خالفهم فيه، بل هم أعلم بالحقِّ وأرحم بالخلق، كما وصف الله به المسلمين بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس.

وأهل السنة نقاوة المسلمين، فهم خير الناس للناس».

ثم قصَّ شيخُ الإسلام بعضًا من مواقف الروافض المخزية أيام التتار، فقال: «وقد علم أنه كان بساحل الشام جبل كبير، فيه أُلوف من الرافضة يسفكون دماء الناس، ويأخذون أموالهم، وقتلوا خلقًا عظيمًا وأخذوا أموالهم، ولما انكسر المسلمون سنة غازان(١)، أخذوا الخيل والسلاح والأسرىٰ وباعوهم للكفار النصارىٰ بقبرص، وأخذوا مَن مَرَّ بهم من الجند، وكانوا أضرَّ علىٰ المسلمين من جميع الأعداء، وحمل بعض أمرائهم راية النصارىٰ، وقالوا له: أيما خير: المسلمون أو النصارىٰ؟ فقال: بل النصارىٰ. فقالوا له: مَع مَن تُحشر يوم القيامة؟ فقال: مع النصارىٰ. وسَلَّموا إليهم بعض بلاد المسلمين»(٢).

فنسأل الله العفو والعافية من هذه الآراء والضلالات، ونسأله الثبات علىٰ الحقِّ حتىٰ المَمات.



---

(١) هي سنة ٦٩٩. **وغازان:** هو خان التتار السابع للإمبراطورية المنغولية.

(٢) «منهاج أهل السنة» (٥/ ١٥٨، ١٥٩).





قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِم مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ القُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ.

كَالمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ.

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعِينَ.

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي العِلْمِ وَالدينِ.

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الخِلَافُ، وانْتَشَرَ في الأُمَّةُ».

الشرح:

من أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجَمَاعَة التي خالفوا بها أهلَ البِدع: التَّصديق بكرامات الأولياء، وما يُجريه اللهُ علىٰ أيديهم من خوارق العادات.

وأما أهل البدع فكعادتهم بين الإفراط والتفريط والغُلو والجفاء؛ فمنهم مَن أنكر كرامات الأولياء، ومِنهم مَن عدَّ فِعل السَّحرة والفَسَقة والمَلاحدة مِن الكرامات.

وأولياء الله: هم كلُّ مَن جمع بين الإيمان والتقوىٰ؛ فكل مؤمن تقي فهو لله وليٌّ؛ قال الله تَعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان أولياءُ الله هم المؤمنون المُتَّقون، فبحسبِ إيمانِ العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالىٰ؛ فَمَن كان أكمل إيمانًا وتقوىٰ كان أكملَ ولاية لله، فالناس مُتَفاضلون في ولاية الله عَزَّ وَجَلَّ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوىٰ»(١).

وكراماتُ الأولياء ما حَصَلت إلَّا باتِّباع النبي ﷺ؛ قال شيخُ الإسلام: «وكراماتُ أولياء الله إنَّما حَصَلت ببركة اتِّباع رسولِه ﷺ،

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٢٤).

فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ»[١] وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن اعتقد أنَّ لأحدٍ من الأولياء طريقًا إلىٰ الله غير متابعة محمَّد ﷺ، فهو كافرٌ من أولياء الشيطان»[٢].

وقد ذكر العلَّامة ابن عُثَيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ للكراماتِ دلالاتٍ، فقال: «وهذه الكَرَاماتُ لها أربع دلالات:

أَوَّلًا: بيان كمال قُدرة الله عَزَّ وَجَلَّ حيث حَصَل هذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانيًا: تكذيب القائلين بأنَّ الطبيعة هي التي تفعل؛ لأنَّه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل لكانت الطبيعة علىٰ نَسَقٍ واحدٍ لا يتغير، فإذا تغيرت العادات والطبيعة دلَّ علىٰ أنَّ للكون مدبرًا وخالقًا.

ثالثًا: أنَّها آيةٌ للنبيِّ المَتبوع.

رابعًا: أنَّ فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الوليِّ»[٣].

وأمَّا قول المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي أَنْوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ القُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ» - فقد قال الشيخ الفوزان حفظه الله: إنه «إشارة إلىٰ أنَّ الكرامة منها ما يكون من باب العِلم والكَشف بأن يَسمع العبدُ ما لا يَسمعه غيرُه، أو يرىٰ ما لا يراه غيره يَقظة أو منامًا، أو يَعلم ما لا يعلمه غيره، ومنها ما هو من بابِ القدرة والتأثير.

مثال النوع الأول:

قول عُمر: يا ساريةُ، الجبلَ! وهو بالمدينة، وساريةُ

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٢٠).

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٢٠).

(٣) «شرح الواسِطيَّة» (ص٦٣١).

في المَشرق[١].

وإخبار أبي بكر بأنَّ ببطن زوجته أُنثىٰ[٢].

وإخبار عُمر بِمَن يخرج مِن ولده فيكون عادلًا[٣].

وقصة صاحب مُوسىٰ وعِلْمه بحالِ الغلام[٤].

ومثال النوع الثاني:

قِصَّة الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، وإتيانه بِعَرش بَلقيس إلىٰ سُليمان عَليه السَّلام[٥].

وقِصَّة أهل الكهف[٦].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين: «يُستفاد منها- أي: قصة سارية- ظهور كرامة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنَّ عمر بن الخطاب- علىٰ ما ذُكر في الرواية- كان يخطب الناس يوم الجمعة علىٰ المنبر، فكُشِف له عن سارية وهو في العراق يقود سريةً معه: أنَّ العدو حاصرهم، فقال في أثناء الخطبة: يا ساريةُ، الجبلَ! يعني: اصعد الجبل؛ لينجو به عن عدوه، فاستغرب الناس هذا القول من أمير المؤمنين عمر في أثناء الخُطبة يقول: يا ساريةُ، الجبلَ! فأخبرهم أن القضية كذا وكذا، فيُستفاد من ذلك ثبوت كرامات الأولياء». «فتاوىٰ نور علىٰ الدرب»، الشريط رقم (٣٥٣).

(٢) قال اللالكائي في «كرامات الأولياء» (٩/ ١٢٣): «هذه كانت زوجة أبي بكر، وهي حبيبة بنت خارجة بن زيد من بني زهير من بني الحارث بن الخزرج، وكانت حاملًا حين تُوفي أبو بكر رضي الله عنه، فولدت بعده أم كلثوم، فتزوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، فصَدَّق اللهُ ظنَّ أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه بما قاله، وجعل ذلك كرامة له فيما أخبر به قَبل ولادتها، وأنها أنثىٰ وليست بذكر».

(٣) وهو الخليفة الزَّاهد: عمر بن عبد العزيز رحمه الله. انظر كتاب «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد» لابن الجوزي، و«أخبار أبي حفص» للآجري. وهذا الخبر رواه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٣٣٠).

(٤) وقد وردت هذه القصة في سورة الكهف الآيات ٧٤، ٧٥ و٨٠، ٨١، من قوله تعالىٰ: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾.

(٥) وردت هذه القصة في سورة النمل في الآيات (٣٨- ٤٠) من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

(٦) وردت في الآيات (٩- ٢٦) من سورة الكهف، من قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿...وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وقِصَّة مريم(١).

وقِصة خالد بن الوليد لما شَرِب السُّمَّ، ولم يَحصل له منه ضررٌ(٢) (٣).

ثم قال المصنف: «كَالمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

أي: أنَّ كرامات الأولياء قد حَدَثت في الأمم قبلنا وحدثت في صَدْر هذه الأمة، ولن تَنقطع إلىٰ يوم القيامة؛ فَمَن الكَرامات في الأمم السابقة ما ذكره الله جل وعلا - في سورة الكهف عن أصحاب الكهف ولبثهم في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنوات - وهم نيام - بلا آفة.

وهكذا قِصة مريم، ومن ذلك: أنَّها حَمَلت ووَلَدت من غير زوج مع كَمال عفافها وطهرها، ومن ذلك ما قاله الله عنها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وغير ذلك كثير.

ومن كرامات الصَّحابة رضي الله عنهم: ما رواه البخاري في «صحيحه»

---

(١) وردت هذه القصة في سورة مريم الآيات (١٦- ٣٤) من قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

(٢) وذلك عندما شرب السم فلم يَضره، وقد روىٰ هذا الخبرَ أحمدُ في «فضائل الصحابة» (٢/ ٨١٥) عن أبي السفر قال: «نزل خالد بن الوليد الحِيرة علىٰ بني أم المرازبة، فقالوا له: احذر السُّمَّ لا يَسقيكه الأعاجم! فقال: ايتوني به. فأتي منه بشيء، فأخذه بيده، ثم اقتحمه وقال: بسم الله. فلم يضره شيئًا». وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١١/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) «شرح الواسِطيَّة» للفوزان (ص١٥٧).

عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ رجلين خرَجَا من عند النَّبي ﷺ في ليلة مُظلمة، وإذا نورٌ بين أيديهما حتىٰ تَفرَّقَا، فتفرق النورُ معهما.

وقال معمر: عن ثابت، عن أنسٍ: «إنَّه أُسيد بن حُضَير ورجل من الأنصار».

وقال حَمَّاد: أخبرنا ثابتٌ، عن أنسٍ كان أُسيد بن حُضَير وعَبَّاد بن بِشْر عند النَّبيِّ ﷺ»[١].

ومن ذلك ما رواه مُسلم عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل: «أنَّ أَرْوىٰ خَاصَمَتْه في بعضِ دارِه، فقال: «دَعُوها وإيَّاها، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَن أَخَذَ شِبْرًا من الأرضِ بغيرِ حَقِّه طُوِّقه في سَبع أَرَضين يومَ القيامة**»، اللَّهُمَّ إن كانت كاذبةً فَأَعْمِ بصرَها، واجعل قبرَها في دارِها.

قال: فرأيتُها عَمياء تَلتمس الجُدُر تقول: أَصَابتني دعوةُ سَعيد بن زيد، فبينما هي تَمشي في الدَّار مَرَّت علىٰ بئرٍ في الدار، فوقعت فيها، فكانت قبرَها»[٢].

ومِمَّا جاء في كَرامات التَّابعين فَمَن بعدهم: ما رواه مسلم في «صحيحه» أنَّ أهلَ الكوفة وَفَدوا إلىٰ عُمَرَ، وفيهم رجلٌ مِمَّن كان يَسخر بأويسٍ، فقال عمر: هل هنا أحدٌ من القَرنيِّين؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد قال: «**إنَّ رجلًا يَأتيكم من اليَمن يُقال له: أُوَيْس، لا يَدَعُ باليَمن غيرَ أُمٍّ له، وقد كان به بياضٌ فَدَعا اللهَ فَأَذْهَبَه عنه إلا مَوضع الدِّينار أو الدِّرهم؛ فَمَن لَقِيَه مِنكم فَلْيَسْتَغْفِر لكم**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٦١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٢).

ثم قال المصنف: «**ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**».

منهج أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ واتباع ما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم، وما كان عليه القرون المُفَضَّلة.

فأهل السنة علمهم مستمد من هذه الأصول: من كلام الله ومن كلام رسوله ﷺ، وفهم سلف هذه الأمة، وعلىٰ رأسهم أصحاب النبي ﷺ، وهذا ما أوجبه النبي ﷺ بقوله: «**فإنَّه مَن يَعش بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المَهديين مِن بعدي؛ فتَمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(١).

فأوصىٰ ﷺ بالتمسك وبأشد الحرص علىٰ هذا المنهج، ولذلك كتب ودروس مَن اتَّبع هذا المنهج مليئة بـ«قال الله، وقال رسوله ﷺ، وقال السلف الصالح»، وكما قال الأوزاعي: «العلمُ: ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، فما كان غير ذلك فليس بعلم»، وكذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

وقال أيضًا: «اصبر نفسك علىٰ السُّنَّة، وقِف حيث وَقَف القوم،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) (١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، والدارمي (١/ ٤٤)، وغيرهم.

(٢) «جامع بيان العلم» (٢/ ٢٩).

وقل بما قالوا، وكُفَّ عما كفوا عنه، واسلك سبيلَ سلفك الصالح، فإنَّه يَسعك ما وَسِعهم»(١).

وقيل لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ قال: «مقالات الفلاسفة، عليكَ بالأثر وطريقة السلف، وإيَّاك وكلَّ محدثة؛ فإنَّها بِدعة»(٢).

وكما قال الناظم:

وكلُّ خير في اتباع مَن سلف … وكل شَرٍّ في ابتداع مَن خلف

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

كلُّ العلوم سِوىٰ القرآن مَشغلة … إلا الحديث وإلا الفقه فِي الدِّين

العلم ما كان فيه قَالَ: حدثنا … وما سِوىٰ ذاك وسواس الشياطين(٣)

وقد أمرنا الله باتباع هؤلاء السابقين فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وحذَّرَ مِن مخالفتهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]؛ وقال عن الفرقة الناجية من الأمة بعد الاختلاف أنها: «**مَن كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(٤).

فطريقة أهل السنة اتِّباع كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولا يصدرون في الاعتقاد والقول والعمل إلا عن فهم السلف.

---

(١) «الشريعة» للآجري (ص ٥٨).

(٢) «صون المنطق» للسيوطي (ص ٣٢٢).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (١/ ٢٩٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، (٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، (٢٦٤١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠، ١٤٥)، (٤/ ١٢٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، (٣٩٩٣).

وهذا - بحمد الله - تعالىٰ ما تواصوا به جيلًا بعد جيلٍ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنا نقتدي ولا نَبتدي، ونتَّبع ولا نَبتدع، ولن نضلَّ ما تَمسكنا بالأثر»(١)، أي: لا نبتدأ شيئًا من عندنا، فنحن نقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده، ونتبعهم ولا نبتدع.

ومن صفات أهل السنة والجماعة أنهم يقدمون هدي النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ هدي كلِّ أحد، وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الفُرْقَةُ، وهم بهذه الأصول (الكتاب والسنة والإجماع) يَزنون جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين.

وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ (أي القرون الثلاثة المفضلة)؛ لأن الاختلاف قد كثر وانتشر في هذه الأمة بعدهم.

وهذا الميزان مِن نعم الله علىٰ أهل السنة، ولذلك تجد هذا المنهج يتسم بالثبات، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ وقت الناس هذا، ويتواصىٰ به أهل السنة، ويوصون به من بعدهم، فهو منهج ثابت مهما مرت السنون، وصاحب السُّنَّة في المشرق شأنه كصاحب السنة في المغرب، فأنت تقرأ لابن تيمية كما تقرأ لابن عبد البر، وكما تقرأ للبخاري ومسلم، فالقول واحد لم يختلف ولم يتغير؛ لأن الأصل واحد، والمنهج واحد، مع اختلاف الأزمان، ومع اختلاف الأماكن، مع أنه في ذلك الزمان لم يكن بين هؤلاء وسيلة اتصال، ومع ذلك مَن هو في المشرق كمَن هو في المغرب.

وكذلك أهل السنة في المشرق مثل أهل السنة في المغرب

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (ح١١٥).

ومثل أهل السنة في الهند، فقولهم واحد مهما اختلف المكان والزمان؛ لاتصاف منهجهم بالثبات.

وكذلك اتصف منهجهم باتصال سنده إلىٰ رسول الله ﷺ، فليس قولًا منبتًّا أو منقطعًا، وما لم يكن في كلام الله ولا في كلام رسوله ﷺ ولا في كلام السلف - فأهل السنة منه بَرَاء.

وأمَّا الآخرون فهم يتخبطون، فأسانيدهم منقطعة، ويقرون أن ما كان عليه السلف ليس ما هم عليه، وأن أقوالهم منحصرة في فلان وفلان من الناس، فشتان بين الفريقين!









قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«ثُمَّ هُم مَّعَ هَٰذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الجمع والجَمَاعَاتِ.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ».

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ البَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

وَيَنْدُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَىٰ اليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالمَمْلُوكِ.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الفَخْرِ، وَالخُيَلاءِ، وَالبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَىٰ الخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإسلام الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ. وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَومَ وَأَصْحَابِي»، صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإسلام المَحْضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وهُم الطَّائفةُ المَنصورةُ الَّذِين قال فيهم النَّبيُّ ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتِي علىٰ الحَقِّ ظاهرين، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم، ولا مَن خَالَفهم حتىٰ تقومَ السَّاعةُ.

فَنَسْأَل اللهَ العَظيمَ أن يَجعلنا منهم، وألَّا يُزيغ قُلُوبنا بعد إذ هَدَانا، وأن يَهِب لنا من لُدنه رَحمة؛ إنَّه هو الوَهَّاب، واللهُ أَعْلَم.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّىٰ اللهُ علىٰ محمَّدٍ وآلِه وصَحْبه وسَلَّم تسليمًا كثيرًا».

الشرح:

عُرِف مجتمع أهل السنة بأنه مجتمع صدق وبِر واستقامة، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويقيم الحج والجهاد والجمع والأعياد، ويرون أنَّ ذلك يُقام مع الأمراء؛ سواء كانوا أبرارًا أو فُجَّارًا.

فشعائر الإسلام - بحمد الله - قائمة ظاهرة في مجتمع أهل السنة، وهذا من فضل الله عليهم، ثم باتباعهم سنة النبي ﷺ؛

فالمساجد ليست مهجورة، وحِلق الذِّكر عامرة، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر أمر قائم بفضل الله، وهكذا كل من يعيش في كَنَفهم أو يكون قريبًا منهم يجد هذا الفارق العظيم بينهم وبين أهل البدع؛ فتراهم - بحمد الله - مِن خيرة الناس خُلُقًا، ومِن خيرة الناس سيرة، ومن خيرة الناس فضلًا وكرمًا وإحسانًا إلىٰ الجار وإحسانًا إلىٰ الفقير والمحتاج، ونحو ذلك.

وكذلك تراهم متواضعين مبتعدين عن الفخر والخيلاء، ويتواصون بهذا، ومن حاد من أفرادهم عن هذا الحقِّ قُوبل بالنصح والتوجيه.

وترىٰ الواحد من علمائهم لا تعرف أنه عالم؛ لأنه ليس عليه مِن مَظهر أو حب الشهرة ما تراه علىٰ أهل البدع من تَعَمُّمٍ معين، ولبس مُعَيَّن يتميزون به عن الناس.

وكذلك تراهم متشابهين لا تعرف غنيهم من فقيرهم، فما تجد أحدًا منهم متباهيًا مختالًا يكسر نفس الفقير.

ومجتمعاتهم مجتمعات الخير والأمن، وحسن الخلق قائم، وحفظ القرآن والسنة بحمد الله قائم، والمساجد عامرة بالصلوات الخمس، وبالدروس العلمية والجمع والأعياد.

وكمثال يفرق بين أهل السنة والمبتدعة: تجد في مواسم الحج والعمرة أنَّ أهل السنة يتجهون وقت الصلاة إلىٰ المسجد الحرام وإلىٰ مسجد النبي ﷺ، وأمَّا أهل البدع فتراهم يتسكعون في الشوارع ويقضون هذه الأوقات في الأسواق، فالناس مقبلة علىٰ الصلاة وهم باتجاه معاكس أدبروا عن هذا النداء؛ فشتان بين حال أهل السنة وحال غيرهم!

وأهل السنة يحافظون علىٰ الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة، فهم أعرف الناس بالحق وأرحم الناس بالخلق، فإذا عاش بعض أهل البدع في مجتمعات أهل السنة لا يجدون عند أهل السنة شططًا ولا إجحافًا معهم، بل يبتعدون عن أذاهم أو ظلمهم؛ لأن الله حرم الظلم علىٰ نفسه، وجعله بين عباده محرمًا.

وإن تصرف بعض أفراد أهل السنة تصرفًا خاطئًا فذلك يعود إلىٰ فعله، وليس الأمر دينًا أو عقيدة يدين بها أهل هذه المجتمعات.

وعلىٰ العكس انظر كيف يتعامل أهل البدع في بلادهم مع أهل السنة؟! كيف يؤذونهم ويضطهدونهم بل ويقتلونهم؟!

وأهل السنة يحققون ما أمر به النبي ﷺ حيث أمر بالتراحم، ولذلك تجد أن أعمالهم في الخير عمَّت بلاد المسلمين جميعًا؛ فبنوا المساجد وحفروا الآبار؛ فتجد صاحب السنة (رجلًا كان أو امرأة) له مسجد في الصين وله مسجد في أقصىٰ أفريقيا، وله مسجد في كل مكان، وله بئر هنا وبئر هناك، وله دار أيتام هنا، وله دار أيتام هناك، ويَكفلون آلاف الناس الذين لا يعرفونهم، وينفقون عليهم الأموال الطائلة؛ نشرًا للدين بينهم، ورحمةً بهم، وتأليفًا لقلوبهم، ومساعدة وعونًا لهم في الابتلاءات المختلفة.

وليس بين هذا المسلم المنفق وبين غيره من إخوانه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا وشيجة هذا الدين التي تجعله يكفل أيتام المسلمين، ويقوم برعايتهم وتعليمهم، وهناك رجال نذروا أنفسهم لهذا العمل؛ فنشروا هذا الخير شرقًا وغربًا، وهذا تحقيق لقول النبي ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمنين في توادِّهم، وتَرَاحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عُضو تَدَاعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر**

والحُمَّىٰ»(١)، ولقوله ﷺ: **«المُؤمن للمؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضه بعضًا»**(٢).

فيحققون هذا ويقومون به - بحمد الله - خير قيام.

وصاحب السنة في السراء شاكر لربه نعمه، وفي حال المصيبة صابر محتسب؛ فلا سخط ولا لطم للخدود ولا شق للجيوب، ولا دعاء بدعوىٰ الجاهلية.

وليس هناك - بحمد الله - من نائحة تنوح عند جنائز أهل السنة، ولا يصحبها شيء من البدع، وإنما يُغَسِّلون موتاهم ويكفنونهم ويصلون عليهم كما جاءت بذلك السنة.

وكذلك ليس عندهم قبور تُشَيَّدُ، ولا سرادقات لعزاء تُقام، ولا اجتماع لأربعين، ولا لسنوية، ولا غير ذلك، وإنما يكتفىٰ بما جاءت به السُّنَّة المشرفة.

فانظر إلىٰ حال أهل السنة وحال أهل البدع؛ لتعرف نعمة الله علىٰ أهل السنة؛ فهم في السراء شاكرون، وفي الضرَّاء صابرون، ويتواصون ويتناصحون بأن الله يبتلي بالسراء والضراء؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي: ليس النعمة إكرامًا، وليس التقدير إهانة، وإنما الكلُّ ابتلاء، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [المُلك: ٢].

فصاحب السنة يعلم أنَّ ما هو فيه إنما هو ابتلاء؛ سواء كان رخاء أم شدة، وسواء كان غنىً أم فقرًا، فنحن نشكر الله علىٰ نعمه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن شكر النعم أداء ما افترض الله علىٰ العبد في هذا الحق؛ سواء كان مالًا أو صحة أو ولدًا.

فمن شكر نعمة الأولاد: أن يحسن الوالدان تربيتهم، وأن يحرصا علىٰ تعليمهم أمور الصلاة، وتعليمهم فرائض الإسلام؛ لكي ينشأوا مستقيمين علىٰ شرع الله، فينتشر الخير في المجتمع.

وكذلك أهل السنة يقومون بالدعوة إلىٰ الله، والحث علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والنبي ﷺ قال: «**إنَّما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، وقال ﷺ: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا**»(٢)، وقد أمر الله نبيه ﷺ باللين والعفو فقال جل وعلا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

وأمر ﷺ بصلة الرِّحم، والصدق في المعاملة وحُسن الجوار حتىٰ مع الكافر.

وكان من أخلاقه ﷺ الرفق بالخدم وبكل مَن تحت يده، يقول أنس رضي الله عنه: «خدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُف، ولا: لِمَ صنعتَ؟ ولا: ألَا صنعتَ؟»(٣).

وأهل السنة في وعظهم وإرشادهم يأمرون بالاقتداء بالنبي ﷺ والإحسان إلىٰ الخلق، والرفق بالخَدَم والضعفاء، والنهي عن الفخر

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٧٣)، وأحمد في «المسند» (٢ / ٣١٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٥).

(٢) أخرجه البخاري أحمد في «المسند» (١٦/ ٤٧٨) (١٠٨١٦)، وأبو داود (٤٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٨).

والخيلاء والاستطالة علىٰ الناس، ويسعون في قضاء مصالحهم.

وأهل السنة فيهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعلماء العاملون، وكم تركوا من آثار علمية تتزود منها الأمة، وتغترف منها.

فأهل السنة هم خير الأمة، وهم الطائفة المنصورة الباقية والظاهرة إلىٰ يوم القيامة.

نسأل الله أن يجعلنا من هذه الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

اللهم يا مقلب القلوب ثَبِّت قلوبنا علىٰ هذه العقيدة الصحيحة، واجعلنا من الملتزمين بها علمًا وعملًا، وأَحْيِنا علىٰ ذلك غير مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين، ولا تَقبضنا إلا وأنت راض عنا... آمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

